الأديان والإنسان

منذ مهبط آدم حتى:

اليهودية
المسيحية
الإسلام

تأليف خليل طاهر

قدم له وراجعه فضيلة الإمام الأكبر الشيخ عبد الحليم محمود

وإننا في هذا الزمن الذي أطل فيه الإلحاد سافراً غير مقنع - والذي طغت فيه المادية على النفوس لأشد ما نكون حاجة إلى مثل هذا الكتاب حتى يعود التوازن الروحي سيرته الأولى إلى النفوس القلقة التي تتطلع إلى الطمأنينة وتتعطش إلى نور اليقين ..

د. عبد الحليم محمود

فى هذا الكتاب

دار الفكر والفن
عبد اللطيف زكى



الثمن ٥٠ قرش


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الأديان والإنسان

منذ مهبط آدم حتى:

اليهودية
المسيحية
الإسلام

خليل طاهر

قدم له وراجعه فضيلة الإمام الأكبر الشيخ عبد الحليم محمود

وإننا في هذا الزمن الذي أطل فيه الإلحاد سافراً غير مقنع - والذي طغت فيه المادية على النفوس لأشد ما نكون حاجة إلى مثل هذا الكتاب حتى يعود التوازن الروحي سيرته الأولى إلى النفوس القلقة التي تتطلع إلى الطمأنينة وتتعطش إلى نور اليقين ..

د. عبد الحليم محمود

الغلاف والاخراج

مصطفى حسين

مقدمة

الدكتور عبد الحليم محمود

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة بقلم: الدكتور عبد الحليم محمود

— ١ —

الأديان قبل الاسلام والتاريخ

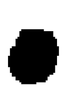
علمتنا التجربة أن هناك عوامل كثيرة تشوه الحقائق وتعبث بها وتصورها على غير ما كانت عليه.

فالخصومات — سياسية كانت — أو مذهبية — أو شخصية — تضفى على الرأى المعارض — بالزيادة أو بالنقص — ألوانا من الباطل قد لا يمت إليه بصلة — وأحيانا لا تكتفى بالزيادة أو بالنقص فتقلبه رأسا على عقب.

وقد صور « البيرونى » هذه الأسباب الباعثة على قلب الحقائق تصويراً رائعاً — فقد يخترع الإنسان — حسبما يرى البيرونى — روايات يعظم بها نفسه — أو يخترع لتعظيم قبيلته أو جنسه أو وطنه.

كما أنه يفعل ذلك — من أجل من يحبهم — من الزعماء والقادة — أو يبغضهم من الأعداء والمخالفين.

« وكم من مخبر عن كذب فى طبقه — يحبهم لشكر أو يبغضهم لنكر ».



« وكم من مخبر كذب — متقرباً إلى خير بدناءة الطبع أو متقياً لشر من فشل وفزع » .

على أن هناك من يروى الكذب طباعا — كأنه محوه عليه غير متمكن من غيره — وذلك لفساد فطرته فساداً ذاتياً .

ثم هناك الذى يكذب جهلا — يريد أن يتعالم — وأن يقدر — وأن يدهش الآخرين بما لم يعلموه — ثم إن من أغرب دواعى الكذب فى الروايات — أن يكون الكذب مصدره التقوى الساذجة وقد حدث هـذا فعلا للموعظة أو للارشاد — إذ يقص المتحدث روايات تحث على التقوى والعلاج وينسبها إلى ذى منصب له تقديره فى نظر الناس .

ولم يقتصر الأمر على اختراع الروايات المفردة أو المتناثرة — بل تعدى ذلك إلى تأليف الكتب وعزوها إلى غير مؤلفيها — هذه العوامل وغيرها — ليست خاصة بزمن معين ولا بمكان محدد — وإنما هى عامة شاملة — وجدت فى القديم كما وجدت فى الحديث ووجدت فى الشرق وفى الغرب — فالعواطف والنزعات والأهواء — والفطر الفاسدة — تلازم بنى البشر إلا من عصم الله — أينما وجدوا .

لذلك — وعلى الرغم من تنبه القدماء والمحدثين لهذه العوامل

وتنبيههم عليها فإن دراسة التـــاريخ ومعرفة وجه الحق فيما مضى وما هو حاضر — من أشق ما يمكن .

وإننا فى زمننا الراهن لا نــكاد نتبين الحقيقة إلا نادراً — وفى صــعوبة ولا نــكاد نتبينها إلا على وجه التقريب على أن ماضينا القريب الذى لم يكن يمضى عليه نصف قرن — أشد غموضــاً من حاضرنا — فإذا كان المــاضى يبعد قرناً أو قرنين فإننا نــكون بصدد ما يشبه الضباب — ولنطو الآن الزمن قرناً فقرناً — رجوعا إلى المــاضى — لنجد أنفسنا فى بلدة صغيرة — من بلاد فلسطين وفى حقبة من التاريخ تبعد عن حاضرنا عشرين قرناً ـ لتــكوين صورة صحيحة عن تلك الفترة التى ولد فيها السيد المسيح عليه السلام ولندرس حياته الشخصية ـ وحياته كرسول ـ وهاد ـ ومبلغ كلمة الله ـ ولندرس تعاليمه التى تلقاها من السماء .

إن ذلك على ضوء ما ذكرنا سابقاً ـ ضرب من المستحيل .

ومع ذلك ـ فإن الإنسانية المتعطشة إلى المعرفة الطلعة بطبيعتها وفطرتها ـ حاولت ولا تزال تحاول ـ أن تجعل من هذا المستحيل ممــكناً ـ وأن تــكون من اللاشىء شيئاً ـ ووجهت كل إمكانيتها وكل عبقريتها ـ وكل ما تستطيعه من مال ومن جهد ومن وسائل

علمية ـ لتستعيد صورة الماضى على ما كان عليه ـ ولكنها للأسف فشلت فشلا ذريعاً .

وإذا ما استعرضنا النتائج للبحث المضنى الذى استمر طيلة القرون الثلاثة فى غير ما توقف ولا فتور ـ فإننا نجده متواضعاً مسكيناً ـ مخيباً لكل ظن .

لقد بلغ بالباحثين الأمر إلى حد أنهم لم يتفقوا على إثبات وجود شخصية المسيح نفسها عليه السلام ! !

فما بالك إذن ـ بمجرى حياته ـ وبتعاليمه ـ وبرسالته ؟ !

أما إذا طوينا القرون قرناً فقرناً ـ رجوعا إلى الماضى فوصلنا إلى موسى ـ عليه السلام وإلى إبراهيم وإلى نوح . . عليهم السلام ـ فإن التاريخ بجميع وسائله وإمكانياته ـ يقف صاغراً لاهثاً لا يكاد يبين .

ـ ٢ ـ

فضل الاسلام على التاريخ

ولكن مصباحاً يتألق وسط هذه الظلمات المتراكمة ـ وواحة تبدو خضراء يانعة ـ وسط هذه الصحراء الجدباء ـ هذا المصباح وهذه

الواحة هما الإسلام ـ فقد كام من تقدير الله أن أنزل القرآن وتعهد بحفظه ـ (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

وإذا كانت معاول البحث العلمى ـ قد أتت على الأناجيل فأثبتت أن كتابتها كانت بعد المسيح عليه السلام بما يقرب من مائة وخمسين عاما ـ وإنها لذلك لم تؤخذ عنه مباشرة وإنها من أجل ذلك لا تعكس تعاليمه ـ كما تعكس المرآة الصورة على حقيقتها ـ وإذا كانت معاول البحث العلمى قد أتت على التوراه ـ فأثبتت فيها التغيير والتحريف والزيادة والنقص فإن هذه المعاول قد وقفت أمام القرآن خاشعة معترفة بأنه صورة صحيحة ثابتة لما كان يقرؤه الرسول عليه السلام على صحابته .

وعلى الرغم من الجهود المغرضة التى تبعث عن نزعة استعمارية أو الحادية أو تبشيرية للنيل من الإسلام فإن هذه الجهود وقفت ذليلة ـ فيما يتعلق بصحة القرآن وأقرت بأن هذا الكتاب الذى يتلى الآن ـ هو الكتاب الذى كان يتلوه محمد صلى الله عليه وسلم منذ أربعة عشر قرنا .

يقول الأستاذ (ديموبين) المستشرق الفرنسى :

(إن الباحث المنصف لا مناص له من أن يعترف بأن القرآن الذى يتلى الآن ـ هو القرآن الذى كان يتلوه محمد على أصحابه) .

أما (سير وليم موير) فقد كتب بحثاً مستفيضاً خرج منه بنتيجة يعتبرها يقينية ـ هى (أن القرآن لم يتعرض قط لتحريف ولا تبديل ـ وإنه الآن كما كان عليه منذ أن أنزل) .

وصدق الله العظيم إذ يقول :

« إنا نحن أنزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

أما حياة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ـ فقد أرادت العناية الإلهية أن يبقى الكثير منها بمعزل عن الشك ـ فأسرته وحياته قبل البعثة وحياته بعدها سواء كانت فى مكة أو فى المدينة ـ كل ذلك قد حفظت لنا الوثائق عنه صوراً لامعة ـ كأننا نشاهدها رأى العين .

وقد حفظ القرآن لنا قدراً كبيراً يتصل بأخلاق الرسول وسلوكه ـ وعبادته وتهجده وجهاده فى سبيل الله وجلاده من أجل الحق وصبره على ما كان يناله من مكروه فى سبيل رسالته .

وكل من ألقى نظره بريئة على حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى القرآن فإنه لا يسعه إلا أن يؤمن بما آمنت به الملايين — من أن محمداً صلى الله عليه وسلم هـــو رسول الله المبلغ عنه الصادق فى تبليغه .

وقد آمن به كثير من كبار مفكرى الغرب الذين لم يحجبهم

الجهل أو التعصب أو ضيق الأفق أو التقليد الأعمى ـ عن أن يروا الهداية كل الهداية فى التعاليم الإسلامية وفى التأسى برسول الإسلام عليه السلام .

ومن الغربيين الذين يعتبرون من قادة الفكر والإصلاح واعتنقوا الإسلام (رينيه جينو) والمستشرق (أتيين دينيه) والعالم الاجتماعى (شرفيس) والزعيم السياسى (اللورد هيدلى) وغيرهم من كبار المفكرين .

والقرآن الكريم وهو الكتاب السماوى المعصوم يكاد يكون المصدر الوحيد الموثوق به الذى يحدثنا عن رسل الهداية السابقين ـ فهو يحدثنا عن عيسى وموسى وعن إبراهيم وعن نوح ويحدثنا عن تعاليمهم ورسالاتهم ـ وينبهنا إلى البداهة البديهية ـ وهى أن كلمة السماء إلى الأرض فيما يتعلق بالعقيدة لم تتغير منذ آدم عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيمو الدين ولا تتفرقوا فيه).

— ٣ —

كتاب الأديان والانسان

لا مناص إذا للباحث الذى يكتب عن الأديان ـ من أن يتخذ

القرآن المصدر الأول والأساسي في بحثه .

وقد التزم ذلك الأستاذ الصحفي النابه « خليل طاهر » فاتبع المنهج الصحيح السليم وتحاشا بذلك الضرب في بيـــداء الظنون والأوهام .

ولـكن القرآن لم يذكر كل التفاصيل التي تتعلق بحياة هؤلاء الرسل — والتي تتعلق بأممهم وما مثل القرآن به إلا كمثل منارات متألقة على الطريق تعصم السائر من أن يضل سبيلا .

فـكان لابد للاستاذ خليل طاهر من أن يستـكمل التفاصيل من غير طريق القرآن — فاتخذ أساسا آخر سليما كل السلامة — ذلك أنه : —

جمع ما في استطاعته من وثائق ثم غربلها ونخلها فاستبقى منها منها مالا يتعارض مع القرآن — ومالا يتعارض مع العقل وما لا يتعارض مع طبيعة الأمور .

وذلك — كما نرى — يحتاج إلى جهد عنيف — وإلى دراسة متواصلة وإلى مشقة لا يتحملها إلا من آمن بسمو الغاية التي يهدف إليها .

ولقد وفق الأستاذ خليل طاهر كل التوفيق فيما أراد — من الناحية التاريخية .

على أن السرد التاريخى لم يكن هدف الكتاب الأول فى تأليفه — إذ كان هدفه من وراء هذا السرد : استخراج العبرة والهداية — وتوجيه النفوس والأرواح والقلوب إلى الأرشاد السماوى، وإلى حكمة الله من خلق الإنسان .

ولقد وفق فى هذا السبيل أيضاً كل التوفيق .

وكان لأسلوبه السهل وإخلاصه الذى يبدو فى ثنايا كلامه — وروحه التى تنشد الهداية كان لكل ذلك أثره الفعال الذى سيأتى — أن شاء الله — وبالثمرة الموجوده .

وإننا فى هذا الزمن الذى أطل فيه الإلحاد سافرا غير مقنع — والذى طغت فيه المادية على النفوس لأشد ما نكون حاجة إلى مثل هذا الكتاب — وإلى الكثير من أمثال الكاتب — حتى يعود التوازن الروحى سيرته الأولى إلى النفوس القلقة التى تتطلع إلى الطمأنينة وتتعطش إلى نور اليقين .

« وبالله التوفيق »

د . عبد الحليم محمود

«عظمة الله»

الحمد لله خلق الانسان وهو العليم بغرائزه البصير بطبائعه وما يصلحه وما يفسده . . وكان من العناية الالهية أن أرسل اليه الرسل مبشرين وناصحين ومؤدبين ومنذرين . . وأنزل معهم الكتب السماوية آيات بينات واضحات ذكر الناس فيها بأحوال الماضين وسير الأولين وما أصابهم من العذاب بما نقضوا من الميثاق ونبذوا من الهدى والارشاد .

وصلاة وسلاماً على رسوله المصطفى مبعوث العناية الربانية وخاتم الأنبياء والمرسلين — إلى الجماعات البشرية لتبلغ كمالها العقلى — فكانت رسالته عامة جامعة لا تتقيد بجماعة أو بأمه وتشمل كل ما يلائم الراشدين من الناس من مطالب العقل والحياة حتى إذا اهتدى الناس اليها امتلأ قلبه بالايمان وأشرقت نفسه بالفضيلة وأنتج عقله الخير — وتبحرت جوارحه إلى العمل الصالح الذى تقتضيه شخصيته بعيداً عن الاهواء والانحرافات التى تقع فى دنيا الناس — سليما من اختلاف الأراء والنزاعات .

أما بعد . . فإننى لا أجد شرفاً لكتابى (الآديان والإنسان) سوى تقديمى لمطالعيه وقراءته لا تستغرق وقتاً طويلا وفى قراءتها مثوبة ساقها الله لأن الكتاب كله من الله وعظمته وكمال رسالته . . . وليس لنا من هدف الا سبيل الإصلاح والهداية وإحياء الشعور فى نفس المؤمن بالوحدة الإلهية والوحدة الإنسانية والوحدة الوطنية — فيعرف فضل ربه — وحق مجتمعه الدينى والوطنى والإنسانى ليعتدل ميزان الحياة وترجع النفوس إلى حظيرة الخير فلا يطغى الشر والفساد على القدر الذى يتبقى أن يكون فيها من خير وصلاح ليكون للناس فيها مقام واستقرار وتتمكن مبادىء الأخوة والمحبة والسلام وهى كلها مثل احبها الله ودعا اليها رسله !

وليس من شك فى أننا أصبحنا نعيش فى زمان كله الحاد وفوضى روحية وفساد خلقى واجتماعى تواجهنا فيه سيئات العادات وتطالعنا من كل ناحية النزعات الشريرة الطغيانية التى جعلت من الدين الواحد والشرع الواحد والعربى الواحد أدياناً متعددة لكل منها عقيدة وطقوس !!! وأمسينا فى جيلنا هذا أحوج ما نكون إلى الصالحين الأبرار فى كل مكان . . فى البيت والمدرسة — والهيئة والندوة وفى النقابة والمتجر والمصنع . وإلى مؤمنين مدربين ومجاهدين مسلحين بالعلم والمعرفة ليحاربوا الشر إينما وجدوه ويدفعوا الأذى حيثما شهدوه

ويردون إلى الدين عزته وسلطانه وإلى العدالة منارها الوضاح وإلى الوطن حقوقه — لأن فهم الدين والدفاع عن مبادئه يستوجبان أن نعيش عليه ونحيا فى صميمه ونرسل سلطانه فيمن حولنا — لأن مجرد العلم بالدين لا يكفى مطلقاً — فقد يكون المرء فيه مفسراً جريئاً أو حكماً قاضياً ولكنه مع هذا كله يظهر سقيما إذا جلس الناس اليه — ضعيف الأثر فى النفوس إذا — استمعوا اليه لاحتياجه إلى قوة الايمان التى تثير الخاطر وشفافية الروح التى تتملك العقل وتأسر اللب !!

.. لذلك توخينا فى موضوع الكتاب سرد الحياة منذ كانت الانسانية فى مهدها الأول مفطورة على الدين مؤمنه بأن قوة مدبرة ومبدعة وراء هذا الوجود وكيف وجدت نفسها مسوقة إلى تقديسها. ثم بين كيف ترقت معيشة بنى الانسان ونشأت العقائد الوثنية فى حجر الجهل والخوف .. وكيف تأصلت فى طبائع بنى الإنسان فعاش مأخوذاً بأسرار الطبيعة ومظاهرها وهو لايدرى من أمرها شيئاً يعالج ماغمض كما يعالج الطفل الامور — فرهب جانبها وخشى بأسها وتوسل اليها — فارتفعت عنده إلى مقام الألوهيه وتحولت شيئاً فشيئا إلى سلطة تقضى بالطاعة والإحترام ورسمت لعبادتها الطقوس والسحر والشعوذة على أنها معجزات !!

وقد عنينا فى البحث باظهار ما كانت تقوم عليه رسالة الاديان قبل الاسلام فتحدث الكتاب عن حياة الأنبياء منذ آدم أبى البشر ثم سار مع الزمن متنقلا فى مراحل الدهر — وعاش فى عصر الطوفان ومع قوم نوح وشرح رسالة نبى الله ابراهيم الخليل ودعوته إلى دين التوحيد . . وما أصاب قوم لوط من العذاب . . ثم تناول قيمة بنى اسرائيل وتاريخ نشأتهم وأساليب حياتهم وكيف أن الله جل ثناؤه أنقذهم بنبيه موسى ليصحح عقيدتهم ويدفع بهم إلى الطريق القويم وينجيهم من بلاء فرعون وجنوده . فلم يلبثوا أن كفروا نعمه — وقضوا أوامره وحرفوا كلماته وبدلوا أحكامه وسعوا فى الأرض فسادا يشيعون الرذائل ويوقدون نار الفتنة ويقتلون الأنبياء ظلماً وبغياً كأن فى نفوسهم عطشاً إلى الدماء — ويصنعون بالمسيح عيسى بن مريم رسول الله — ما صنعوا . . ويقولون السوء فى أمه العذراء الطاهرة ويحاربون المسيحية شرعة السلام والمحبة حتى هاجرت من الأرض المقدسة !!!

. . وبين الكتاب أن تنازع البقاء فى سبيل الله هو قتال مشروع سواء أكان دفاعاً عن الوطن أو النفس أو عن الدعوة الدينية وأن الله جلت حكمته لولا أنه يدفع المبطلين بأهل الحق والظالمين بأهل

العدل والمفسدين بأهل الصلاح لفسدت الحياة واسادها الأقوياء الظالمون دون منازع — أو مدافع وعم الفساد وانتشر البلاء . . لما أراد الله سبحانه بالناس خيراً بعث فينا محمداً سراجاً منيرا ليخرجهم من ظلام الجهل إلى نور الإيمان السليم فهداهم إلى سبيل ربهم وإلى العقيدة الصحيحة بالمنطق المستقيم ومخاطبة العقول ودعوتها إلى التبصر وإلى الاعتبار لأن الدخول فى الإسلام تعاقد ومبايعة بين المرء وربه وعهد على البذل والتضحية .

هذا هو كتابى — أسأل الله أن يمدنى بعونه وتوفيقه وأن يلهمنى السداد فى بلوغ الدعوة اليه — سبحانه وإلى خدمة سننه التى ترمى إلى توحيده سبحانه وإلى البر بالمجتمع والإنسانية .

« خليل طاهر »

الله

سبحان الله .. خلق كل شيء فقدره تقديراً — هو الأول السابق فى الوجود والآخر الباقى بعد فناء كل موجود .. يحيى ويميت وإليه الله المصير .

يعلم الغيب فى السموات والأرض ويعلم الصادق من الكاذب والداخل فى الإيمان رغبة فيه أو خوفاً منه ويعلم ما تكنه الضمائر .

هو السميع بما تتحدث به الأنفس والألسن وما غاب عن الناس وما استتر فى خبايا الكون .... وهو البصير بما يتم سراً وجهراً من طاعة ومعصية ويجزى كل نفس بما عملت لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت .

ينزل الغيث من السماء ويعلم ما فى الارحام من ذكر أو انثى وما تكسب النفس غدا وفى أى أرض تموت والمنعم بالاولاد من بنين وبنات .

لا اله إلا هو وحده الملهم للصواب والموفق لطريق الحق وعنده علم الساعة ويعلم كل ماهو فى الأرض من جامد وسائلى وكل ما يخرج منها من نبات ونعم وكل ما هو عليها من إنسان وحيوان

وكل ما ينزل من السماء من مطر وملائكة ورحمة وعذاب وكل ما يصعد إليها من دعاء وأرواح .

هو وحده مع جميع المخلوقات فى كل لحظة ولو لم يكن معها لماتت فى لحظة — فسبحانه الذى أوجدها وأشرق جوده عليها . . له السلطان المطلق والحكم النافذ فى الوجود واليه يصير الخلق فيقضى بينهم بالعدل فاما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية — فى جنة عاليه وأما من خفت موازينه فامه هاوية وما أدراك ما هيه نار حامية !!

الاستدلال عليه تعالى

التعرف إلى الله لايحتاج إلى علم غزير أو فلسفة واسعة . . وإنما يكفى للانسان أن يلقى نظرة فى صفحات هذا الوجود ومايزخر به من روائع القدرة وما يشتمل عليه من آيات النعم . . ومافى الأرض من منافع وخيرات وملذات ومسرات . . وإلى السماء كيف رفعت وزينت بالكواكب . وإلى الشمس وقت شروقها وأشعتها الباعثة للحياة والقمر عند طلوعه . . وفى اختلاف الليل والنهار . . والبحر فى سعته وامتداده وفى عالم الأحياء وعالم الأموات ليرى شواهد ناطقة بأن صاحب هذه القوى الحكيمة المدبرة هو الله . . ولو بحث فى جمال الطبيعة وحسنها والوان أشجارها لوجد أن يدالقدرة الآلهية الكريمة

هى التى زينتها بابداع وشكلتها ولونتها باحكام يؤكد أن صانعها ومبدعها لا يرقى اليه تفسير العلم وحاشا لله أن تخضع حقيقته لوصفاته لما نراه فى عالمنا المحدود .

ولو تأمل فيما سخره لمنفعته وسعادته لعرف أن شربة الماء التى يروى بها ظمأه وقرص الخبز الذى يأكله دفعاً لجوعه — سخر الله لهما السموات والأرض — فحرارة الشمس تسبب تبخير مياه البحار تتساقط من الطبقات العلوية على الأرض ماء عذباً سائغاً شرابه فتحيا به الأرض بعد موتها وتنبت الحب والزرع !

ولو نظر إلى نفسه وأنعم الفكر فى خلقه . . وتساءل من أسبغ عليه هذه النعم فمنحه قوة ظاهرة وأخرى باطنه ومنحه العقل الذى استطاع به تذليل كل شىء .

. . لعرف أنه هو الله جل جلاله . . ولسرت فى كيانه هزة الإجلال والإكبار للذات العلية ولهذه القدرة السامية الباهرة .

الاعتراف بوجوده سبحانه

والاعتراف بوجود الله إذن ليس فى حاجة إلى استدلال لأن كل مافى هذا الكون من حياة وأسرار يدل على وجوده وعلى أن قوته وأرادته هى التى أبدعته مما لا يدع مجالا عند العقل للظن بأنه نشأ عن المصادفة أو عن موجد غير شامل القدرة والعلم وغير واسع الحكمة .

والبحث عن حقيقة الله والتعرف اليها أمر شغل الإنسان منذ كان له وجود — وهو فى اشباع رغبته هذه لم يدخر وسعاً فى محاولة الكشف عن صفاتها بغرض الوصول إلى شهرة علمية أو القاب فخرية يزهو بها بين الناس . . لكننا مهما حاولنا بالعلم أن نجتاز الحدود التى لا يمكن أن نتجاوزها لمعرفة حقيقة الله فإننا عاجزون عن إدراكها . . وهذا هو سر تعالى الله عن مشابهة كل مخلوقاته وجل أن — يكون له سبيه يدنو من عظمته وكماله فليس كمثله شىء يوصف به وكيف ذا وهو خالق كل شىء .

والعقل مهما بلغ من قوة العلم فهو محدود لا يملك أن ندرك به ما هو غير محدود ومادام العقل أضعف من أن يبلغ فى معرفة كنه الله شيئاً مذكورا فإننا لا نستطيع إدراكه عن طريق الحواس « لا تدركه الأبصار » غير أننا إذا نظرنا إلى الله عن طريق خزانة العقل فإننا نراه تعالى ظاهر الوجود — وإذا نظرنا اليه من خزينة الحواس فهو باطن الوجود (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها)

إذن . . لا يملك إلا الاعتراف بوجود واحد أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد وهذا هو ما كشف عنه العلم الحديث وما أكده العلماء الطبيعيون إذ قالوا (إن قوة مدبر حكيمة محيطة بالأشياء احاطة تامة هى التى نظمت هذا الكون . . وأن ما صنعته

هذه القوة فى الإنسان وفى الحيوان وفى النبات تؤكد أنه لابد واحد.. وإن الذى يجرى القوة التى نراها فى السماء والأرض لابد واحد وأن الذى صمم عين الإنسان بعدستها ومائها وما وراءهما من شبكة تلقى عليها الصور هو نفس الواحد الذى صمم هذا الشمس وأخرج منها أشعتها ووجهها إلى الأرض.

ثم اجمعوا على أن حقيقة هذا الواحد من الالغاز العلمية التى لن يدركها العقل !!

.. ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء.

الايمان به جل جلاله

والايمان بالله الواحد الخالق الأزلى الذى ليس كمثله شىء أمر من طبيعة النفوس لأن الانسان فى قلبه فهم روحى ينمو ويتحرك ويبدع ويتصور وله قدرة على إدراك الحقائق وتمييز قيمتها .. وصفات الله التى تقرؤها البصائر على ألواح الكائنات كلها أمور خفية — لا يدرك لها الحس صورة وإنما يدركها ذلك العقل الروحى الذى يدور نشاطه فى القلب: لا تدركه الإبصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير.

ومطالعة هذه الصفات الكريمة فى معالم هذا الوجود تجعل القلب يحس بنور يسطع بين جوانحه وبقوة غيبية كريمة تسلكه فى أمرها ونهيها وتملأ أقطار روعية بأن لاشىء فى هذا الوجود إلا الله الواحد

القهار وأن ما عداه فهو مخلوق له مربوب ويشعر بوجد أنه يوقظه من عقلته إلى ادراك الحق الأكبر الكامن وراء تلك الكائنات ويسخرها بالنواميس ويحكمها بالسنن .

وهنا يكون المرء قد سما بنفسه إلى مرتبة الرشد واهتدى بقلبه إلى جلال الايمان ويبرأ مما يعبد سواه ويهتف من أعماق قلبه قائلا « ياقوم أنى برىء مما تشركون أنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين »

والإيمان بالله وحده لاشريك له هو أصل الأديان السماوية كلها كما جاء فى قوله تعالى (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عيهم ولاهم يحزنون) وهو الينبوع الذى أفاضه الله بالهدى والمحبة والاحسان من قلوب أنبيائه ورسله إلى الناس كافة للتوجه إلى خالقها لاستمداد العون واستلهام الرشد إلى طريق الخير والسعادة لتطهير النفس من الشر والرذيلة والتحلى بالفضائل السامية لأن النفس المؤمنه لاترضى أن تكون ظالمة لأنها تعرف أنها تعارض بذلك صفة من صفات الله وهى الرحمة والعدل تصديقاً لقوله عليه الصلاة والسلام (ارحموا من فى الأرض يرحكم من فى السماء) — ولاتقبل أن تكون شريرة مؤذية لأن الله حسيب رقيب يعلم خائنه الاعين

وما تخفى الصدور . وكلها من وصايا الدين الذى والى الله تجديده على لسان أنبيائه ورسله لأن رسالة الله واحدة تتابع على حملها الرسل والأقوام !!!

وفى الحديث أن جبريل سأل الرسول قال « اخبرنى عن الإيمان فقال الرسول ـ أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره شره ـ » قال جبريل ـ صدقت ـ

ورحمة الله

والله مع كبريائه وقوة سلطانه عادل رحيم . بل وكتب على نفسه الرحمـــة ووسعت رحمته كل شىء فجعل كتابه رحمة . .

« وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمه »

وجنته رحمه «وأما الذين أبيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون»

ورسوله رحمة « وما أرسلناك إلا رحمة للعاملين »

وهذا هو السر فى أننا نرى أن كل سورة من القرآن تبدأ بتلك العبارة الـكريمـة وهى « بسم الله الرحمن الرحيم » .

. . ومع ذلك فإن الله يعظ عباده ويخوفهم من أن يأتى يوم الساعة بغتته وهم مقيمون فى الضلال ويحذرهم من عذابه فى يوم القيامه . . يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لـكل أمرىء يومئذ شأن يغنيه ويقول لهم (يا أيها الناس إتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغرنـكم الحياة الدنيا ولا يغرنـكم بالله الغرور)

سر الوجود

قصة الكون عبادة صامتة وتسبيح على — لأن كل ما فيه من قوة وارادة أبدعته وسوته هى السبيل لإدراك الخالق — وسعت رحمته وحكمته التى تذكرنا بقوله (أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون) .

ومن محاسن كتب الدين أنها وصفت رب العزة إلى عباده بأجمل الصفات التى تملأ القلوب بجلاله وتجذبهم إلى حبه وإيثاره — والسير فى الحياة على هدى نوره وإيمانه فسبحانه نور وروح — وسر كل موجود وأن كل ما فى هذا الوجود صادر منه وقبس من نوره وكل ما فى الحياة يعبر عن إرادته وهذا ما عرفه لنا الكتاب الكريم فى قوله تعالى (الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح — المصباح فى زجاجة — الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونه لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار — نور على نور — يهدى الله

لنوره من يشاء ويضرب الأمثال للناس والله بكل شيء عليم .

إذن ما هى الحياة ! !

ذلك ما لم يدركه الإنسان . لأنه ليس للحياة وزن ولا حكم ولكنها المصدر الوحيد الذى يجعلنا ندرك بعقولنا أنها ليست سوى أداة لخدمة مقاصد الله تعالى تصديقا لقوله « وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون » وقوله للملائكة « إنى جاعل فى الأرض خليفة... » ولهذا ستظل الحياة باقية بإرادته وتنتهى عند مشيئته وعنده وحده علم الساعة . .

والحياة ألوان وصور . . فيها الخير والشر . . والحلو والمر . . والناس فيها طوائف مختلفة فى الآراء والعقائد . . فيهم الأخيار والأشرار . . والطيب والخبيث والبر الفاجر ونتيجة لهذا الاختلاف والتباين فى المشارب والأهواء — نشأ هـذا الصراع الدائم الذى نشهده بين الحق والباطل والفضيلة والرذيلة . . إرضاء لما توسوس به النفس الأمارة بالسوء . . مما أدى إلى كثرة المفسدين والأشرار فى محيط الحياة أو دنيا الناس — ولهذا يقول الله تعالى « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة » .

واختلف الناس منذ بدء الحياة فى فهم السعادة . . فمنهم من

آرها فى الثروة الواسعة وفى ـ الصحة الشاملة ـ والمناصب السامية . . ومنهم من اعتقدها فى الصيت البعيد والذكر الحميـد . . ومنهم من يراها فى طاعة الله وصفاء النفس المطمئنة وراحة القلب الراضى كما قال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما أنزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم[1]) .

ومن تأمل مقاصد الحياة . . وتغلغل فى أسرارها عرف أنهـا ترمى إلى الإيمان وطهارة النفس موهو الغرض الذى يحقق فلاح الإنسان وصلاح أعماله وكماله الذى يسعد به دنيا وأخرى لأن إنقاذ الإنسان من نزعات نفسه يتوقف على تخليصها من كيد الشيطان خصيم الفضيلة الذى لا شىء أقوى على طرد وسوسته من القلب إلا بذكر الله ومراقبته تعالى فى السر والجهر وذلك لا يكون إلا بعد طهارة العقيدة .

والإنسان أمام نزعات الحياة أشبه بمن يكون فى دوامة . . غير قادر على الوقوف ضد تيارات النفس العاصفة إلا إذا زكاها بالإيمان وحصنها بالدين وراضها على اتباع أوامر الله ـ وضحى فى ذلك بالغانية فى سبيل الباقية استجابة لقوله تعالى (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) وقوله فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى

وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى) وتلك منزلة لا ينالها إلا أهل الرشد ولا يبلغها إلا الصابرون المجاهدون وهذا هو سر الوجود . . لأن الإنسان حينما يفقد رشده الروحى . . يفقد تمييزه للقيم والمعانى وأقدار الأمور فتبدو له ايات هذا الكون وصوره مشاهد مبهمة وألواحاً خالية من كل معنى سام - لا يعنيه منها إلا مقدار ما يأكل ويشرب . . فيضل وينسى ويخطىء . . وقد يعرض عن أمر ربه ما وسع الشيطان أن يصرفه ويوسوس ويزين له . . وقد يذهب به الطيش والجهل فينكر وجود الله ولا يقبل عليه ويقول . . أن هذا الكون يسير بالطبيعة أو أن الطبيعة هى التى خلقت الحياة وكونتها ثم خلقت الإنسان وأنه لا حياة أخرى بعد هذه الحياة ولا بعث ولا نشور ولا لقاء مع الله وبذلك يكون قد اشترى الضلالة بالهدى تبعاً لهواه وايثاراً لرضا أنانيته وذهاباً مع شهواته . . لكنه إذا رأى الهلاك محيطاً به أو الموت مقبلا عليه تذكر ربه فى خشوع وخضوع وتوجه إليه متوسلا وملحاً فى الرجاء حتى إذا ما أنجاه وأزال عنه الشر . . نسى كل فضل لله ثم عاد سيرته الأولى إلى الكفر والعناد والغرور . . وما كان الله ليعلى من شأن الإنسان ويجعله خليفة له فى الأرض وسيداً فى هذا الوجود ويفيض عليه نعمة العقل إلا ليكشف له حكمة وجوده وسر الوظيفة

التى خلق من أجلها وأنه مهما وصل بعمله وتقديمه فلا يزال عاجزاً أمام الله وقدرته فيتجه إليه ويعبده حق العبادة ويسير فى الحياة وفق طاعته وأوامره .

ومن الغريب أن العقل الإنسانى الذى ملأ الدنيا بأسرها علماً واختراعاً . . بل ويفاجئنا كل يوم بجديد من الابتكار وغريب من الاختراع . . تارة بشموس وأقمار صناعية وتارة بقنبلة هيدروجينية أو ذرية تنشر الهلاك وتودى بحياة الملايين من الناس والخيرات وبكل ما يمسه إشعاعها . . عاجز ضعيف أمام خطر اتفه المخلوقات كالذباب والناموس والبراغيت . . وعاجز عن ابتكار دواء يقى الإنسانية من أمراض السرطان والسل والسكر وعاجز حتى عن مصل عدوى الزكام بين الناس وكلها أشياء ضئيلة وحقيرة إذا قيست بأسرار الكون وعجائبه أو قيست بقدرة الله المدبر الأعظم . . ومع هذا ينازع ويجادل فى الله تعالى وفى استحقاقه للتفرد بالعبادة ويعبد أوهاماً لا تضر ولا تنفع ولا تملك مع الله شيئاً وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا . بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا .

ومنذ وجد الناس على وجه الأرض وهم فى حيرة يتساءلون ؟ من أين جئنا . . وكيف نعيش . . وإلى أين المصير . . ومنهم من ضل السبيل وحاد عن منبع الحق . . ومنهم من أنار الله لهم الطريق

عرفوا حكمة وجودهم وساروا فى الحياة على بصيرة من أمرهم حتى إذا ما أدركهم الموت تركوا هذه الدنيا وراءهم دون أن يصيبهم خزى أو عار فى الآخرة لأن كل ما يعمله الإنسان ففائدته تعود عليه فإن عمل خيراً لقى جزاءه الخير وإن عمل شراً لقى جزاءه الشر . . فلا كفر الكافر يضر الله .. ولا إيمان المؤمن ينفع الله لأن جميع التكاليف السماوية لم يقصد بها إلا مصلحة الناس .

ومنذ وجدت الحياة فى الأرض ـــ والله تعالى وهو الأبر بالناس وإلا حنى عليهم . . لم يتركهم لهذه الحيرة فبعث إليهم بالرسل يحملون لهم هدايته ويشرحون سبيله ورسالته فى غير غموض أو تعقيد . . وقد توارث الأنبياء والرسل منذ آدم إبلاغ هذه الرسالة واجهدوا أنفسهم فى تعريفها للناس . . ليوفروا على الأذكياء مشقة البحث عن حقيقة الله ومعرفة سر الحياة والوجود .

ولم يبعث الله برسول إلا وقد أيده بالآيات الكونية والمعجزات المخالفة لمألوفات العقل والخارجة عن مقدور البشر ليكون إظهارها على يديه مع رسالته دليلا على أنه مرسل من عند الله . . فطوفان نوح ونار ابراهيم وناقة صالح وبساط سليمان وعصا موسى والعجائب التى ظهرت على يد عيسى كانت كلها آيات حسية يوم أن كان العقل البشرى ما زال فى تفكيره الساذج ويوم أن كانت هـــذه

المعجزات تبلغ من نفسية الناس ما لا يملكون معه إلا التسليم والتصديق .

فلما بدأ النوع الإنسانى يدخل فى طور الرشد وبدأت الحياة العقلية تأخذ طريقها إلى الظهور لم تعد تلك العجائب أدلة كافية على صدق الرسالة . . ذلك أنها مجرد أشياء خارجة عن مألوف الحياة وأصبح العقل الإنسانى يريد شيئاً يتناسب والطور الذى وصل إليه أنه يريد الإيمان الذى لا تخالطه الشكوك واليقين الذى يبدد ظلام النفس وحيرتها .

فكان أن بعث الله إلى عباده رسولا أمياً هو محمد صلى الله عليه وسلم وأيده بالمعجزات العلمية والحجة العقلية وهو القران كتاب الله الكريم — فكان ثورة على الباطل فى كل صوره . وعلى الفساد فى جميع مظاهره وعلى الخرافات التى لوثت العقول وأعمت القلوب .

إن القرآن نزل منذ أربعةعشر قرناً ، ولكن معجزته ظلت إلى إلى الآن وحتى قيام الساعة لا تتعارض مع الحقائق العلمية .

صحيح أن القران لم ينزل إلا منذ أربعة عشر قرنا . . غير أنه . . جديدة فيها خلاصة كاملة للرسالات والشرائع والنصائح التى بذلت للانسانية منذ فجر وجودها لأنه الدين الكامل للحياة كلها وشريعة

الناس أجمعين غير موقوت بزمن ولا مختص بطائفة معينة من الناس .

وإذا كان القرآن الكريم قد عرف الإسلام بأنه الدين الفطرى والذى والى الله تجديده على لسان جميع الأنبياء لتحرير الناس من عقائدهم الوثنية وخرافاتهم الوهمية ودفعهم نحو عالم أفضل مشرق بالفضائل فقد سمى القرآن أيضاً اتباع جميع الأنبياء بالمسلمين - كما سمى أتباع الدعوى المحمدية سواء بسواء والله بهذا يؤكد الوحدة الدينية أن الدين عند الله هو الإسلام الذى فطر الناس عليه وإثباتاً لحقيقته وهى أنه الدين الطبيعى الذى تتلاقى الأديان جميعاً فيه من حيث جوهرها وصميمها وقد بين القرآن ذلك فى آيات عديدة فقال تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) — وقوله فى آية أخرى (أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون . قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) .

وجميع قصص الأنبياء فى القران تشير إلى أن دينهم هو الإسلام وتسمى القوم المهتدين مسلمين مما يؤكد وحدة الدين ووحدة الرسالات

النبوية فقد قال القران على لسان إبراهيم الخليل لبنيه « يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » .

وقال على لسان السحرة المصريين الذين امنوا بموسى عليه السلام « ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين » .

وقال على لسان ملكة سباء التى امنت بسليمان عليه السلام « قالت رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » .

وقال عن قوم موسى عليه السلام « فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون[٢] » .

وقوله تعالى لرسوله المصطفى « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون[١] .

وقد نعى القرآن على الذين فرقوا بين الأديان السماوية والأنبياء بقوله تعالى « ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا » .

ومن هذا يتبين أن الإسلام قد دعا جميع من أقلته الأرض

الى شريعته مصداقاً لقوله تعالى « وما أرسلناك إلا كافة للناس » ومعنى ذلك أن من آثر ديناً آخر عليه أو ميز طائفة أخرى على المسلمين فقد حاد عن الطريق السوى لأن هذا الدين لم يخص بدعوته أمه ولا جاء ليعلم قوماً دون قوم ولا هو رابطة قومية ولا جامعة جنسية ولكنه عقائد سامية وأعمال تستوى أمامها كل شعوب الأرض . عماده الحق وقوة البرهان وخيرة الفضيلة والأرض كلها داره والمحبة والأخوة شعاره وكل من استجاب لدعوته أنصاره — وقد أكد الرسول فى حجة الوداع التى كانت البلاغ الأخير للمسلمين عليه الصلاة والسلام أيها الناس كلكم لآدم وادم من تراب لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

ولما أراد الإسلام أن ينشر دعوته ويبسط ظل رحمته على أمم الأرض جميعاً ليصلحها ويسير بها إلى سبيل سعادتها كانت كلمته فيهم منطوية على التسامح وبيان طريق الخير فى رفق ولين لا أكراه فيها ولا قهر — وتظهر آثار ذلك جلياً فى الكتب التى بعث بها رسول الله إلى ملوك الدول ورؤسائها يدعوهم فيها إلى الاسلام دين الله الذى شرعه خاتم الأديان وفى هذه الكتب بأسرها نرى عبارات السلام والأمان واضحة . فلما رفضوا الخضوع والانطواء حيث راية الايمان وكرهوا أن يستجيبوا له عاد الرسول الكريم فذكرهم بأنهم

مسئولون عن رعيتهم وأن إثم أتباعهم عليهم ولأولادهم ما بقيت على ظهر الأرض نفس تأبى الإسلام وايتدفق الناس يدخلون فيه أفوجاً .

ولولا ماقوبل به الإسلام من النكران والعدوان ما اشتعلت نار الحرب واشتبكت الرماح مع السيوف وطاحت رؤوس وأزهقت نفوس ولا ذنب للاسلام فى ذلك ولا للرسول مصداقا لقوله تعالى (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيهـــا اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز .

من هنا يتبين الأصل فى عقيدة الإيمان وهى الإسلام والوحدانية لذات الله المنزهه عن الشبيه « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد »

وأن الكون واحد — (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهـا وجعلنا من المـاء كل شىء حى أفلا يؤمنون » .

وأصل البشرية واحد — (الذى خلقكم من نفس واحدة منها زوجها) .

والدين واحد — (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)

إذن .. فمادامت البشرية قد هيئت لهذه الحياة الدنيا بمشيئة الله .. ومادام قضاء الله وقدره يشمل إرادته فى أن يهب الخير والإيمان والعذاب والشقاء لمن يشاء وأن يعاقب المذنب على خطيئته بالعذاب . . . فليس على الإنسان إلا أن يبذل مافى وسعه من جهد ليوفق للعمل على كسب رضاه . . لأنه مادامت الخليقة كلهــا قد نشــأت بإرادته سبحانه فإنها ستعود اليه لترى جزاءها .

وإذا كانت النفس البشرية هى منحه من نور الله وروحه فإنها ستعود إلى الله ليحاسبها وبذلك يكون الكون قد أدى رسالته ولله الأمر يومئذ ! !

وإذا مااهتدى الإنسان إلى هذه الحقيقة . . امتلأ قلبه بالإيمان وأنتج عقله الخير وأشــرقت نفسه بالفضيلة — وتحركت جوارحه إلى العمل الصالح لخيره وخير الإنسانية — لأن من خاف الله واتقاه وعمل بما يحبه ويرضاه . . . سلم وسلم الناس من أذاه ! !

سر الكون

يدلنا الكتاب الكريم على أن الله تعالى حين أراد أن يخلق الوجود ويفطر السماوات والأرض كان عرشه على الماء وأودع فى كل شيء علمه وقدره منذ الأزل وأثبته فى كتاب ـ من ذلك مصير السماوات والأرض ومصير كل نفس ومقدار ما سيصيبها من خير أو شر وفوز برحمته تصديقاً لقوله (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير[1]) .

ولما شاءت إرادته وكل الأشياء سابقة ومقدرة فى علمه ـ أن يخلق شيئاً تكون له الحياه وتكون حياته فى الأرض التى سيخلق فيها ـ ومن مزيج من تربتها بما فيها من العناصر الكيماوية والمعدنية لتكون له السيادة والسيطرة عليها بما منحه من نعمة العقل والذكاء!! بدأ فى خلق السماوات والأرض فخلقهما فى ستة أيام وأصل وجود الأحياء الأرضية فى بداية تكوينها كان من الماء وهو ما دلنا

(١) سورة الحديد .

عليه القرآن في قوله تعالى : (وجعلنا من الماء كل شيء حي) والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجليه ومنهم من يمشي على أربع . . وخلق الله ما يشاء وجعل أصل الإنسان من تراب ـ فكان عنصره محتوياً على المواد الحجرية والمعدنية .

قال تعالى : (هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء) .

وفي الحديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال (كان الله ولم يكن قبله شيء وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء ثم خلق السماوات والأرض » .

ومن الغريب أن بعض العلماء الطبيعيين ما زالوا يؤكدون القول بأن الأرض والسماء والشمس والقمر خلقت من غير خالق وإنها وجدت من نفسها ! ! وهل يجوز في نظر العقل التسليم بهذا الزعم ؟ وكيف يصدق عقل أن الشمس وجدت تلقائياً من غير شيء في هذا الفضاء ـ وإن الأرض برزت إلى هذا الوجود وحدها ـ ثم كيف تخلق وتبدع تلك الكائنات الباهرة الرائعة من غير خالق موجود ! مبدع ! !

. . قال تعالى (إنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين . وإن الله تعالى خلق الأرض وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام وأوجد فيها طبقة طينية مفككة تصلح للانبات وخلق فيهـــا الجبال كأوتاد مغروسة كى تتحمل الضغوط الرسوبية وتوزعها وتغير من اتجاهها وتكسر حدتها محافظة للطبقة الصالحة للانبات من أن تغور ـ ثم يسر الله الحياه لبنى الإنسان وغيره من الدواب والحيوانات المنبثه . . فأنزل من السماء ماء أحيا به الأرض وصارت تربتها صالحة للزراعة وأنبت بها من كل زوج كريم أى أن كل نوع من النباتات فيه الذكر والأنثى وقد يكون الذكر وحده والأنثى وحدها كالنخيل . . وقد تكون الشجرة الواحدة مشتملة على النوعين إحدى أزهارها ذكر والأخرى أنثى . . وقد تكون الزهرة الواحدة مشتملة على الذكر والأنثى معاً وعلى كل حال فعالم النبات كعالم الإنسان والحيوان لابد فيه من التزاوج لحفظ بقاء النسل فى الأنواع .

والماء الذى أنزله من السماء هو من ماء الأمطار الناتج من تبخر مياه البحار وغيرها بواسطة نظام الحرارة فصيره سحبا تصرفه الرياح ثم أنزله مطراً أحيا به الأرض وأجراه أنهاراً وينابيع فى الأرض تتفجر أحياناً بصنع بنى الإنسان وأحياناً من نفسها .

وزينت الأرض بحلل خضراء وبسط سندسية وأخذت النباتات تنبثق منها والأشجار تشتد أصولها وترتفع دوحاتها إلى الأفق شامخة كأنها تقترب من السحاب برؤوس أغصانها وقامت الغابات والاحراج متكاثفة فى جنباتها الرحيمة ولم يكن يسمع فيها وقتئذ سوى هدير المياه وخرير الأشجار وصفير الرياح وكأنها تتغنى ببهجة سعادتها — وتغمر الفضاء بموسيقى تسبيحها بحمد خالقها .

خلق البحار والأنهار

ولقد امتن الله على عباده فخلق لهم البحار والأنهار (وهو الذى سخر لكم البحر لتأكلوا منه طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم يهتدون أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون — وأن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم) .

والبحار المحيطة بسائر أرجاء الأرض ماؤها ملح الطعام مر — وفى هذا حكمة بالغة نظراً لأن مياه البحر لا تجرى كمياه الأنهار — ولو كانت حلوة لأصابها العفن والنتن — وأدى ذلك إلى فساد

الجو والهواء بسبب ما يموت فيها من الحيوانات البحرية ولأصيبت البشرية بالفناء .

أما الأنهار فماؤها حلو عذب فرات سائغ شرباً لمن أرادو جعلها جارية ينبعها الله فى أرض ويسوقها إلى أخرى رزقاً منه لعباده .

ومن نعمة الله على عباده أن كفاهم شر البحر من أن يطغى عليهم، بل سخره لهم يحمل مراكبهم ليبلغوا عليها الأقاليم النائية بالتجارات وغيرها ـ وهداهم فيه بما خلقه فى السماء والأرض من النجوم والجبال كعلامات يهتدون بها فى سيرهم .

ومتعهم بما خلق فيه من أنواع اللآلىء ، والجواهر النفيسة النادرة . . ومن أنواع الأسماك اللذيذة الطرية وأحلها لهم حتى ميتها كما جاء فى الحديث « أحلت لنا ميتتان ودمان السمك والجراد ، والكبد والطحال » !

خلق الجان

وبعد أن انتهى عز وجل من خلق السماوات والأرض وما فيها من الجبال والأشجار والأنهار والسهول والأوعار وجميع الجماد والحيوان

والطيور فى البرارى والقفار والبر والبحر ويسر لـكل دابة رزقها .. خلق الجان من النار ثم أسكنه الأرض — قال تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون .. والجان خلقناه من قبل من نار السموم) .

ومنحه القدرة على التشـكل بالصور المختلفة التى يريدها ـ وهم يختلفون عن الملائـكة فى أنهم يأكلون ويشربون ويتناسلون ومنهم الصالحون الذين يستمعون إلى القرآن كما ورد عنهم فى سورة الجن ـ ومنهم الأشرار الذين يقضون أوقاتهم فى تضليل الناس وغوايتهم وزعيمهم إبليس الملعون الذى كان من قبل مع الملائـكة المقربين لأنه كان كثير العبادة فلما عصى أمر ربه بالسجود لآدم مع الملائـكة وأخطأ فى الرد على الله — طرد إلى الأرض فهبط إليها حقيراً ذليلا مذموماً متوعداً بالنار هو ومن اتبعه من الجن والإنس !!

ولما كان الجن بطبيعتهم عتاة قساه يميلون إلى المشاكسة والعصيان والعناد فما كادت تستقر بهم الحياة على الأرض حتى ملأهم الغرور فغلبتهم طبيعتهم وعاثوا فى الأرض فساداً لا يقيمون للدين وزناً ولا لله حساباً — وظلموا وتـكبروا وجحدوا نعم الله وأنـكروها فبعث الله إليهم جنداً من الملائـكة ظلوا يطاردونهم إلى رؤوس

الجبال والخراب الباقى واستراحت البشرية من شرورهم وآثامهم .

ويقال فى وصف الجن ـ أن لهم وجوهاً مثل وجوه بنى آدم وأذنا الماعز وأفواه الكلاب وأرجل البقر ولا يرتدون الثياب وليلنا نهارهم ونهارنا ليلهم .

وليس ما يقال عن الجن مجرد خيالات ينكرها البلاء بل هن كائنات حقيقية يسببون مالا حصر له من الأذى لبنى الإنسان !

خلق السموات

هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء .

وهى دخان فسواهن سبع سماوات وهو بكل شىء عليم .

. . ثم استوى تبارك وتعالى إلى السماء وهى دخان وكانت طبقة واحدة ففتقها وجعلها سبع سماوات وأحيى فى كل سماء أمرها مما لا يعلمه غيره ـ ثم خلق فى السماء الكواكب وجعلها زينة لها وحفظاً يحفظها بها من الشياطين . . وذلك فى يومين ثم استوى جل جلاله على العرش بعد أن فرغ من خلق ما أحب !!

والسموات هى مجموع ما نراه فى الفضاء من فوقنا من سيارات ونجوم وهى مرتبة بعضها فوق بعض تطوف اجرامها سائرة فى الفضاء

كل منها له مداره المقدر بالنظام الإلهى ونظـام الجاذبية والله هو ممسكها ومجريها إلى الأجل المقدر لها .

وعظمة السموات ليست فى الشمس وتوابعها ولـكنها فى النجومية وفى أقدارها وأوزانها وأضوائها وأبعادها على اختـلاف أنواعها وفى استقرار كل كوكب فى موضعه ومداره . . وفى حفظ بالنسبة التى بينه وبين غيره من الـكواكب ــ كل ذلك يسنن المحبة أوجدها القادر الحـكيم ولولا ذلك ــ لانفرط عقد هذه الـكواكب السابحة بإرادته وصدر بعضها ببعض وهلك العالم وما فيه .

قال تعالى (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ــ ولئن زالتا أن أمسكهما من أحد من بعده) وهذا القول الـكريم يؤكد لنا أن الله هو المتصرف فى السموات والأرض تصرف المالك الضابط الحـكيم فى تصرفه القادر فى ملـكه ــ وأنه لولا وجوده لما وجد مخلوق ولولا علمه الواسع وحكمته لما وجد هذا النظام الرائع الذى تحار فيه العقول وتضل الأفهام ! !

إننا لو نظرنا إلى نظام الـكون نجد أن الـكرة الأرضية تدور حول محورها فى نظام دقيق مرة كل أربع وعشرين ساعة أى بسرعة مقدارها ألف ميل فى الساعة . . ولو فرض أنها أبطأت ودارت بمعدل مائة

ميل فقط فى الساعة فماذا كان يحدث ؟ لا شك أن ليلنا ونهارنا يطول كل منهما أكثر مما هو عليه الآن عشرات المرات .. وتكون فى هذه الحالة حرارة شمس الصيف تحرق نباتنا وحيواننا فى كل نهار . . ويتجمد النبات والحيوان فى كل ليل !

ولو فرض أن الشمس التى هى مصدر كل حياة فى الأرض قد زادت حرارتها على الكرة الأرضية عما هى عليه بمقدار خمسين مرة . . فإن النتيجة أن كل ما على الأرض من إنسان وحيوان و نبات يموت حرقاً أو تجمداً !

وقد ظن الناس قديما أن الشمس أكبر اجراما السماوات وأنها المركز لكل السيارات فأين هى من حجم نجم الشعرى اليمانية الذى قال الله عنه « وأنه هو رب الشعرى » فهذا النجم تساوى قدرته على إشعاع الضوء والحرارة بمقدار قدرة الشمس ٢٦ مرة ـ فلو فرض أنه حل محل الشمس يوماً من الأيام فماذا ياترى كان يحدث . . تنتهى الحياة فجأة بغليان الأنهار والمحيطات والقارات الجليدية التى تحوط القطبين نظراً لأن ضوء الشعرى وحرارته يصلان إلينا بعد ثمانى أنما ضوء الشمس وحرارتها فيصلان بعد ثمانى دقائق !

وماذا كان يحدث لو أن بعض الكواكب اختل توازنها أو اضطراب سيرها فاقتربت من الأرض لا شك أن العاقبة تكون مروعة

ـ ولو هبطت وارتطمت بالأرض لالتهبت الأرض وفنى كل من عليها في الحال .

وإذا تساءل الإنسان عن الآفاق الواسعة غير المتناهية التي جعلها الله مقراً للشمس والقمر وسيارات الكواكب تجول فيه قدرة سامية منتظمة في عالم الأفلاك الخاص بها ـ تضبط سيرها وتطلع ليلها ونهارها . . لسقط في الحيرة من فرط التعجب ولحنى رأسه في خشوع ورهبة أمام عظمة الله ـ معترفاً بقصوره وعجزه عن فهم هذه القدرة التي ليس لها نظير . . ويرى أن مداركه العقلية التي ساحت تائهة بتصوراتها لمعرفة سر هذا المهندس للكون ـ لقد ساقته للإيمان بالله وحده لا شريك له !

قال تعالى (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق) .

وخلق السموات والأرض من الآيات الكبرى الدالة على وجود الله تعالى وقدرته وعلمه الواسع وقد أراد الله أن يبين بها نعمه على الإنسان وأن يدلل له على عظيم قدرته كي تدركها العقول السليمة حيث قال (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال) .

سكان السماوات

والسموات من آيات الله الخالدة التي ينعم فيها سكانها بنوره القدسي وبرحمته ورضوانه وهى مصدر الكتب السماوية وسكان السماوات هم الملائكة .

أما الملائكة . . . فهم أرواح قدسية نيرة — خلقهم الله لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتزوجون — ولا يعصون له أمراً ويفعلون ما يؤمرون . . . وكبار الملائكة هم المقربون. ومنهم جبريل الوحى الأمين ورضوان خازن الجنة ومالك خازن النار وعزرائيل ملك الموت الذى يتوفانا واسرائيل النافخ فى الصور يوم القيامة .

ومنهم حملة العرش الذين قال الله عنهم (ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيله وقهم عذاب الجحيم ـ ربنا وادخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم أنك أنت العزيز الحكيم وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم) .

وقيل عن الملائكة أنهم عقول بلا مادة . . . وفى مقدورهم الانتقال من أحد أطراف العالم إلى الطرف الآخر فى أقل من لحظة

ومن غير أن يتجاوزا ما بينها من فضاء ذلك بإرادة الله .

والملائكة طوائف عديدة . . منهم سكان السماوات السبع يعمرونها عبادة دائبة ليلا ونهارا صباحا ومساء وكلهم مستغرق فى عبادته مسبح بحمده مقدس لعظمته وجلاله .

ومنهم الموكلون بالجنة ولتهيئتها لساكنيها . . . والموكلون بالنار وهم الزبانية المذكورين فى قوله « وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب » .

ومنهم الموكلون بحراسة وحفظ الإنسان كما قال تعالى (وإن عليكم لحافظين) .

والموكلون بحفظ أعمال الناس مصداقا لقوله (عن اليمين وعن الشمال قعيد ـ أما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) .

ومنهم الموكلون بسؤال الميت فى قبره . . ومنهم الموكلون بشئون العالم المديرون أمر الله فيه وتنفيذ إرادته فى الحياة الدنيا .

وهنا يجب الأمان بأن الله خلق السماوات والأرض وما بينها فى ستة أيام يعلمها هو وبأن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقها ـ وبأنه خلق السموات فى يومين وخلق الأرض وما فيها فى أربعة أيام وبأن كل شىء حى فمن الماء خلقه . . وإن كل شىء خلقه بقدر .

مهد الحياه

وخلق أدم وحــــواء

واقتضت مشيئة الله أن يعمر الأرض بالمخلوق الذى يعمر الحياة وإلا يكون هذا المخلوق كمن خلقهم من قبل من النار وهم الجن ولا ممن خلقهم من النور وهم الملائـكة — وإنما يكون من طبيعة الأرض نفسها لتقوى صلته بها فيكون أقدر على استغلال ما فيها من خيرات ومنافع عديدة !!! .

ولما أطلع ملائـكته على هذه الرغبة وأنه سيخلق خلقا جديداً من التراب من حفنه من اديم الأرض وطينها — ليجعله خليفة عنه فيها يرعى حدوده ويقيم شعائره ويسبح له ويعبده وينفذ أوامره — أجابت الملائـكة فى خضوع وخشوع (أتجعل فيها من يفسد فيهاويسفك الدماء — اجابت الملائـكة ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ذاتلا الـكريمة !

قالت الملائكة ذلك خوفا من أن يكونوا قد ارتكبوا خطأ وهم المستغرقون فى عبادة الله أو اعتقادا منهم بأن الله تعالى معاقبهم على ذلك بخلقه الجديد لإستخلافه بدلا عنهم وخشوا من أن يتجاوز هذا الخلق الجديد حدود الله يتلهى عن عبادته باقتراف السيئات — وارتكاب الأخطاء والعصيان كما رأوا من فساد الجن على الأرض — فاراد رب العزة العظيم بكرمه ولطفه أن يبين لهم رضاه عليهم وسامى حكمته بقوله (إنى أعلم مالا تعلمون) فلما سمع الملائكة ذلك اطمأنت نفوسهم لرحمة الله ... وهذا ما يدل على واسع علمه وعظمة قدرته الإلهية التى خفيت حتى على الملائكة المقربين .

واوحى الله إلى الأرض أنه سيخلق منها خلقه الجديد ليسكنها ويعمرها ويمشى فى مناكبها وينتشر نسبه فى ارجائها ويستخرج ما فيها من النعم والأسرار والكنوز التى أودعها لخير بنى الإنسان — وأن من أطاعه سيكون من الناجحين الناعمين بالأخرة ومن عصاه واتبع الاهواء كان من المعذبين فى دار الجحيم ... إلا من تاب وآمن وعمل صالحا يرضاه .

وأمر الله جبريل الملك الكريم ان يقبض له من الأرض قبضة

فيها خليط من ترابها من أحمر وأسود وأبيض مالحها وحلوها — خبيثها وطيبها — ولذلك كان فى ذرية آدم الطيب والخبيث والصالح والطالح الجميل والقبيح والبر والفاجر وكذلك اختلفت صورهم والوانهم والسنتهم وعقائدهم .

وبدأ الله تعالى خلق آدم أبى البشر عجنا لزبا (طينا لاصقا) ثم صوره فى أحسن صورة ماشاء ركبه أى فى أكمل شكل وأبهى منظر وأجمل تنسيق . بدن كامل — أعضاء مستوية أجزاء متناسقة ليقوم كل منها بمهمته الخاصة التى لا يستغنى عنها الجسم ولا يستقيم بدونها البدن الكامل ... وشاهد الملائكة هذا النوع الجديد من خلق الله وهو على هذه الصورة الكريمة الجميلة فكبروا لله جلائل نعمه وحسن صنعة . . أما أبليس فعندما رأى آدم على هذه الصورة قبل أن تنفخ فيه الروح — هاله الأمر ودخله الغرور والكبرياء وحقد على الإنسان وهو ما زال من طينه .

وفى الوقت المحدد فى علم الله لإتمام إرادته (نفخ الروح) فوقفت الملائكة يسبحون ربهم ويكبرونه ليشهدوا مولد الإنسان الذى فضله على العالمين . . وتمت الإرادة . . بقوله سبحانه وتعالى (كن فيكون . . ودخلت الروح إلى آدم من دماغه ثم نزلت فى

عينيه كي يرى بدء خلقه حتى إذا ما تتابعت عليه النعم والأفضال لا يتملكه الزهو أو الغرور بنفسه فيكون من المتكبرين .

ولما وصلت الروح إلى منخريه أخذ آدم يعطش . . . وما كادت تنزل إلى الحلق وتصل إلى اللسان حتى قال . الحمد لله رب العالمين . . وهي أول ما نطق به آدم . . فأجاب ربه يرحمك يا آدم ـ وللرحمة خلقتك وقد سبقت رحمتي عليك غضبي . وحينما بلغت الروح إلى جوفه اشتهى الطعام والشراب ... ولما وصلت إلى عجزه ـ أخذ آدم يعالج القيام فلم يتمكن منه وذلك مصداقاً لقوله (خلق الإنسان من عجل) وقوله (وكان الإنسان عجولا) وسرعان ما انتشرت الروح في جسده كله فصار لحما ودما وعظماً واوردة وشرايين ثم كساه الله من ثياب الجنه وزينه بأجمل حليها ـ ثم استوى ادم قائما بشرا سويا ـ كالبدر ليلة اكتماله يخرج من ثناياه نور كضياء الشمس وهو نور محمد صلى الله عليه وسلم .

وقد كمل الله ادم قبل أن يخرجه إلى حيز الخلق ونفخ فيه من روحه ليبقى مصباح الحياه فيه دائما لا ينطفئ . وانعم عليه بكل ما يلزمه من الاستعداد العالى ليكشف له عن مواهبه وتلقى كلمته والقيام بها وحمل أمانة الحياة والاضطلاع بتبعاتها !!

. . وأمر الله ملائكته أن يسجدوا لآدم كما جاء فى قوله تعالى (فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين (أى سجود تحية وتعظيم . . لا سجود صلاه وعبادة . . وذلك تكريما له و كفارة عن استصغارهم لشأنه واعتقادهم بعدم صلاحيته لأن يكون خليفة الله فخرجت الملائكة سجداً امتثالا لأمر الله وتلبية لندائه . . إلا أبليس اللعين أبى واستكبر وأخذته العزة بالاثم فرفض أن يطيع الله ويسجد لآدم وكان من الكافرين وسأله الله . . يا أبليس (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى . . استكبرت أم كنت من الضالين) !!

قال أبليس (أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) .

قال له الرحمن (أخرج منها فإنك رجيم وأن عليك اللعنة إلى يوم الدين) .

وعز على أبليس أنه سيخرج من الجنة ويحرم من رحمة الله بجوار رب العالمين وأنه سيكون ملعونا إلى الابد ثم ينال عذابه الأليم فى جهنم يوم القيامة جزاء عصيانه وامتناعه عن السجود لآدم.... فانتوى فى نفسه شرا كبيراً لآدم ليهدم حياته فى الجنه ويخرجه منها ....

وسأل ربه أن يبقيه فى الدنيـــا إلى يوم القيامة (قال رب فانظرنى إلى يوم يبعثون) فقال له ربه (فانك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم) فاستبد الغيظ بأبليس وملأه الخزى والعار وأقسم لربه قائلا (فبعزتك لأغوينهم أجمعين)

وسأبذل جهدى فى إضلال آدم وذريته إلى يوم الدين « إلا عبادك منهم المخلصين » .

فقال له الله محـذراً (أن عبادى ليس لك عليهم سلطان)

وخرج أبليس مطروداً من الجنة مشيعاً بلعنة ربه . . وهبط إلى الأرض وعاش فيها ذليلا حقيراً .

تكريم آدم

وأكرم الله أدم فأمر ملائكته أن ترفعه على سرير من سرر الجنة وتطوف به ليرى أيات الله ويشهد عجائبها . . وقالت الملائكة لبيك ربنا سمعنا وأطعنا . . وكان أدم كلما مر على جمع من الملائكة قال لهم « السلام عليكم ياملائكة الله ويردون — وعليك السلام ورحمة الله وبركاته — وقد قال الله لآدم هذه تحيتك وتحية المؤمنين من ذريتك فيما بينهم إلى يوم القيامة .

وأسكن الله آدم الجنة وجعلها مأوى له ومنزلا ينعم بحياتها الوارفة ولذاتها الشهية وخيراتها الكثيرة . . . وعلمه أسماء كل الأشياء والهمه القدرة على نطق اسم أى شيء يسأل عنه أو تقع عليه عيناه سواء من نبات أو زرع وغذاء وطيور وحيوان « لأنه سيحتاج اليها فيما بعد ليتمكن من الاستفادة منها فى حياة الدنيا التى قدرت له من قبل .

وطلب الله من ملائكته أن ينبئوه بأسماء هذه الأشياء فعجزوا أو إعتذروا إلى ربهم قائلين (سبحانك لا علم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم) وقال الله . . (يا آدم أنبئهم بأسمائهم) . . فلما أنبأهم بها قال للملائكة (الم أقل لكم أنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون) .

وعاش آدم فى الجنة التى تجرى من تحتها الأنهار ينعم بثمارها اليانعة وفواكهها الناضجة وقطوفها الدانية ويتمتع بكل مافيها من نعم الله التى لا تعد ولا تحصى . . أشجار ونخيل وفاكهة لذيذة جميلة مختلفة الألوان والأنواع . . تحوطه العناية والرحمة وتظلله الدوحات الفينانه الوارفة فى حسن تنسيق وإبداع . . ولكنه مع كل هذه النعم ورغم السعادة ـــ كان يشعر بأن شيئاً ينقصه وأن

سعادته لن تكتمل إلا به — كان يحس بوحدته فليس معه من يجالسه ويؤانسه ويشاركه نعيم الحياة ويدخل على نفسه وقلبه البهجة والسرور .

واتجه آدم بقلبه إلى الله العليم بذات الصدور والمطلع على الأفئدة وهو حائر لايدرى من أمر هذا الاحساس سيئاً . . وتجلت قدره الله ومننه سبحانه فاستجاب لآدم . . والقى عليه النوم — فراح فى سبات عميق . . وأخذ الآله بيده الكريمة واحدة من أضلاعه من جانبه الأيسر وسواها إنساناً جميلا تام الخليقة حسن المنظر بهى الطلعة فيه نعومة وأنوثه وعطف وحنان وقدره على الإغراء — والسيطرة على القلوب والوجدان ثم ألبسها أبهج حلل الجنة وزينتها ! ! !

قال تعالى (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها) ولهذا جعل الله الرجال قوامين على النساء — وللرجال عليهن درجة . . . وهنا أيقن بوجدانه أن الله قد استجاب لدعائه فخر ساجداً شاكراً لله جزيل نعمه وأفضاله وواسع رحمته .

وأقبلت حواء على آدم . . . فتطلع اليها ووجدها شابه رائعة الحسن والجمال ممتلئة جاذبية تبين دلالا وفتنة وجمالا وسحراً فاستشعر آدم فى الحال بأو ميلا جارفاً لم يكن يشعر به من قبل وعاطفة قوية كلها حب وحنان

تجـــــذبه اليها .

وأرادت الملائـكة أن تداعب أو تمتحن آدم فالقت عليه هذه الأسئلة ؟

ـ من تـكون هذه ؟

ـ قال آدم أمرأة

ـ وما اسمها ؟

ـ قال حواء

ـ قالوا . . صدقت . . ولماذا سميت حواء؟

ـ لأنها خلقت من شيء حي .

ـ ولم خلقها الله ؟

ـ قال آدم . . لتسكن إلى وأسكن اليها

قال تعالى ـ يا آدم أسكن أنت وزوجتك الجنة فـكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتـكونا من الظالمين .

آدم وخطيئته

ولما سمع أبليس . . بأن ا أباح لآدم وحواء الجنة كلها إلا ثمرة واحدة فقد حذرهما أن يأكلا منها ـ فرح وأخذ فى تدبير خطة للتأثير

عليهما حتى يأكلا من هذه الشجرة ويكونا قد خالفا أمر ربهما وعصياه فغضب الله عليهما وكان نصيبهما الطرد من الجنة كما سبق أن طرد من هو وبذلك تتحقق أحلامه وأمانيه ضد آدم وحواء وذريتهما ويكون الجو خالياً أمامه للانتقام والإيقاع بهم .

وشرع أبليس فى تنفيذ فكرته واتجه إلى آدم وحواء وأقسم بالله أنه لهما من الناصحين وظل يوسوس لهما حتى نسى آدم وحواء أن الله حذرهما من هذه الشجرة وأغترا بذلك لأنهما ما كان يظنان أن أحداً يحلف بالله كذباً . . وقيل أن حواء أول من تناول سنابل الشجرة وأكلتها ثم تبعها آدم فأكل منها هو الآخر . . . فلما ذاقا حب الشجرة كشفت سوآتهما وسقط عن آدم لباسه الذى كان يرتديه وعريت حواء من لباسها وزينتها فأخذا يخصفان عليهما من ورق الشجرة لستر عورتيهما .

عتاب الله

ندم آدم وحواء وأخذا فى الاعتذار إلى الله قائلين (ربنا إنا ظالمنا أنفسنا وأن لم تغفر لنا وترحمنا لنكون من الخاسرين) .

وقد حذرهما الله من قبل من مخالفة أمره بالأكل من الشجرة فقال (أن هذا أبليس) عدولك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة

فتشقى) (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) .. وطرد الله آدم وحواء من الجنة بعد أن غفر لهما وتاب عليهما وطرد معهم أبليس اللعين وقال لهم تعالى « اهبطوا إلى الأرض » بعضكم لبعض عدو ـ ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين »

ادم

وقد يسأل إنسان . . لم خلق الله العليم بكل شىء رجلا وامرأة قدر عليهما أن يكونا مشغوفين بالمعرفة والطاعة مرة وبالغفلة والمعصية مرة أخرى وخلق منهما أجيالا بشرية ملوثة بهذا الاثم الموروث !!

ولاجابة هى أنه من المستحيل على مخلوق بمقتضى قوانين الطبيعة أن يكون كاملا لأن الكمال لله وحده وأن حرية الانسان فى أن يأثم هى الدور الذى لابد أن يؤديه نظير حريته فى الاختيار كانسان لأن الإنسان إذا سلب حرية الإرادة أصبح مجرد آلة ذات حركات ذاتية .

والواقع أن الشر ليس موجوداً إيجابياً لأن كل حقيقة بوضعها حقيقة خير .. وليس الشر إلا غياب صفة مقدرة يجب أن تكون موجودة فى الكائن بطبيعته . . وكل شىء طيب كما خلقه الله . . ولكن الله لا ينقل كماله اللانهائى إلى مخلوقاته . . فالأصل فى الفطرة الخير ولذا قال صلى عليه وسلم .. كل مولود يولد على الفطرة ـ

وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه .

وفى رأيى أن الخطيئة عمل الارادة الحرة حين تخرق نظام العقل الذى يوفق بين الوسائل والغايات .

والله تعالى لم يهبنا حرية ارتكاب الخطأ ولكنه وهبنا أيضاً بوحيه الإلهى الشعور بالصواب والخطأ وهذا الضمير الغريزى ذو السلطان المطلق على النفس يجب أن يطاع مهما تكن النتيجة .

هبوط آدم وحواء

وهبط آدم وحواء . . لم يكن هبوطهما إلى الأرض عقاباً أو تأديباً لهما وإنما لتنفيذ إرادة الله فى قضائه وقدره وسيعود الإنسان إلى الله حتماً تنفيذاً لقضائه وقدره « يا أيها الإنسان أنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه » فمن الواجب عليه أن ينهج فى الحياة طريق الرشاد الذى يحبه الله له ! !

وقد روى أن آدم هبط على إحدى جبال جزيرة سيلان فى جنوب الهند وسمى المكان الذى نزل عليه بقمة آدم .

أما حواء فقيل إنها هبطت بأرض الحجاز ... وفرق الله بينهما زمنا دون أن يوفق أحدهما إلى الآخر .. فهام آدم وحيداً لا تجف له

دمعا . . . لا يستطيع أن يرفع رأسه إلى السماء خجلا وحياء من الله .... وكذلك كانت تفعل حواء لا ينقطع لها بكاء حزنا على ما ابتليت به من محنة الطرد من الجنة إلى حياتهما فى هذه الدنيا .

ومهد الله سبيل لقائهما على الجبل الذى سمى عرفات وذلك فى يوم عرفه فهدأت نفساهما بهذا اللقاء وتبدلت أحزانهما إلى هناء وسرور وسعادة . . ثم ازدلفا إلى المكان الذى سمى بالمزدلفه ومنه واصلا السير إلى المكان المسمى منى ... وقيل أن سبب تسميته يرجع إلى أن وحى الله جبريل نزل عليهما فى هذا المكان وقال لآدم تمن شيئا من الله فقال آدم .. اتمنى من الله المغفرة لى ولحواء فتقبل الله منه . . وأطلق على هذا للمكان اسم منى !!!

الحياة فى الأرض

ولم يترك الله آدم وحواء يعيشان وشأنهما فى الأرض . . بل بعث إليهما بملائكته يعلمونهما كيف يعيشان فى حياتهما الجديدة — ويزرعان الحب ويستخرجان الطيبات من الرزق ويطهيان الطعام ويحيكان الثياب .. الخ ...

وشملهما برحمته فبعث الملائكة لتبنى لهما بيتا جميلا قيل أنه اقيم فى المكان الذى بنى عليه بيت الله الحرام بمكه المكرمة !!

وتم بين آدم وحواء أول متاع لزوجين على وجه الأرض . .
وبدأت حواء تشعر بالجنين يتحرك بين أحشائها وبآلام الحمل وانتفاخ البطن .. فلما جاءها المخاض وضعت توأمين ذكرا وأنثى وتوالى الحمل والوضع وفى كل مرة تلد توأمين حتى كثر عددهم وانتشروا فى الأرض .

ثم اوحى الله إليهما بطريقة الزواج بين بنيهم ... وبهذا الزواج بدأت أول حضارة كانت هى الواسطة لكثرة النسل البشرى وسبيلا إلى الاجتماع والتآلف واتصال الحياة وارتباط الشعوب بعضها ببعض باواصر المودة والاخاء . . كما أدى ذلك إلى إنشاء القبيلة التى كانت أول صورة للنظام الاجتماعى الدائم وباتحاد هذه القبائل نشأت فكرة العشائر وبالتطور التدريجى خرج منها نظام الدولة الذى نعيش فيه الآن .

زواج الأولاد

وكان آدم يزوج الولد الأول من أنثى البطن التى تليه وأنثى البطن الأول من زكر البطن الثانى ولكن أحد الأولاد واسمه قابيل آراد أن يتزوج بتوأمته و تمسك بها ورفض أن يتزوج من توأمة أخيه هابيل لأنها أقل جمالا وحسنا . . وإزاء هذه الأصرار والعناد اقترح آدم على ولديه قابيل وهابيل أن يقدم كل منهما قربانا لله ...

ولما كان هابيل من الرعاة وصاحب قطيع كبير من الغنم فقد اختار أحسن كبائشة وقدمها لله - أما قابيل وكان مزراعا فقد اختار حزمه كبيرة من أجود مزروعاته وقدمها إلى الله - فتقبل الله قربان هابيل وذلك بأن نزلت نار من السماء فالتهمته وتركت قربان قابيل فغضب وتحسر وحقد على أخيه وصمم على قتله ليتخلص من مزاحمته .. وحتى لا يفوز بزواجه من توأمته الجميلة !!

وقال تعالى (واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل الله من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لاقتلنك — قال إنما يتقبل الله من المتقين لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى لأقتلك اليك إنى أخاف الله رب العالمين)

وسرعان ما خضع قابيل لوسوسة الشيطان فأخذ حجراً كبيراً وأهوى به على رأس أخيه هابيل فارداه فى الحال قال تعالى (فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فاصبح من الخاسرين)

ولما رأى قابيل أخاه على هذه الصورة المحزنة .. جثة هامدة غارقة فى بحر من دمائها الذكية .. اعتراه الألم والندم وشعر بالخوف ووقف أمام جثة أخيه حائراً لايدرى كيف يواريها قال تعالى (فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه - قال

ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فاوارى سوأة أخى فاصبح من النادمين)

ولما علم آدم وحواء بمقتل ابنهما هابيل حزنا عليه حزناً شديداً لأنه كان من خيرة ابنائهما حلو الشمائل جميل الطباع باراً بوالديه متفانيا فى طاعة الله مخلصا فى عبادته محبا للخير زاهدا فى متاع الدنيا ... وقد قيل أن آدم رثاه شعراً قال :

تغيرت البلاد ومن عليها   فوجه الأرض مغبر قبيح
تغير كل ذى لون وطعم   وقل بشاشة الوجه المليح

وانجب بنو آدم رجالا كثيرين ونساء وجعلهم الله خلائف فى الحياة ـ يخلف البعض منهم البعض إلى يوم القيامة . . وأرسل اليهم ملائكته مبلغة صحفه ومبينة حلاله وحرامه وأحكامه وتفصيل كل شىء فى المبدأ والميعاد إلى يوم الحساب واتاهم من كل ماسألوه (وأن تعدوا نعمة الله لاتحصوها) .

ولما كثروا وانتشروا فى الأرض يعمرونها ويمشون فى منا كبها أختار الله آدم نبيا إلى ذريته ليهديهم إلى الصراط المستقيم ويعلمهم حقائق الدين والعبادات وسنن الصلاة والصوم وطاعة الله حتى وافاه الأجل المحتوم وكل نفس ذائقة الموت .

ولما حضرته الوفاة استدعى آدم أبيه شيث الذى رزق به عقب مقتل هابيل وعهد إليه بالخلافة عنه فى رعاية شئون أسرته وعلمه أسرار العبادات فى ساعات الليل والنهار وانبأه بوقوع الطوفان .

وقد تولى جبريل ومن معه من الملائكة تغسيل آدم وتكفينه وحفروا له ولحدوه وأهالوا عليه التراب وقالوا لأولاده هذه سنتكم فى موتاكم .

وقد قيل أيضاً أن آدم دفن بجبل أبى قبيس بمكة المكرمة ودفنت معه حواء وأن نوحا عليه السلام حمل جسديهما معه فى سفينة الطوفان ودفنهما فى مكان ببيت المقدس .

فجر الحضارة

عاش بنو آدم فى أول نشأتهم دهراً طويلا — فى حياة طبيعية فطرية يمتازون فيها عن سائر الحيوان بنور العقل وقوة الإدراك — وبهما خرجوا من ظلمة الجهل والهمج إلى المعرفة ونور العلم والإيمان ثم أخذوا يتدرجون فى سلم الرقى المتواصل حتى ظهرت الحضارة شيئاً فشيئا فارتقت معهم وسائل الحياة ومقوماتها .

وكانت قبائلهم تعيش على الزراعة والقنص والصيد فى بداية الحياة فنشأ منهم الصيادون والقناصون والرعاة — وكان لهؤلاء الأجداد مهارة فائقة فى استخراج خيرات الله الكثيرة سواء من البر أو البحر . . وكان قتالهم فى الغابة ضد الوحوش المفترسة من أجل القوت سبيلا إلى فهمهم لفنون الحرب وأساليب الغزو والدفاع مما أدى بهم إلى اختراع السهام والرماح القاتله من العظم والعاج والصخر وقد استطاع بها الإنسان — وقت ذلك — أن يفرض سيطرته وسيادته على الأرض — ليحيا حياة آمنة مستقرة .

واقتضتهم الحياة تربية الحيوان واستئناسه واستخدامه أداة للنقل والانتفاع بالماشية ليظفروا منها بمورد عظيم من موارد الطعام وهى اللحم واللبن ثم تنبهوا بعد ذلك إلى تنويع الحاصلات الزراعية

وإلى الاستيطان واقتسام الأرض بينهم فكان ذلك بداية عصر جديد استيقظت فيه أنوار المعرفة العقلية من رقدتها وتسلطت أضواؤها على الحياة وبذلك أصبحت حياتهم على الأرض أكثر اطمئنانا .

وقد كانوا لا يعرفون الحيطة للايام الجدباء وكانوا فى سبيل ذلك يتعرضون للجوع الشديد خلال أيام القحط والجدب — فاهتدوا على مر الأيام وبالتجربة إلى فكرة تخزين القوت والحبوب ومواد الطعام للمستقبل ولعلهم تعلموا من النمل طرق وقايته من الرطوبة والأمطار والحشرات واللصوص .

ثم ظهرت حاجتهم إلى الملبوسات لحماية أجسادهم من عوامل الطبيعة المتقلبة فهداهم التفكير إلى اقتباس ألوان من الطبيعة ونسجوا على مناولهم من خيوط الشعر والقطن وألياف النبات الثياب الجميلة ذات الألوان البهيجة والأغطية المدفئة الواقية .

وجاء اكتشافهم للمعادن بفعل المصادفة حين أذابت النار التى كانوا يوقدونها للاستدفاء نحاسا ورصاصا كان لاصقا بالأحجار التى أحاطوا بها النار .

ومن الجائز أن تكون هذه الحادثة العابرة هى التى أدت بالإنسان الأول إلى أن يجعل من هذه المعادن عنصراً يتخذ منه آلاته وأسلحته

وصنع منه القلائد والأساور والخلاخيل والخواتم والأقراط زينة للنساء ليظهرن بها ثراء أزواجهن .

ويفضل ما كان لديهم من استعداد خاص وقدرة على إنتاج أشياء نافعة لمستلزمات الحياة لقربهم من مواردها المطلوبة — كانوا يقدمون فائض الإنتاج لجيرانهم فى مقابل حاجتهم من منتجاتهم ثم أخذ هذا النظام يتطور رويدا رويدا حتى أدى إلى فكرة إنشاء الأسواق والمتاجر .

اختراع الكتابة

ولعل أكبر مرحلة قطعها الإنسان فى انتقاله إلى الحضاره هى اختراع الكتابة التى بدأت فكرتها بمحاولة رسم صور الأشياء بطريقة معبرة تمثل كل صورة منها فكرة مأخوذة من واقع الحياة .

ولعل الرغبة أيضاً فى سرعة كتابتها هى التى دفعت الإنسان إلى الاستعاضة عن رسم هذه الصور المعبرة — بابتكار مجموعة من الرموز يدل كل منها على لفظ . . ثم تطورت هذه الرموز هى الأخرى حتى أصبحت حروفاً ثم عرفت الحروف الهجائية ولغة الكتابة واخترع الورق والحبر وألفت الكتب وشيدت المكتبات والمدارس ونشأت المعارف والآداب والعلم .

هجرة الانسان

والمتتبع لقصة الحضارة فى أقدم عصور الإنسان يرى أنه عاش أولا فى المنطقة التى تشمل بلاد آسيا الصغرى والمناطق المتاخمة لها ثم انتشر منها إلى بلاد حوض البحر الأبيض ثم إلى داخل القارات .

وإذا تخيلنا كيف هاجر الجد القديم إلى أوروبا لاستيطانها وكيف اتجه نحو الشرق حتى اجتاز الخليج الفارسى ثم توغل إلى الهند والصين لعرفنا الحقيقة وهى أن امتلاك الحيوانات والماشية التى تعيش على العشب قد خلق طبقة من الناس اضطروا بحكم ظروفهم ليعيشوا فى حياة غير مستقرة بحثا عن المراعى فى أى مكان . . وهكذا أصبحوا يحيون حياة تجوال يقودون قطعانهم ويرعونها فى المكان الذى به ماء وأرض معشبة تمدهم بالقوت .

ومن المحتمل أن جماعات منهم ممن كانوا يسكنون بلاد النيل ومن تأصلت فى نفوسهم الرغبة فى التجول أكثر من غيرهم — قد عبروا إلى شمال أفريقيا ثم توغل فريق منهم إلى جبل طارق ومنه دخلوا أوروبا وعاشوا فيها حول وادى الدانوب وفى سيول المجر الخصبة .

وهكذا نرى أن حياة طبقة من البدو هى التى عرفت أوروبا

واستقرت فيها ثم اتجهوا تدريجا على مر الزمن حتى وصلوا إلى بحر البلطيق والبحر الشمالى فالجزر البريطانية . . ولكنهم مع ذلك كانت تنقصهم فى حياتهم مقومات نافعة وهى الكتابة وصناعة المعادن والسفن وأشياء ضرورية أخرى لازمة للانسان كى يعيش فى حياة أفضل .

ومن المؤكد أن هذه الأشياء لم تكن معروفة فى أوربا قبل مضى ٣ آلاف سنة على بدء اختراعها واستعمالها فى بلاد الجانب الاخر من البحر الأبيض وهى مصر وبابل وبلاد الشرق الأدنى التى كانت تسمى بلاد آسيا الصغرى .

وما كان أحد يظن أن مدينة بابل القديمة ذات البطاح الموحشة والحر اللافح والممتدة على نهرى الفرات ودجلة ـ كانت أول موطن حضارة غنية قوية . . وكانت صاحبة أكبر فضل فى تقدم علوم الطب وإنشاء علم اللغة وتعلمت عنها البشرية مبادىء الحساب والفلسفة والفلك واستمدت منها الأساطير القديمة التى أورثها العالم ونقلت إلى المصريين وإلى العرب خلاصة معارفها العلمية .

وبهذا الانتقال أخذ الإنسان شيئاً فشيئا يعمر الأرض وينشر حضارته فيها بعد أن كان قانعا فى بداية حياته بثمار الأرض طعاما

وبجلود الحيوان وفرائه لباسا وغطاء وبالكهوف فى سفوح الجبال مأوى .

اكتشاف النيل

يرجع السر فى هجرة الأجداد واكتشافهم وادى النيل واتخاذه مقاما جديداً لهم ولعائلاتهم واستقرارهم فيه على امتداد شاطئيه إلى أنه كان كثير الخيرات تحميه الصحراء الجافة من الجانبين ولم تكن الثلوج وموجات البرد الشديد التى فى شمال البحر الموجودة الأبيض تصل إليه . . . وسرعان ما تحولوا من جامعين للغذاء إلى منتجين لأن النيل كان ملجأ لأسراب الطير وقطعان الحيوان الظامئة والأسماك الطرية !!

مولد الفن

وبالرغم من الظلام والوحشة اللذين كانا يكتنفان الحياة اليومية فإن هؤلاء الأجداد قد توصلوا إلى شعاع الفن العظيم . . فعندما كان الواحد منهم يستلقى ليلا لينام ويستسلم للفكر يرى بعين خياله صوراً لأحداث مضت أمامه . . وبذلك انطبعت فى ذهنه فكرة تلك الصور تدريجا حتى استطاع فى النهاية أن يقوم بتقليد ما انطبع فى ذهنه من تلك الصور والأشكال وهكذا خلق الفن عند الإنسان

ودخلت نفسه إلى عالم جديد جميل مملوء بنور الموهبة واستطاع أن ينحت تماثيل جميلة وأن يصور أشكالا بديعة مستوحاة من تلك الصور التي وعتها مخيلته .

خلود الروح

واعتقد الإنسان باستمرار الحياة بعد الوفاة . . لما كان يراه في الأحلام من أشخاص الموتى تخاطبه أو تمشي معه الأماكن التي كانت تعيش فيها . . وكانت هذه الأحلام مدعاة إلى إيمانه بأن الروح تعيش مستقلة عن الجسد وتبقى حياته بعد الوفاة فإذا ظل جسدها سليما استطاعت العودة إليه . . عندئذ شرع يفكر في وسائل يحفظ بها الجسد من الفناء فهداه فكره إلى إخراج الأحشاء منه لسرعة فسادها وغمس الجثة عدة أيام في الماء والملح ثم لفها بلفائف واقية . . ثم عاد ورأى أن عملية تحنيط الجسد وتحويله إلى مومياء مملحة معطرة باللفائف العديدة قد أخفت الوجه فقاده تفكيره وسذاجته إلى أن يرسم على تلك اللفائف وجه الميت حتى لا تضل الروح مسكنها الأصلي .

ولكن هذا الرسم لم يكن من الاتقان بحيث يقنع الرسام بأنه طبق الأصل فقاده فكره مرة أخرى إلى أن ينحت تمثالا من الحجر على هيئة الميت ليوضع معه في قبره حتى إذا ما جاءت الروح ورأت تمثالها اهتدت به وعرفت جسدها الأصلي .

وأدت عنايته بالجسد وباقامة تمثال له إلى العناية بالمكان الذى يضعه فيه فصنع لذلك قبرا من الحجر وأقامه تحت سرادب يمكن الزائرين من زيارته وتقديم القرابين والطعام والشراب إليه .

ولم تكن عامة الشعب تعرف التحنيط لأنه كان مقصورا على الملوك والأشراف ولما كان للملوك فى حياتهم يعتبرون سلالة الآلهة انتهى الأمر بالجد القديم إلى الاعتقاد بأن تماثيلهم لها قداسة واعتبار وأنها خليقة بالعبادة ـ ولذلك ابتكروا الطقوس الجنائزية التى أصبحت مظهرا من الاحتفالات الدينية لتمجيد ذكرى وشرف الميت كما كان يحيا فى الأرض . . . ثم أضافوا إلى هذه الطقوس حركات إيقاعية موسيقية مثل رفع الأيدى والسجود والركوع والتعظيم وغيره !!

نور الايمان

من واجبنا أن ننظر إلى ما كان عليه الأجـداد من سذاجة وخرافات وأسرار خفية وثنية بعين العطف التى يجب أن ننظر بها إلى سلوكهم فى الحياة لأن طبيعة الحياة دفعتهم إلى السعى وراء الرزق وطلب الماء والمرعى وجعلتهم يخاطرون بحياتهم لاجتياز مجاهل البلاد فى عالم غريب عنهم لم يسبق أن عرفه إنسان من قبل . . وذلك يوحى إلينا بما كان يسود حياتهم بعد وفاة آدم من اضطراب وهمجية وعنف وانحطاط فكرى وروحى.

وكان أعظم ما تحتاجه الحياة وقتئذ هو ظهور عقيدة دينية تقاوم المحن وتخفف من وقع الحرمان الروحى وتزيل ماتعانيه البشرية من فوضى فى معتقداتها وتضفى عليهم معنى من المبادىء السامية التى تعلى من قدرهم . . . فقد كانت تجيش فى صدورهم آمال غامضة فى دخول الجنة ولكنهم كانوا يخافون النار خوفاً واضحا صريحاً لا غموض فيه .

وكان لكل منهم تصور خاص نحو الآله الذى يريد أن يدركه وينزله من نفسه المقام الذى هداه إليه عقله أو قلبه ـ فطائفة كانت تعبد الله مخلصة له وأخرى تشك فى وجوده . . . . وطائفة تؤمن

بالنشأة الأولى وأخرى تنكر البعث والنشور وطائفة تؤمن بالجزاء والجنة ونعيمها والنار وجحيمها .

ومن هذا يتبين أنهم كانوا على الفطرة يعبدون الله وحده قبل أن يضل بعضهم نتيجة لبدع أحدثوها بتعدد الآلهة وتنويعها ـ لأن إيمانهم بالله الذى دعاهم آدم إلى عبادته وإلى دينه جعلهم يفكرون فى قوته وسلطانه ويستدلون عليه بآثاره وبديع مصنوعاته عن طريق تحكيم العقل . . . فآمنوا بالله وحده واعترفوا بوجودة معهم أينما كانوا لا وسيط ولا يمكن أن ينالوه بحس .

وقد قام فيهم الهداة جيلا بعد جيل يدعونهم فى لين ورأفة إلى الدين الواجب عليهم اعتقاده ويحضونهم على العمل بتعاليمه ليفوزوا بالنعيم ويردعونهم بأهوال الجحيم وضروب العذاب التى يلقاها العاصون لأنه لا يستطيع أحد أن ينجو أو نفر ، من هذه النار إلى الأبد إلا بالعمل الصالح والإيمان . حتى بات الكثيرون منهم يتخيلون فى أحلامهم صوراً لهذه النار ـ فيصفونها للناس ويصورون ما فيها من عذاب السعير فمثلا كان بعضهم يذكر أنه رأى فى منامه جهنم وشاهد فى وسطها الشيطان مشدوداً إلى مشواة الحديد ملتهبة حمراء من قسوة النار ـ لا ينقطع له صراخ من فرط الألم ويداه طليقتان يمدهما ليقبض

على العصاة المذنبين — وأنفاسه النارية تجذبهم إلى حلقه الملتهب فيحطمهم بأسنانه القوية كما يحطم الإنسان العنب .

وهذا يدل على أن الشيطان لم يكن فى خيال العامة من أهل هذه العصور — رمزاً وخيالا بل كان جسما حقيقيا يغشى كل مكان فى الحياة ويغوى الناس بضروب من المغريات ويخلق لهم كل ألوان الشر والفساد .

وكانوا يعتقدون أن الشيطان شديد الإعجاب بالنساء يتخذ من بسماتهن ومفاتنهن أدوات يغوى بها ضحاياه وأنه لولا رحمة الله لما نجا أحد من شره .

أما عقيدة عذاب الجحيم فكانت من بين العقائد التى لا يستسيغها البعض . . فمثلا قال بعضهم أن الله لا يمكن أن تصل قوته إلى الحد الذى يجعله يعاقب على الذنب المحدد بالألم غير المحدد . . . ولكن الصالحين منهم كانوا يجيبون عن هذا الاعتراض بقولهم — إن الذنب الذى يرتكبه الإنسان يعد معصية لأوامر الله وخروجا على طاعته وأنه لهذا يعد آثما ويحق عليه من ثم العقاب كذلك العمل الطيب إذا فعله الإنسان فإنه ينال عليه الرضا والجزاء الحسن من الله .

الكون فى نظر الأجداد

وكان الأجداد القدماء يظنون الكون على هذا الشكل رقم (١) واهمين أن الأرض بجميع ما فيها من القارات والمحيطات مركزها هذا الكون .

وأن السماء فوقها كسقف مرفوع استوحاه بعضهم كشكل رقم (٢) وأنه منحن بعض الانحناء وأنه مزين بمصابيح معلقة بحبال القدرة كشكل رقم (٣) وأن هذه المصابيح تظهر لنا لتضيء ليلا وتختفى عنا فى طلوع النهار .

ولما تعذر فهمهم للكيفية التى رفعت بها السماء فى الفضاء تخيلوا لها أربعة عمد تستند عليها كاستناد سقف بيوتهم ولذلك كانوا عندما ترعد السماء أو تبرق يلجأون إلى تلاوة تعاويذ لتهديد الجن وتسخيرها فى المحافظة على هذه العمد خشية سقوطها أو تداعيها !!

وتخيلوا هذه العمد قائمة خلف قمم من الجبال العالية التى لا ترى بالعين وأن الأنهار تنبع من قمم هذه الجبال وتجرى بين شواطئها وأن الشمس موضوعة فى سفينة كقرص من النار تجذبها المياه الجارية بحركة معتدلة فى طول أسوار الدنيا ثم تغيب فى السماء وتختفى إلى الصباح فى مضايق تحجب أشعتها عنهم وحينئذ يرخى الليل سدوله

ويغشاهم بظلامه وأنه متى سلمت الشمس من الموانع التى تعوق سريانها ظهرت باشعتها فى الصباح فتضىء العالم بنورها .

وبهذا التفكير الهمجى بدأوا يعبدون الشمس اعتقاداً بأنها آله يشرف من عليائه على مملكته فى الأرض يرعاها بالخصوبة ويفيض عليها الضوء والحرارة والحياة وبهذه البداية الوثنية أصبحت الشمس إلها دوليا معبودا — ثم عبدوا القمر والنجوم اعتقاداً بأن الملائكة تحركها بأرواح آلهة كامنة فى جوفها حتى السماء هى الأخرى كانت إلها عظيما تقام له العبادة فى تبتل لأنها هى التى تنزل الغيث أو تحبسه .

ثم بدأوا يبخلون التمائم ويمارسون ضربا من السحر ويعبدون أرواح أسلافهم ويقدمون لها التضحية والقرابين لاسترضائها اعتقاداً بأن ذلك يكسبهم قوة ويمنحهم بركة ويحميهم من فزع رؤيتهم فى الأحلام ولعنتهم على الأحياء فيجلبون لهم الشقاء — وكانوا يتبركون بموتاهم على نحو ما يتبرك المسيحيون بالقديسين — وتدرجوا من هذا إلى تمجيد القوى السماوية والنباتية والجنسية وإلى خشوعهم للحيوان وعبادته اتقاء خطره وشره ثم نشأ عن هذه العبادة يومات وطقوس عجيبة وهى عبارة عن مزيج من الموسيقى والطبول وتحسين الصوت فى الترتيل لبعث البهجة والسرور حول الآلهة . .

وبهذا ظلت الألوف من السذج أوفياء مخلصين فى عبادتهم لآلهتهم ولا يشكون قط فى أن نور الحق سوف يعود إليهم يوما ليخلصهم مما يقاسونه على ظهر الأرض من الالام والأحزان .

نور الايمان

.. وقام شيث بن آدم عليهما السلام يعلن دين الله ويمجد وحدانيته تعالى بأقوى الألفاظ وأشدها حماساً حتى أفلح فى تحويل الجميع من أهله إلى مواطنين صالحين ، والصدور الفارغة إلى قلوب عامرة بالإيمان .. وجعل العقول تفكر فى أن الله هو أصل الحياة ومنشئها ومصدر كل خير فى السماء والأرض ويدلل على قدرة الله بمثل قوله تعالى (فلينظر الإنسان إلى طعامه إنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا ونخلا وحدائق غلبا) .

ويحثهم على الإيمان بالمعرفة وبأن الله هو الذى رفع السماوات بغير عمد يرونها وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات رزقاً لهم ... ويشرح صفاته تعالى بأنه جل شأنه يحيط علماً بكل شىء ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور وما توسوس به النفس وأنه أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد .

ارتاح الناس لهذه الدعوة الكريمة والتفوا حوله يستمعون إليه ويقتفون هدايته لأنهم وجدوا فى هذا الدين أحسن واسطة لتهذيب الأخلاق وتقوية حضاراتهم لأن الواجبات التى فرضها والطريقة التى يسنها للحياة البشرية ويعينها للنـــاس من تعاليمه الروحية وآدابه الاجتماعية المؤثرة فى النفوس — وبصائره المنورة للعقول — نتج عنها أقوى الأنظمة وأمتن الأخلاق فى إصلاح الحياة وكان من آثار ذلك أن امتلأت الأرض بالخير والبركة وشمل الناس سعادة كاملة وعاشوا فى بحبوحة الهناء والرفاهية — لأن مبادىء هذا الدين المأخوذة عن الوحى الإلهى كانت تأمرهم بفعل الخير واجتناب الشر وتحرم القتل والسرقة والزنا والكذب وتمنع الأذى وأخذ الأموال بالباطل وتحض على الأخلاق الفاضلة والأعمال الكريمة وعلى معاملة الناس والحيوان بالحسنى والرأفة وتوصى باكرام النساء والضعفاء والأطفال وباحترام الوالدين وبتوقير الكبير .

وهكذا نرى أن رسالة الدين قد نجحت زمناً طويلا فى تحريك الهمم نحو الإنتاج فى العمل والتحصيل فى الحياة وفى تهذيب النفوس وسيادة الخلق الطيب بين الناس وشد عزائمهم بالأمل نحو المستقبل وإنارة القلوب بالهداية والتعاون وتطهير العقول من نوازع الشر وتحصينها ضد الفتن وتحريك الغرائز الدنيا .

وبعد وفاة شيث عليه السلام ـ قام من بعده ابنه أنوش فى حمل عبء الرسالة فسار على نهج والده واتبع طريقته فى الحياه . . ثم خلفه إبنه فينين وكان من الزاهدين الصالحين المخلصين فى طاعة الله وقد تولى هداية قومه نحو نصف قرن وقبل وفاته أوصى لابنه مهلابيل بالحكم من بعده لما عهده فيه من حب للخير وإقامة للعدل ونفس تواقة إلى كل مجد فى الحياة .

وقد كان مهلابيل ملكا عظيما مهاباً محبوباً من قومه مطاعا مسموع الكلمة وفى خلال فترة حكمه التى قاربت المائة عام اتسعت مملكته وخضعت كل البلاد المعمورة لسلطانه ونفوذه فشكل منها دولة متحدة كان لها تاج عظيم .

وقيل إنه فى عهده تم بناء القصور الضخمة والقلاع الكبيرة والحصون ـ كما ازدهرت الحياة وانتشرت الحضارة بين الناس وتقدمت العلوم والفنون والصناعات . . وأنشئت المدن ومن بينها مدينة بين النهرين المعروفة باسم بابل .

وفى خلال هذه الفترة ـ أى منذ وفاة شيث حتى قيام مهلابيل ـ كان فريق من الناس ممن شغلتهم الحياة وزينتها وملكت عليهم زمام أنفسهم وأخذت بمجامع قلوبهم قد ضلوا السبيل واستسلموا

للشيطان وبعدوا عن طريق الرشد إلى الكفر والشرك حتى إنهم سخروا من آيات الله وأعرضوا عنه وعبدوا معه مخلوقات لا تضر ولا تنفع - وعادوا إلى الاعتقاد فى الخرافات والأساطير فعبدوا الأوثان والأشجار والأرواح والأنهار والكواكب وزعيم القبيلة لاعتقادهم أن روح الجد قد انتقلت إليه وتجسدت فيه .

ادريس النبى

وخلف مهلاييل ابنه أزوريس وهو نبي الله إدريس عليه السلام الذى ورد ذكره فى الكتاب الكريم بقوله تعالى (واذكر فى الكتاب إدريس أنه كان صديقاً نبياً ورفعناه مكاناً علياً) .

وكان فى شبابه مثلا كريما للخير والأمانة والخلق الروحى القويم - فلم يرضه هذا الدين الذى كان عليه قومه من عبادة الأصنام والأوثان فجاهر بالابتعاد عنها ونادى بتحطيمها لأنه وجد فى قيامها ضغطاً على العقول والأفكار باسم الدين .

وقام بثورة عنيفة على الفساد الذى استشرى وتدهور إليه دين أسرته وقومه . . وأعلن فى شجاعة أنه ليس للناس إلا رب واحد صمد خالق أزلى موجود وإن أصنامهم وجميع مافى عبادتها من طقوس

كلها خرافات وثنية منحطة لا ظل لها من الحق أو الدين .

وقد ولد إدريس فى مدينة بين النهرين « بابل » ونشأ بها وكان أول من تعلم الكتابة والقراءة . . . ونظراً لكثرة تفقهه فى علوم الدين والفلك والطب والحساب سمى إدريس بدلا من أزوريس . وقد اختاره الله من بين قومه لحمل الرسالة وآتاه النبوة من بعد جد أبيه شيث عليه السلام .

واصل إدريس رسالته - وبعث إلى قومه رسلا عنه إلى مختلف البلاد - يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد والعودة إلى اتباع أوامر الله وشريعته الغراء التى أنزلها من قبل على جديه — آدم وشيث — لتخليص النفوس من عذاب الآخرة . وأمرهم بإقامة الصلاة وبالصيام وإخراج الزكاة للضعفاء والمحتاجين وحثهم على الجهاد ضد أعداء الدين - فأطاعته قلة ضئيلة وسفهه الكثيرون وقالوا عنه « إنه مجنون »

ولم يتركوه بل حاربوه فى دينه وناصبوه العداء فى كل مكان ولم يتركوه حتى أخرج من ديارهم ورحل عنهم وهو ومن اتبعه من المؤمنين .

وهاجر إدريس ومن معه إلى بلاد النيل . . وكان طوال رحلته الشاقه المضنية يسبح بفكره فى حياة الإنسان الذى منحه الله قدرة

وعقلا استطاع بهما أن يخضع ما فى الأرض لسلطانهما يعلى وهادها ويخفض تلالها ويبنى قلاعها ويستخرج كنوزها ولكنه مع ذلك عاجز عن أن يصرع شيطانه ويكبح جماح نفسه بالتغلب على شهواته وأهوائه . . . ويتعجب فى نفسه من هذا الإنسان الغريب الأطوار الذى يرى رحمة ربه قد وسعت كل شىء ولا يؤمن به أو يعبده — بل يعبد من دونه مخلوقات من الشجر والصخر وآلهة تجسه من البشر والحيوانات . . وأنه لو بحث بفكره وتأمل قليلا فى نظام هذا الوجود الذى يعيش فيه لأدرك أن الله تعالى لم يكن يخلق هذا الوجود جميلا بما فيه من النعم الجزيلة إلا ليتمتع به بنو الإنسان . . وهل كان سبحانه يضع للزهر أريجه وفى النجوم ضياءها وفى الأطيار عذب تغريدها . . لو لم يشأ سبحانه أن ينعم بها الإنسان ليتوجه إليه بالحمد ويشكره عليها بالعبادة !!!

الحياة فى بلاد النيل

ووصل ادريس وقومه إلى بلاد النيل وعاشوا أولا فى أعالى صعيد مصر . . ثم واصل دعوته فى الناس إلى اطاعة الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأنشأ لهم المدارس وجمع فيها طالبى العلم من كل مدينة وعلم الكهنة الحكمة والطب وأسرار الفلك وعدد السنين والحساب .

ووعد قومه بمن يأتى بعده من الأنبياء وعرفهم صفات ورسالة كل نبى وأمرهم بإقامة المعابد لتمجيد الله وعبادته فيها — وسن لهم طريقة العبادة وأمر بقرابين ثلاثة إلى الله وهى — البخور والذبائح وباكورة من نبات كل زرع — ونظم أعيادهم وجعلها متفقة مع احتفالاتهم الدينية .

وأنذرهم بوقوع طوفان عظيم — لأنه سيأتى من بعدهم أقوام يكفرون بالله ويجحدون نعمه عليهم ويستكبرون فيهلكهم الله بنزول آفة سماوية تغرقهم أجمعين وتتطهر الأرض من فسادهم ولن ينجو منه إلا من هداه الله وآمن برب العالمين .

وحرصاً منه على تخليد حضارة قومه وتقدمهم فى العلوم والصناعات — لمن بعدهم خيفة أن تذهب آثارهم ومعالمها بسبب هذا الطوفان — أمرهم بنقش صناعاتهم وآلاتهم وكتابة علومهم ومعارفهم — وكان غرضه من ذلك أيضاً هو تسجيل المعرفة ونقل التقدم العلمى والفكرى الذي كانت عليه أمته إلى الأجيال التى تليها ليقتفوا آثارهم وليستفيدوا من نهضتهم ومن قوانينهم وفضائل أخلاقهم ما يسعد أممهم !!

وقد أخذت طلائع هذه المدنية بعلومها وصناعاتها وفلسفتها تتضح للناس وتستبين سبلها حتى بلغت أشدها وانتشرت فى العالم المعمور

ودخلت بلاد بابل وما حولها بالقهر والرضا فهال حكامها ما رأوه من تسلط مبادىء ادريس على بلادهم وتسرب ارائه ومذهبه الدينى إليهم - وفلسفته السامية .

وقد كان ادريس يبعث برسله إلى مختلف البلاد لنشر دينه ويؤيدهم برسائل منه يقول فيها للناس (لا يغرنكم ما أنتم فيه من زخرف الحياة وزينتها ولا تخدعنكم لذاتها وشهواتها ولا تبهر أبصاركم بلالائها - ولا تتوهموا أن من أوتى علما وصناعة وسلاحا ومالا هو قدوة حسنة فى عقائده ومذهبه وأسوة صالحة فى أخلاقه وآدابه . . اعرفوا أنفسكم وقدروا ما ورثتم من فضائل الإنسانية والمناقب الأخلاقية ولا تنسوا الله رب العالمين !

مواعظ واداب وحكم

وكانت له عليه السلام مواعظ وآداب وحكم مأثورة منها قوله : -

* املأوا أفواهكم بحمد الله .
* الصبر مع الإيمان يورث الظفر .
* لن يستطيع الإنسان أن يشكر ربه على نعمه بمثل أنعامه على خلقه .
* حب الدنيا وحب الآخرة لا يجتمعان فى قلب واحد .

* إذا دعوتم الله سبحانه فأخلصوا النية وكذلك افعلوا فى الصيام وفى الصلاة .

* لا تحلفوا كاذبين ولا تهجموا على الله باليمين ولا تحلفوا الكافرين فتشاركوهم فى الأثم .

* تجنبوا المكاسب الدنيئة .

* أطعم الخبز لمن لا حق له .

* اترك وراءك ذكراً طيباً يبقى أبد الدهر .

* إن قدحا من الحب يعطيكه الله ـ لخير من خمسة آلاف تنالها بالعدوان .

* إن الفقر مع الإيمان بالله لخير من الغنى فى المخازى .

* إن الرغيف والقلب مبتهج لخير من الغنى مع الشقاء .

وبعد حياة حافلة بالعظمة والرقى والنعيم الروحى والمعنوى والتقدم الدنيوى خلفه ابنه صابىء صاحب مذهب صابئة !

ومن هنا يتبين الأصل فى عقيدة القدماء المصريين وهى الوحدانية لذات الله المنزهة عن كل صفة من الصفات مهما سمت العقول والأفكار فى وصفها أو فى ابتكار الفاظ تقربها إلى الأذهان . .

وقد ورد فى أثارهم كثير من الجمل والعبارات المؤكدة لوحدانية الله وبأنهم كانوا يقدسونه بإجلال نعمه ويتقربون إليه بعمل الحسنات واجتناب السيئات منها قولهم (كل شيء خلقه الله العظيم بنفسه) .

« خالق الكائنات والأشياء الخالق لكل مخلوق الذى لم يخلق » .

« الموجد لكل ما يكون أما ما لم يكن فهو فى مكنون علمه ذو الأزلية الذى تمضى دهور لا تحصى وهو على حالة وجوده تمضى الدهور وهو باق دائما لا يمسك بالذراع ولا يقبض باليد لا تدركه الأبصار سميع لمن يتضرع إليه الواحد الذى لا شريك له المعبود المنزه عن الشكل الذى اسمه سر مكنون ! ـ وكل هذه الأقوال تنطق بإيمانهم بوحدانية الله المعبود ولكنهم تعدوا هذه الحدود فى زمن صابىء بن ادريس . . وجعلوا لأفعال الله وصفاته العديدة تماثيل تدل على أفعاله .

* * *

وما كاد صابىء يتولى زمام الحكم ويجلس على عرش الملك بعد أبيه حتى أعلن ثورته ضد الدين ومبادىء أبيه وأعلن للناس حبه لآلهتهم القديمة وإخلاصه فى عبادتها وشجع على إقامة طقوسها

الوثنية وأمر الكهنة بإخفاء أسرار ديانة والده وحذرهم من عاقبة الحديث فيها مع الناس وملأ بيوت العبادة بالأصنام والتماثيل . . وبهذا استطاع أن يعود الناس إلى سابق ما كانوا عليه من جهل وشر وظلام . . . والظاهر أنه استغل حب الناس للمظاهر الملموسة فتغالى أمامهم فى تعظيم هذه الآلهة وزاد فى قداستها واحترامها حتى خيل لهم أنها خليقة بالعبادة .

وسرعان ما انتشرت هذه المبادىء الدينية الحديثة « مذهب صابىء » واعتقده كثير من الناس فى مختلف البلاد . . واستغل الموقف من كان بيدهم الحكم والسيطرة على البلاد وهم ذوو أطماع تتضاءل أمامها الأغراض الدينية ـ فوجهوا الشعوب إلى مصير يقيدها بإرادتها ويخضعها لمشيئتها . . . وباسم هذا الدين الحديث أدخلوا على العقائد . . ما يوافق أهواءهم ويتفق وميولهم وبذلك انخدع الناس وانقادوا وراءهم واتخذوا من أسماء الله رموزاً واضحى لكل رمز صنم للعبادة وبهذه الوسيلة انتشر مذهب (الصابئة) وخيم الجهل على العقول ردحا من الزمن !!

ومات صابىء ودفن بمصر وقبل وفاته انقسم الناس إلى ثلاث طبقات :ـ

الأولى — كهنة : وتتولى رعاية شئون الدين وهداية الناس. وجعل مرتبة الكاهن فوق مرتبة الملك لمكانته الدينية التي تمكنه من أن يسأل الآلهة الرحمة والمغفرة والرضا على الناس والأخذ بيد الملك في تصريف شئون الحياة !!

الثانية — ملوك : وتتولى تنظيم شئون الحياة والسهر على حقوق الرعية وحماية مصالحهم .

الثالثة — الرعية : وهى عامة الناس وعليها الخضوع والطاعة العمياء لأوامر ملوكهم لأنها سلالة الآلهة وظلها في الحياة .

عصر الطوفان

. . . انتشر بنو آدم وملأوا أرجاء الأرض بالذرارى والحفدة وتوطنوا البلاد التى اختاروها مستقرا لهم . . وأقاموا فيها حضارة كبيرة ومدنية عظيمة وسالمهم الدهر — وصفت لهم الأيام والحياة وعاشوا فى رغد ونعيم .. ولكنهم بطروا النعمة وغرتهم الحياة الدنيا فأخذت أخلاقهم تميل إلى الفساد وطباعهم تأخذ طريقها نحو القسوة وعاثوا فى الأرض ظلما وتجبروا واستجابوا إلى دواعى الشيطان وتمادوا فى البغى وفشت فيهم الوثنية حتى تغلغلت فى نفوسهم فعادوا إلى الكفر بعد الإيمان وإلى عبادة أسلافهم من قوم صابىء فاتخذوا من الشمس والكواكب والنيران والأرواح آلهة أقاموا لها التماثيل الضخمة والمعابد الرهيبة وتغالوا فى تقديسها وتعظيمها والزلفى اليها .

ثم تعددت طوائفهم بعد أن زاغت قلوبهم عن العقيدة السليمة .. فانكروا وجود الله وأنكروا البعث واستبعدوا الحشر وكذبوا بالحساب والعقاب والأنبياء .

. . ومن بين هؤلاء القوم الضالين نشأ رسول الله نوح عليه السلام

وقد قال الله تعالى عنه « إن الله أصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين »

وعاش نوح بين قومه دهراً طويلا سليم الفطرة طاهر النفس متألم الوجدان مما كانوا يقولون ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر نافراً من تلك الأوثان التى ينحتونها بايديهم ثم يتخذونها أرباباً من دون الله . . وساءه أن يراهم عاكفين على عبادتها مع أنها من صنع أيديهم لا تملك ضـرا أو نفعاً ولا تغنى شيئاً !!

ولما بلغ نحو الـ ٤٠٠ عام من عمره أجتباه ربه وخصه بالنبوة والرسالة وبعثه إلى قومه يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد — فانبرى لهم يحذرهم من عاقبة ضلالهم وبماسيحل عليهم من الكوارث والتدمير عقاباً لهم على طغيانهم وخروجهم عن طاعة الله . . فحقدوا عليه وكرهوا وقوفه فى وجه سيئاتهم والتشهير بآلهتهم — وهددوه بالقتل والتعذيب .

قال تعالى (إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم قال ياقوم إنى لكم نذير مبين . . أن أعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى —

ان أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون » .

ولكنه لا يعبأ بتهديداتهم بل ويفاجئهم فى محافلهم ومجتمعاتهم ويندد بأصنامهم وبمعبوداتهم ويحثهم على الإيمان .

وكان كلما دعاهم إلى طاعة الله اعرضوا عنه وآذوه — وإذا علموا أنه سافر إلى بلد ما لنشر هدايته لاحقوه وطاردوه وأذاقوه الوان العذاب . . وكان يحاولهم أن يمسكوا به من يديه ورجليه ويشبعوه ضربا وركلا وجيما ولا يتركوه من أيديهم إلا وقد قضى عليه ظناً منهم أنه ينازع الموت . . وظل على هذا الحال نحو مائتى عام يدعوهم ليلاونهاراً فلم يزدهم دعاؤه إلافرارا وكلما أمعن فى دعوته اليهم (جعلوا اصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا) وسبوه وأهانوه وقالوا عنه ساحر مجنون ومدع مغرور !!

ولما تمادوا فى كفرهم وأصروا على التمسك بأوثانهم ونفورهم من النصائح والعظات . بسط نوح يديه واشتكى لربه عجزه وقلة حيلته فى هدايتهم وقال « رب لاتذرعلى الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » . . . فاستجاب الله دعاءه وأعقم نساءهم زمناً طويلا حتى وقع الطوفان !!

وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس

بما كانوا يفعلون وقال له تعالى (واصنع الفلك باعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون »

ثم بعث اليه بجبريل يعلمه صناعة الفلك — فابتهج نوح بمالقيه من وحى ربه وأعد الآلات والأخشاب وأخذ فى صنع سفينة كبيرة طولها ٦٠٠ ذراع وعرضها وارتفاعها ٥٠ ذراعاً ومؤلفة من ثلاث طبقات واشترك معه فى صناعتها أولاده والمؤمنون .

وكان كلما مر عليه نفر من قومه سخروا منه وقالوا ضاحكين « يا نوح أزهدت النبوة أم أحببت النجارة . . انظروا . . المجنون يبنى بيتاً ليسير به فى الماء !!

ولما جهز السفينة أوحى الله اليه — أنه قد دنا موعد هلاك قومك حتى جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين .

وبدأت طامة الطوفان وفاضت عيون الأرض وهطلت السماء حتى عم الماء جميع سطح الأرض — وأغرق رؤوس الجبال . . حمل نوح فى السفينه بالطابق الأول الوحوش وفى الطابق الثانى الدواب والأنعام وركب هو وأولاده سام وحام ويافث وأبناؤهم ومن آمن معهم فى الطابق الثالث ويقال إن عددهم كان ثمانين نصفهم من الرجال والنصف الآخر من النساء . . . وسارت بهم السفينة لعشر ليال

مضت من شهر رجب وهى تجرى بهم فى موج كالجبال — وتخلف عن الركب ابنه يام وكان فى معزل فناداه نوح قال « يابنى أركب معنا ولا تكن مع الكافرين . . قال سأوى إلى جبل يعصمنى من السماء قال « لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين » .

وظلت بهم السفينة فى الماء — مائة وخمسين يوماً حتى ابتلعت الأرض ماءها وأقلعت السماء وغيض الماء واستقرت بهم على جبل الجودى من أرض الموصل بين دجلة والفرات مدة شهر .

وقال الله لنوح ومن معه . . « اهبط منها بسلام وبركات عليك وعلى أمم من معك » فخرجوا منها يوم عاشراء من المحرم وصاموا هذا اليوم شكراً لله على نجاتهم وسلامتهم .

وسار نوح وقومه واتخذ ناحية من أرض الجزيرة يحدها نهر دجلة فى الشرق وتشرف على الصحراء فى الغرب والجنوب وهى التى سميت فيما بعد ببلاد أشور — أول مقر لهم وبنى فيها قرية سميت قرية الثمانين نسبة إلى عدد من آمن ونجا من الطوفان .

وفى هذه المنطقة ذات الوديان الخضراء والتربة الخصبة — عاش الاجداد أولا على الزراعة ورعاية قطعان الماشية والدواب . . وسرعان

ما تطورت حياتهم واستعادوا مجدهم القديم فأنشأوا حضارة مبكرة في فنون العمارة والصناعة والنجارة والمعادن وكانوا يصنعون آلاتهم ومعداتهم وأسلحتهم من البرونز — لأن الحديد كان نادراً لدرجة لم تجعل له أى شأن هام فى صناعاتهم .

* * *

وعاش نوح بعد الطوفان مع قومه وبنيه نحو ثلاثمائة عام بذل خلالها أقصى جهد مستطاع ليحقق لهم أسمى مراتب الحياة والطمأنينة ونجح فى تنظيم أمورهم على صورة لم تعرفها مدنية من قبل حتى أصبح عهده هذا يعد أعظم العهود فى تطور حياة الانسان . . والزمهم اتباع قواعد خاصة فى بعض العادات حتى أصبحت هذه العادات بعد وفاته قوانين هامة فى تنظيم شئون حياتهم وتوجب عليهم طاعتها .

ومات نوح عليه السلام بعد حياة حافلة بآيات المجد والعظمة وطاعة الله والإيمان السليم به وقد بلغ من العمر أكثر من ألف سنة .

ولما حضرته الوفاه وصى لابنه « سام » بالخلافة من بعده وقال له « يابنى أنى أوصيك باثنتين قولة لا اله إلا الله وسبحان الله »

وأنهاك عن اثنتين هما « الشرك بالله والكبر فإنه لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال حبة من الشرك والكبر »

وعند احتضاره سئل ممن حوله . . كيف وجدت الدنيا يا نوح قال « كبيت كبير له بابان دخلت من أحـدهما وخرجت من الآخر ! !

وقد روى أنه دفن بأرض مكة المـكرمة .

. . . . .

وقام سام من بعده بأعباء الحياة — وورث مقام أبيه — وكان متصفاً بالحلم مشهوراً بالحـكمة خبيرا ــ تواقا إلى المجد متطلعاً إلى الحضارة والرفعة لذلك كان محبوباً من سائر أهله وقومه وأخوته الذين اخلصلوا له وعملوا على طاعته وتنفيذ كلمته حتى أصبح كل مايقرره لهم من نظام بمثابة قانون واجب التنفيذ والاحترام .

ورأى سام أنه ــ لتدعيم رسالة والده التى استنهالهم فى الحياة ـ لا بد له من وضع سياسة ثابته الاركان لتسير عليها شئون الحياة — ودنيا الناس ـ وليعيش شعبه فى أسرة أبوية متدينة تؤمن بالله وتتصل قلوبهــا به — وتتمتع بكامل الحريات والحقوق والواجبـات بعيدة عن نزعات الأنفس يضبطها روح الإيمان ويجمعها نظام من الشرع . . ومالبث أن جمع مقاليد الأمور فى قبضته ونصب نفسه خليفة لله فى أرضه قائمـا بالعدل بين عباده يعمر الأرض ويصلحها

جاهدا فى الحق ساعياً للخير ليس قانونه ما يشتهى ويكره بل قانونه ما يحل ويحرم وما يليق بكرامة الإنسان فى دنيا يملكها ولا تملكه ويأسرها بدينه وخلقه . . ثم قام بتقسيم أرض المعمورة إلى عشرين ولاية واختار لكل منها نائباً عنه من أخوته أو ممن رأى ايمانه أعظم من الدنيا سرائها وضرائها — يتولى الاشراف على أحوالها ورعاية شئون سكانها — وكانت كل ولاية من هذه البلاد تعرف فى بادىء الأمر باسم حاكمها .

ولكن هذا النظام لم يدم طويلا لأنه بعد وفاة سام بن نوح دب الخلاف بين أخوته والشجار بين أهله وبينهم مما أوجب الفرقة بينهم وتمزيق شمل وحدتهم فانتشروا فى الأرض وامتلكوا معاقلها .

انتشار بنى نوح

سكن بنو سام بلاد آسيا الغربية والجنوبية من نهر الفرات إلى البحر الأبيض المتوسط بما فيها من بلاد فارس وأشور وبين النهرين « بابل » والجزيرة — ويقول المؤرخون عنهم أنهم أشرف الطبقات حيث ظهر من نسلهم ابراهيم الخليل أبو الأنبياء عليهم السلام .

وكان من أحفاد « سام » كنعان الذى ينسب اليه أنه أول من استوطن ديار الشام وفارس منشىء بلاد الفرس وطسم . . صاحب

بلاد اليمامة إلى البحرين ـ وعمليق . . مؤسس دولة العماليق وهم جبابرة الشام المعروفون ومنهم بعض فراعنة مصر .

* * *

وهاجر يافث بن نوح ـ وبنوه الخمسة وهم ماجوج ومادى وياوان ودودايم وتوبال .. إلى الساحل الشمالى المعروف الآن بالبحر الأسود وتفرق نسله غرباً فاستوطنوا بلاد الجنوب من أوروبا وامتدوا حتى وصلوا إلى جزر بريطانيا أما ماجوج فذهب بعائلته إلى بلاد التتار الواقعه على الساحل الشمالى من بحر قزوين أو طبرستان وامتدت شعوبه فى أواسط آسيا وخرج من نسلهم المغول .

وانتشرت عائلة « مادى » فى المنطقة الواقعة بشمال بلاد فارس وماحولها واحتل « ياوان » وبنوه البلاد المعروفة الآن باليونان وقد سميت بهذا الاسم فى عهد النبى دانيال .

وعاش « دودايم » مع أهله فى بلاد البانيـــا إلى مدينة تريستا جنوبا .

أما « توبال » فقد انتشر نســله فى سواحل بحر البلطيق ومنه تألفت الشعوب السلافية وهى روسيا والبلقان واليوغوسلاف »

* * *

وعاش حام وبنوه فى بلاد العرب فى المنطقة الواقعة على السواحل الشمالية للخليج الفارسى إلى حدود بلاد ما بين النهرين .

أما بيصر وهو الابن الأكبر لحام فقد اتفق مع فريق من أهله ورحلوا إلى أفريقيا وسكنوا بلاد النيل وأنشأوا فيها أول حضارة ومدنية وجدت بعد الطوفان - وقد تفرعت عنهم سبع قبائل قوية منها قبيلة مصر بن حام الذى سميت بلاد النيل باسمه نظراً لطول مدة حكمه وهو الذى أنشأ مدينة منف لتكون مقراً له ولحكومته .

وذهبت بعض هذه القبائل إلى جنوب مصر - وسكن البعض الآخر جهة الغرب واستوطنوا بلاد ليبيا والمغرب وتونس - ومراكش والجزائر .

* * *

والذى يسلم به العقل أن الديانة التى لازمت هؤلاء الأجداد كانت هى ديانة جدهم نوح عليه السلام القائمة على الإيمان والتوحيد البعيدة من نزوات المدنية المادية الملحدة ونزغاتها وأنهم جلبوها معهم إلى الأقطار التى سكنوها وقد مضت عليهم حقبة طويلة من الزمن ترعاهم هذه العقائد السليمة والتقاليد السامية الكريمة التى ورثوها عن السلف الصالح وكانت الدولة عندهم — وهى مجتمع متماسك هى

التى تجند العمال وتختار الإشراف لتتولى الوظائف العامة ومنها زرع الحقول وغرس الأشجار وصناعة الحرير والكتان وصيد الأسماك واستخراج الملح من باطن الأرض . . وكانت نعم حياتهم لا تكاد تفترق عن نعم الحياة الحديثة فكانوا يلبسون الأحذية ويصنعونها من الجلد ويرتدون الملابس الحريرية ويتنقلون فى عربات جميلة مختلفة الأنواع أو فى قوارب وسفن شراعية تسير فى الأنهار ـ ويسكنون بيوتاً حسنة البناء ويستخدمون الكراسى والنضد والأسرة ويتناولون طعامهم فى صحاف وأوان من المعدن أو الخزف المنقوش .

ونظراً إلى فترات الإصلاح القصيرة التى أعقبت هذه العهود الزاهرة وخلو الحياة من الهداية . . وجد الشر المستطير مكاناً له فى نفوس الناس وساعد على ذلك زيادة الثروة وتجمعها فى أيدى طبقة قليلة من الناس . . . فأظلمت الحياة وانتشر الفساد من جديد وزادت أبواق الملاهى والمنكرات والاحتيال للشهوات وازدراء الدين والأخلاق . . وامتلأت البلاد بالسفاحين ونشأ منهم البرابرة والجياع وعمت الفوضى كل مكان . . فيئس الحكام من الإصلاح وظلت الحياة تتعثر فى طريقها وقد تغلغلت فيها عوامل التفكك ومظاهر اليأس نتيجة تخطى الناس تقاليدهم القديمة واستجاباتهم لفتنة الحضارة .

الحديثة وتضليلها وخداعها وقد أصبحت المرأة التى كان لها الصون والعزة والكرامة ـــ لهو الناظرين فى الطريق ـــ ومسرح عيون الغوغاء تعمر بها الملاهى والمواخير . .

وأصبحت الأسرة التى كانت تسودها المحبة والإيثار والطاعة والبر ـــ وقد رفع الإيمان من قدرها . . . تتحداها الأفكار الخبيثة بالرذيلة والعقوق والعصيان والثورة ـــ لا سلطان لأب وأم ولا حرمة لكبير ولا طاعة من صغير ورأى الحكام أنهم بحاجة إلى كثرة من العبيد فلم يجدوا بدا من الحصول عليهم ولو من طريق إثارة الحروب المدمرة . . . التى أدت إلى نهب المدن وترك المعابد المتألقة والقصور الأنيقة خرابا .

وسرت فى الناس حياة الوثنية وعبادة خوارق الطبيعة والقوى المخيفة كالرعد والريح والسماء والأمطار والكواكب خشية عقابها وكان أكبر أعيادهم تقام لمعجزة الإنماء فترى الشبان والفتيات يرقصون فى الحقول أيام الربيع — ليضربوا المثل الأعلى لأمهم الارض التى فاضت عليهم بالإخصاب والأنتاج وإن كان أعظم الآلهة عندهم هو إله الشمس الذى أضحى عقيدة الطبقات المتعلمة ودين الدولة الرسمى ! !

واعتقدوا أن الأنهار هى سبب حياة كل المخلوقات ولولاها لما صلحت الأرض للزراعة ونبت الغذاء فعبدوها وأقاموا لها المعابد الكبيرة وحبسوا عليها الأموال والأوقاف وخصص جزء من ريعها لدفن الغرقى من الإنسان أو الحيوان .

وكانوا يقدسون مياه الفيضانات ويقيمون لها المهرجانات العظيمة والأعياد السنوية لاعتقادهم أنها تجلب لهم الخيرات العظيمة والغذاءات الحسنة التي يقتات منها الناس والمعبودات . . وأن سعادة الانسانية وشقاءها موقوفة على عظمة هذه المهرجانات التى يخرج فيها الكهنة من المعابد وبينهم تمثال آله فيزفونه على الشاطىء بالألحان والأصوات المطربة والتراتيل والمدائح وصدح الآلات الموسيقية وهم ينشدون قائلين (السلام عليك يا أيها النهر العظيم - يا من ظهرت على هذه الأرض وأتيت لإحياء بلادنا . . أنت الذى يختفى مجيئك فى الغياهب إلى يوم الترتيل . . . أنت البحر المفيض على البساتين فتمتلىء المخازن وتزداد الخيرات ويسعد الفقراء . . أنت الذى تستجيب دعاءهم عند تقديم النذور الخ . . .

أما فى مصر فكانت الاحتفالات بتقديس النيل ووفائه - بالغة الروعة والبهاء وكان كهنة المعابد يتولون بأنفسهم تقديم القرابين من

الثيران إلى النيل ويلقى رئيس الكهنة قرطاساً مفتوحاً من ورق البردى يشمل الأذن له بإطلاق حريته وزيادة فيضانه كى يضمن لمصر الخير والثروة . .

وقد أدرك الجد القديم أن الفيضان لا يروى الحقول فحسب بل أنه يخربها أيضاً ومن أجل ذلك احتفر منذ عهد الطوفان - تلك القنوات والترع التى نشاهدها تخترق أرض البلاد طولا وعرضاً وتتقاطع فيها تقاطع خيوط الشباك - لحجز المياه الزائدة وصرفها لرى الأراضى فى مواسم زراعتها .

وأقبل الناس على هذا الدين الجديد وشادوا له التماثيل والهياكل وأغدقوا المال على كهنته بسخاء عظيم ومزجوا به جزءاً من قصصهم الشعبي الخرافى . . إن أول الخلائق استطاع أن يشكل الأرض بعد أن ظل يكدح فى عمله ثمانى عشر ألف سنة وتجمعت أنفاسه فكانت رياحا وسحباً واضحى صوته رعداً وصارت عروقه أنهاراً واستحال لحمه أرضاً وشعره نبتاً وشجراً - وعظمه معادن وعرقه مطراً - أما الحشرات التى كانت تتعلق بجسده فأصبحت آدميين) ! ! وظلت هذه الخرافات والعقائد الوثنية تعيش فيهم مدى أربعة قرون من الزمن وآمن أغلب الحكام بعبادة الشمس واتخاذها آلها دولياً

يعبدونه فى سائر الأقطار ويحجون إلى هيا كله إظهاراً لورعهم وتقواهم . . وحاك أتباعها كثيراً من الدسائس ضد الدول الأخرى التى تخالفهم فى العقيدة حتى قامت بينهم الحروب المدمرة !

وظل الأبناء يتوارثون عن الآباء هذه الخرافات والأباطيل جيلا بعد جيل حتى فقدوا إيمانهم بدين آبائهم وسرهم أن يكونوا متطرفين يشجعهم فى ذلك من لقنوهم علومهم وحضارتهم ولكن فريقاً صغيراً لم يرض بهذا الدين الذى رآه يقوم على عبادة النحت والعمارة – لا على المبادىء – السليمة التى تفسح المجال أمام العقل وتمتلك مشاعر الوجدان وترعى الهام القلب الخالص وحسبوه لا يشجع فيهم إلا الخرافات التى تبعث البهجة المادية فى حياتهم الهمجية . . وظلوا على عقيدتهم صامتين حتى قام فيهم هود وصالح عليهما السلام وهما نبيان أرسلا بعد نوح وقبل نبوة ابراهيم عليه السلام . . فقد أرسل الله تعالى هودا إلى قوم عاد وهم أول من عبدوا الأصنام بعد الطوفان فدعاهم إلى تركها وعبادة الله فلم يؤمن منهم إلا القليل – فأهلك الله الذين كفروا بالصواعق وذلك بأن أرسل عليهم ريحا استمرت سبع ليال وثمانية أيام حسوما . . . وبعد حياة طويلة توفى هود ودفن فى بلاد حضرموت .

أما صالح فقد أرسله الله إلى قوم ثمود وكانت تسكن الطائف فدعاهم إلى التوحيد والإيمان فلم يؤمن منهم إلا قليل مستضعفون ... ثم عاهد كفارهم صالح أنه إذا أتى لهم بما يقترحونه عليه آمنوا به .. واقترحوا أن يخرج لهم من صخرة معينة ناقة وصفوها له .. فقام صالح ودعا ربه فاضطربت الصخرة وخرجت منها الناقة المطلوبة ومن ورائها فصيلها - ولبثت الناقة بين القوم فترة من الزمن تأكل من الوديان لكن بعض المفسدين أمسكوا بها وبفصيلها وذبحوها وتقاسموا لحمها.

ولما علم صالح بالأمر أنذر قومه بعذاب شديد من الله فقالوا له ساخرين ... لقد أنذرتنا منذ بعيد ولم نر شيئاً مما زعمت يا صالح فرد عليهم قائلا ... تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ..

وبعد انقضاء الأيام الثلاثة صاح فيهم جبريل صيحة شديدة لم تتركهم إلا وقد أصبحوا أثرا بعد عين ونجا صالح ومن آمن معه .. ثم هاجر بهم إلى ديار الشام وأقاموا فترة فى فلسطين ثم تركهم ورحل إلى مكة المكرمة وظل يعبد الله فيها إلى أن وافاه الأجل فدفن بها ..

الإيمان بقصة الطوفان

وكان الاعتقاد بوقوع الطوفان يكاد يكون عاماً عند كافة الشعوب وجاءت جميع كتبهم الدينية والكتب الوثنية القديمة وكتاب

سفر التكوين .. متضمنة ذكره ومؤيدة حدوثه وهى تصف لنا النكبة التى حلت بقوم نوح .. وكتب أدباء ما قبل التاريخ قصصاً عن هذا الطوفان فقالوا عنه إنه غمر الأرض وخربها عقاباً لأهلها من ذنب ارتكبوه .. وتناقل البابليون والعبرانيون قصة هذا الطوفان التى أصبحت جزءاً من العقيدة المسيحية .

وما تقوله الأساطير الوثنية أن الآلهة خلقت الإنسان سويا سعيداً لكنه حين أذنب وارتكب الخطايا بإرادته الحرة أرسل إليه طوفان عظيم عقاباً له على فعله !!

وقالت عنه كتب الهند — إن الجنس الإنسانى كان يزداد فساده من يوم لآخر ولم يقف طغيانه وشره عند حد فرأى لنيشنوا (إله السماء عندهم) أن يعاقبه فظهر له بهيئة سمكة ووجه إليه العبارات الآتية .. (إن طوفاناً فى ظرف سبعة أيام سيهلك جميع المخلوقات التى أهانتنى أما أنت (نوح) فتنجو منه وستكون فى سفينة متينة محكمة الصنع — فخذ معك من الأعشاب الشافية وبذوراً على اختلاف أجناسها وادخل بلا خوف السفينة مع القديسين ومع نسائك وأصحب بمعيتك من جميع الحيوانات وإذ ذاك تشاهد الآله وجهاً لوجه ويجيب على كل الأسئلة التى توجهها إليه !!

وذكرته كتب الكلدانيين فقالت (ظهر فروني (إله كوكب زحل) الملك زيتروتروس (ابن السماء) في المنام واسمعه الكلمات التالية : —

« إن فساد القوم هو الذي آثار غضبي عليهم وقد عزمت على معاقبتهم فجميعهم سيهلكون بالطوفان وستنتشني أنت وأسرتك من الهلاك — فاجمع معك الكتابات التي تبحث في بدء الأشياء واذهب وادفنها في أسفل جدران مدينة الشمس ثم ابن بعد ذلك سفينة طولها مائة خمسة وعشرون قدماً وعرضها ٥٠ قدماً .

اختلاف لون الانسان

وقد اتفق جميع علماء الطبيعة على أن اللون الأبيض كان هو لون الجنس الإنساني الأول وأن ما نراه الآن من اختلاف وتغير في لون أديم البشرة وتقاطيع الهيئة يرجع إلى أنه منذ أن توطنت شعوب بني نوح الأرض المعتدلة أو الباردة نوعاً ما تغير لونها الأصلي وصار أكثر وضوحاً . وقد أتى أديم بشرتها شيئاً فشيئاً باللون الزيتوني والأصفر أو المغولي والأسود أو الأثيوبي تبعاً لطقس وحرارة كل إقليم .

فالشعوب التى ذهبت واستوطنت المناطق المحرقة قد اكفهر لونها مع مرور الزمن حتى بلغ درجة السواد ــ أما الذين ذهبوا نحو الجهات الباردة واستقروا بها فلم يحدث أى تغيير يذكر فى لونهم أو تقاطيعهم الأصلية .

وإذا قال معترض . . إن فى خط الاستواء شعوبا تعيش يقارب لونها البياض مشربا بقليل من السمرة مع أن أقرب منطقة فى القطب الشمالى مأهولة بأقوام لونهم زيتونى أو ضارب إلى السواد ــ فإن الإجابة على هذا أن هذه الشعوب نزحت إلى تلك البلاد وتوطنتها بعد أن وضعت الطبيعة بصماتها على فى سكانها الأول . . وقياساً على ذلك فإنه إذا جاء الزنجى وأقام اليوم فى الجهات القطبية المتجمدة ــ وسكنت البيض فى الأقطار المحرقة كالسودان مثلا ــ فإن كلا من النوعين وسلالته يحتفظ دائما بشكل ولون النوع المنتسب إليه ! !

ملة ابراهيم

مضى الآن على العصور الأولى للانسان نحو ثلاثة آلاف سنة: تطورت خلالها أساليب حياته فمن القبيلة تكونت الأمة ثم نشأت الدولة فالحكومة وتغيرت الحياة وتبدلت معالمها بما انتشر فيها من حضارة جديدة عصرية فكانت المدن أشبه بجنات نضرة تتخللها الأنهار العذبة وتظللها الاشجار وتقوم فيها المبانى الشائقة ومزارع وجنات وكروم .

وكانت أعمال الملوك باكورة التقدم والعمران وترتب عليها انقلاب كبير فى اصلاح وتغيير الاحوال وازدهار العلوم والاختراع ولم تكن الشعوب وقتئذ قد عرفت الشاى أو القهوة أو التدخين وإن كانت تشرب الخمر والجعة .

وكان يسود البلاد نظام وطنى يمثله الملك ويحافظ عليه وأوضحت لنا الاكتشافات العلمية الحديثة أن الحضارة ظهرت قديما فى بلاد بابل وفى الجزيرة التى كانت تغمرها مياه دجلة والفرات وفى بلاد النيل — ثم انتشرت عنهم بسرعة زائدة إلى سائر بلاد العالم المعمور وأنه لم

يغير من أخلاق ومعارف بعض هذه البلاد أو عاداتهم إلا حدوث إنقلاب قهرى كالحروب والفتوحات أو عامل من عوامل الزمن !

وأظهر ملوك ذلك الزمن فى كل من مصر وبابل والجزيرة وفارس — همة وكفاءة فى تنظيم الإدارة الحكومية لأن ذلك كان ضروريا للحد من سلطان حكام الأقاليم وإخضاعهم لنفوذهم وأهم ما يذكر لهم أنهم أنشأوا الجيوش المدربة وربما كانت هذه هى المرة الأولى لوجود جنود محترفين فى التاريخ وإن كانت مهمة هؤلاء الجنود فى بادىء الأمر كانت تقوم على حراسة القصور والحصون — ثم لعبت دورها فى الحملات الحربية أو التأديبية لحماية البلاد من خطر الغزو .

وكان أهل بابل فى ذلك العصر يصنعون آلاتهم وأسلحتهم بطريقة حديثة ولهم جيش قوى ساهر على هدوء النظام وسلامة الحدود وكانت قوافل التجارة تذهب من مدينة إلى أخرى ومن قوم إلى آخرين وهى آمنة مطمئنة . . . أما حاصلاتها الزراعية وخاصة الحبوب والبلح فكانت هى المصدر الهام للثروة القومية بجانب دخلها من إنتاج الثروة الحيوانية التى جعلت بابل تتمتع بأكبر شهرة فى فى صناعة الملابس الصوفية — التى كانت منتشرة الاستعمال بين سكان آسيا فى ذلك الوقت .

وكان للمرأة مكانتها فى المجتمع البابلى — كما كان شأنها أيضا فى مصر — وفى إستطاعتها أن تمارس التجارة لحسابها . وكان بين النساء من احترفن مهنة الكتابة التى كادت تكون وقفا على كهنة المعابد وموظفى بلاط الملوك لأن التعليم لم يكن قد انتشر بين عامة الناس .

وفى مصر بذلت جهود كبيرة لإنماء الثروة فحفروا قناة بدأت عند الطريق الشمالى للبحر الأحمر متجها غربا إلى أن وصلت إلى أقرب فروع النيل بشرق الدلتا وبذلك تيسر للسفن المصرية فى البحر الأبيض ان تدخل إلى البحر الأحمر عن طريق هذه القناة — وذلك قبل أن يظهر مشروع حفر قناة السويس إلى عالم الوجود بنحو أربعة آلاف سنة ويتمكن الأسطول المصرى القديم من السفر إلى بلاد بعيدة فتدفقت الأموال عليها من سائر البلاد وقد ساعدت هذه الثروة المالية على وجود عهد يمتاز بالفخامة والرخاء والقوة لم تعرفه من قبل ووضح أثر ذلك من آثار فخمة حدثتنا عنها الأحجار الصامتة فى معبد الكرنك بمدينة الأقصر وكشفت لنا نقوشها عن كثير من الأسرار وما قاموا به من جهود وأعمال وفتوحات باهرة .

ويزداد تقديرنا لهذا العصر عندما نقف مبهوتين أمام بناء

الأهرامات وهي أعظم ما أقامه الإنسان من عجائب الدنيا فقد بلغت الحجارة التي استخدمت في بناء الهرم الأكبر ٢ مليون ٣٠٠ ألف حجر على وجه التقريب زنة كل منها طنان ونصف طن وأمضى نحو مائة ألف عامل مدة عشرين سنة وهم يعملون في بنائه — ولا شك أن مثل هذا العمل الضخم لا يقوى على إقامته وتنفيذه إلا ملك قدير من أقوى الرجال وشعب عظيم نال درجة كبيرة من الحضارة والرقى .

وإستتبعت هذه الخطوات الحاسمة في تاريخ الإنسان تغييراً كبيراً في أهدافه المدنية وفي نظرته إلى الحياة الدينية فأخذت أفكاره تتجه شيئاً فشيئاً إلى التعرف على ما يحويه ذلك العالم البعيد عن حياته اليومية — لأن الفضائل التي خلفها الهداة والأنبياء وغرسها دين الأسلاف في النفوس — وما فيها من تقدم فكرى سليم وتهذيب وجدانى كريم قد إنهارت تقاليدها وتعاليمها أمام عجلة الزمن وشوهتها بهجة الحياة — فأخذت العقائد الدينية تتكيف حسب التطورات الفكرية الحديثة حتى نسيها الناس وخلعوا عنها إهابها القديم لتحيا وفق أساليب جديدة تترنح على حافة المزاج الدنيوى وساعد ذلك إنغماس الشعوب في الشهوات وتردى الأمم في مهاوى الجمود والفساد وتفنن طبقة الأغنياء في إبتكار ألوان المشهيات والمسليات .

ولم تلبث الشعوب أن اعتقدت فى خوارق الطبيعة — وتراءى لها أن هذه القوى الخفية التى لم يعد يقوى الإنسان على أن يعرف من أمرها شيئا قد سيطرت على حواسه وأجبرته على التفكير فيها لمعرفة كنهها . . هاله الشمس وهى تظهر مشرقة فى كل صباح من وراء الجبال فتجلب له الدفء والحياة .

وبهرته السماء الصافية باطراد إتساعها ونجومها وقمرها الجميل المنير — وأخذه العجب من أمر هذه السحب التى تتكاثف فتحجب عنه حرارة الشمس . . وأزعجه ذلك الرعد بدويه المخيف وأفزعه صوت البرق وقصفه الشديد . . فظن كل هذه الأشياء كما لو كانت آلهة تشن عليه حربا شعواء من السماء . . ثم نظر إلى الأرض فرآها خصبة تنتج له الخيرات ومن الرزق الكثير وإلى الأنهار العذبة وما تجود به من فيضانات تغمر الحقول وتكسبها الخصب وتعيد إليها الحياة بعد موتها . .

كان ذلك كافيا لإثارة الدهشة وتصديقه بأن كل عمل طيب أو شرير لابد صادر عنها وإن ما يراه فى الحياة من الآلام والمتاعب وما يصيبه فيها من خير وشر لابد من غضبها فخافها ورهب جانبها وتوهم جبروتها وصدق بقوة سلطانها وسيطرتها عليه فخضع لها خضوعا

مقروناً بالغبطة والسرور وسعى جاهداً إلى تأكيد مظاهر إحترامه لها بإقامة المعابد الضخمة لها وملأ جوانبها بعبيق البخور والقرابين المختلفة من كل نادر ونفيس من المأكل والمشرب والزهور والملابس والحلى — حتى تغمره برضاها وتبارك له وتغدق عليه النعم الوفيرة وتمنحه الإطمئنان الدائم وتدفع عنه السيئات والأذى .

وبذلك أصبح لهذه المعبودات صفة رسمية فى المجتمع ولقيت حماسة دينية بعيدة الأثر فى نفوس القوم لم تلبث أن سيطرت على الحياة العقلية بصفة عامة عند جميع الشعوب . . ولعل العذر فى ذلك كله مرده إلى أن العقل لم يكن قد إهتدى إلى معرفة الخالق سبحانه فأطلق صفاته على هذه الصور المجسده فى عالم الطبيعة واعتبرها آلهة واجبة العبادة ظناً منه أنها ستكون بجانبه تؤيده وتسعده وتخفف من بلائها عليه ! !

وقد إستغل الكهنة — وهم الفئة من الناس الموكول إليهم أمر خدمة هذه الآلهة فى المعابد سذاجة الناس وحبهم لآلهتهم فابتكروا القصص الخرافية والأساطير الوهمية ونسبوها إلى أفعال هذه الآلهة كأنها معجزات صادرة منهم لتكون بمثابة وعز دينى يتمكن عن طريقه هؤلاء الكهنة من التأثير على الشعوب — وإيهامهم بأنهم

الوسطاء بينهم وبين معبوداتهم محافظة على ما يتمتعون به من المركز السامي الذى يدر عليهم النفع المادى والعيش فى بحبوحة ورفاء .

وكانت طقوس العبادة فى مصر وبابل متشابهه ومعابدها فخمة رهيبة تحيط بها حقول ملأى — بأشجار الفاكهة والنخيل وكان كل شيء فيها دقيق الصنع بألوان زاهية جذابة وبعضها مغطى بصفائح من الذهب أو الفضة تذهل الأبصار — وكان المعبد فى المدينة هو نواة حضارتها والمركز الرئيسى فيها تحيط به الأسوار الفخمة التى تفصله عن باقى أجزائها وفى داخل تلك الأسوار قامت أماكن العبادة ومخازن المعبدوالمكاتب ويشرف عليها جميعاً الكهنة يعاونهم الكتبة الذين يؤجرون لرعاية أملاك المعبد الذى كان يقوم مقام البنوك لأن الكهنة كانوا يقرضون الناس بإسم الآلهة ويتقاضون الأرباح بإسم الآلهة أيضاً !!

أما شعوب الفرس والصين والهند — فكانت تقدس الضوء والنار والماء ويعبدونها على أنها كائنات إلهية ويقدمون إليهاصلواتهم وقرابينهم وإشتملت دياناتهم هذه التى تسمى بالمجوسية على أنواع شتى من الآلهة التى تمثل قوى الطبيعة فكانوا يعبدون إلهاً للمطر ويضرعون إليه فى طلب الغيث .. وإلهاً للريح .. وآخر للبحار ..

وكانوا يجانبون الظلمة لأنها فى ظنهم آلهة الشر أو إبليس !!

ومن المجوس فئة تعبد الأرواح وطريقتهم فى ذلك أنهم كانوا يختارون فرداً من الأسرة لينوب عن جدها المعبود ويخصونه بالمطعم السخى والكساء الفاخر ويتزلفون إليه لإعتقادهم إن روح الجد قد تقمصت فيه وهى التى تتقبل هـذه القرابين فى شخص ذلك الحفيد المعبود !!

وفئة أخرى تعبد الماء لإعتقادهم فيما زعمته أسطورة من أن الماء أصله رب هبط من السماء فعبدوه حتى لا تجف مياهه أو يفر منهم بالصعود .. ويزعم هؤلاء المجوس ممن يعبدون النار أن إلـهها نزل من السماء فى صورة بشر وأمرهم بعبادة النار وتعظيمها والتقرب إليها بالطيب والذبح .. وأباح لهم تقديس البقرة والسجود لها حيث رأوها والتضرع إليها عند التوبة أو الشفاعة وطلب الحاجة !!

وكان بعض المجوس يغالى فى عبادته للنار بإحراق نفسه فيها لينال المغفرة الكبيرة حسب توهمه — فكان يذهب إلى الملك الحاكم لمنحه هذا الشرف فإن أذن له عاد إلى أهله فرحا فألبسوه أحسن ماعنده من الثياب الحريرية ووضعوا فوق رأسه إكليلا من الزهور ثم تدق الطبول والدفوف إعلانا لموكبه فيجتمع أهل القرية أو المدينة عند داره

ويخرجون به فى موكب حافل زائع ويطوفون به المدينة ومن حوله أهله يطلقون البخور حتى إذا إقتربوا من مكان النار المعدة للعبادة إرتفعت الأصوات بالتراتيل وإختلطت بدقات الدفوف والرقص الساحر وفى غمرة هذه النشوة ينتزع الشخص المحتفل به خنجره ويشق به جوفه ثم يسرع إلى النار ويلقى فيها بنفسه .

وكان يعيش بين هذه الشعوب قلة ضئيلة من الناس هم البقية الصالحة التى لا تزال تعبد الله سراً على شريعة نوح وهى تخشى الجهر بها خوفاً من الوشاية بهم بمقاومتهم لدين ملوكهم لأن المرتدين كانوا يعاقبون عليه بالإعدام من غير توان . . عاشوا فى حزن مستمر وهم يشهدون مصرع الفضائل على هذه الصورة الوثنية فى ظل إلوهية بشرية ويحلمون بتحسن الأيام وبزوغ فجر عصر جديد أو مصلح عادل ينقذهم من فوضى الشرك والإنحلال الروحى ومن شر ما تعانيه البشرية بإقامة العدالة الآلهية ونشر مبادىء الإيمان السليم .

ابراهيم خليل الله

وفى هذه الفترة من الزمن كان يحكم بابل « ملك غليظ القلب » شديد المكر إسمه النمروذ بن كنعان من حفدة حام بن نوح — نصب نفسه إلها ودعا الناس إلى عبادته وتعظيمه لأن عادة تقديس الشعوب

لميليكهم كانت تقليداً أخذوه عن الأساطير القائلة بأن الملوك أرباب أصطفتهم الآلهة للحكم بين النـــاس وخصتهم بالسيادة وأمدتهم بروحها .

ومما روى عن هذا الملك أنه كان قاسيا ولم يدخل فى قلبه الرحمة ولم يكن أحداً أسمج منه وبالرغم من ضعف بنيته كان قادراً على إنزال الهزيمة بأعدائه وقد استنفذ المثالين كنوزاً من المعادن والأحجار الثمينة فى صنع أصنام له بعضها تظهره فى صورة الإله المهذب الوقور وبعضها فى صورة الـكاهن والأخرى فى ثيابة الحربية رمزاً للقادر المنتصر ! ! لـكن هذه الصور لم تنسى الناس أنه الرجل الدميم الخلق الفاسد ولما بلغ سن الشيخوخة تبدلت حاله فخرج عن تسامحه وأخذ فى اضطهاد كل من لا يقوى ألوهيته .

ووسط هذه البيئة الفاسدة — ولد نبي التوحيد ورسول الدين الحنيف إبراهيم الخليل وأبوه آزر بن تارح من سلالة سام بن نوح وكانت ولادته بعد آدم بثلاثة آلاف سنة وثلثمائة سنة على حسب تقدير التوراة . . وكانت أمه . . عوشاء . . تخاف عليه وهو جنين مستكن فى أحشائها لما علمته من أن النمروذ يتعقب كل مولود ذكر ليقتله . . وهذه الإشارة التاريخية كانت تسبق ظهور بعض الأنبياء

وهم موسى ويوحنا المعمدان والمسيح نفسه فإن مريم فرت به من فلسطين إلى مصر لتتقى بطش هيرودس ولكن الله الغالب القهار كان ينجى رسله من كل ظالم يترقبهم — لأن النمروذ رأى فى منامه أن كوكباً بزغ فجأة فى السماء فأذهب بضوء الشمس والقمر حتى لم يبق لهما أثر — ففزع النمروذ من هذه الرؤيا ودعا الكهنة والسحرة والعلماء لتفسيرها فقالوا له أن غلاماً من رعيتك يولد فجأة ويدعو إلى دين جديد يقضى به على عقائدنا وعباداتنا التى ورثناها ويكون هلاكنا على يديه ما لم نؤمن به وندخل فى دينه !!

.. وأمر النمروذ بعزل النساء عن الرجال ومراقبة الحوامل وقتل الذكور من مواليدهم — ولما علم بأن عوشاء « أم ابراهيم حامل أرسل إليها رجاله للكشف عليها لمعرفة حملها فكانوا إذا جسوا جانبها الأيمن اختفى الجنين فى الجانب الأيسر وإذا جسوا الأيسر اختفى فى الأيمن وهكذا حتى انصرفوا دون أن يظفروا بغنم .

وخافت عوشاء على نفسها وعلى ولدها فلما دنت ولادتها وجاءها المخاض اختبأت فى كهف بعيد لتكون فى مأمن من أعين الرقباء — فلما ولدته ذكراً فرحت به وسمته ابراهيم وعاشت معه فى هذا الكهف حتى اجتاز مرحلة الصبيان ثم تركت الغار وأرسلته يشتغل

ثم والده آزر الذى كان أبرع رجال عصره فى صناعة الأصنام والأوثان .

وقد أنار الله لابراهيم بصيرته وهداه إلى الرشد منذ الصبا مصداقاً لقوله (ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين) . . أى هداه الله قبل بلوغه فعلم أنه لا يمكن أن تكون هذه الأصنام التى لا تسمع ولا تبصر آلهة ! !

ولما جن الليل رأى ابراهيم كوكباً فظنه ربه — فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر لأنه رأى ضوءها أعظم فلما أفلت أنكرها واتجه نحو إله السموات والأرض الذى لا يراه بعينيه ولكنه يشعر به بقلبه وهذا هو ركن الإيمان وقال للناس . . . يا قومى إنى برىء مما تشركون — إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين .

ولما اختاره الله رسولا ونبيا وأوحى إليه بدعوة قومه إلى الإيمان وعبادة الله وحده دعا أولا أباه آزر باللين والقول الحسن وقال له (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً .

يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطاً مستقيما . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا .. يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا) فهزأ أبوه وقال له . . لست بتابع ملتك يا ابراهيم فاهجرنى مليا وحزن ابراهيم على يأسه من هداية والده إلى الإيمان وإصراره على أن يكون من أكبر الداعيين إلى الكفر وعبادة الأصنام . . . ثم خرج على قومه يبذل لهم النصح والإرشاد ويبين لهم بطلان عباداتهم ويدعوهم إلى الإسلام .

فلما يئس من هدايتهم كما يئس من هداية أبيه طوعت له نفسه أن يحطم أصنامهم وانتهز فرصة خروجهم من المدينة فى يوم عيد — لأن تقاليدهم المرعية كانت تقضى الاحتفال بأعيادهم خارج المدن وفى صباح هذا اليوم تخرج مئات الألوف من الرجال والنساء بين مظاهر الفرح والابتهاج والطبل والزمر والرقص وعندما يبلغون قصر الملك تخرج النساء فى شكل جماعات وترقص رقصة السعادة تحية للملك المعبود فى صور رائعة الجمال — وعندما تأخذ الشمس فى الغروب يشعل كل منهم مصباحاً يظل يضىء حتى الصباح وعندما ينبلج نور الفجر تطفأ المصابيح ويتقدم المحتفلون نحو بيت الآلهة .

وعندئذ تبادر النسوة بالالتفاف حول الآلهة ويأخذون فى أداء

رقصة المعبد على أنغام المزامير ودق الطبول بطريقة تؤكد حركاتها على العبادة والحمد والشكر لها بينما يلتف الكهنة حول هذه الآلهة في شكل دائرة كبيرة يمثلون فيها مجرى الأفلاك السماوية حول الشمس — وحمل فأسه وذهب إلى بيت الآلهة حيث كانت التماثيل قائمة على الأرائك وكلها مصنوعة من المعدن والحجارة المحلاه بالجواهر والياقوت وأمامها الموائد محملة بالأطعمة الفاخرة فخاطبهم ساخراً . . ما لكم لا تأكلون . . فلم يجيبوا بالطبع أو يردوا عليه . . ولكنه إنهال عليها بفأسه فأطاح برأس أحدها وبتر قدم آخر وحطم يد ثالث وهكذا حتى أنهى عليها ثم علق الفأس في يد كبير هذه الأصنام ووضع أمامه مالذ وطاب من صحاف الأطعمه وانصرف .

فلما عاد القوم من عيدهم ودخلوا بيت الآلهة — راعهم ما حل بها من هوان وإهانة على هذه الصورة الجريئة وثارت ثائرتهم قائلين من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين فقال البعض إنا سمعنا فتى يذكرهم بسوء ويعيب على عبادتها يقال له إبراهيم وهو المجترىء عليها والمحطم لها وبحثوا عن إبراهيم حتى عثروا عليه وحملوه إلى بيت الآلهة حيث إجتمع فيها أشراف المدينة لمحاكمته وقالوا له . . أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم — ووجد إبراهيم الفرصة سانحة أمامه للسخرية بهم فقال لهم وهو يشير إلى أكبر أصنامهم — بل فعله كبيرهم

هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون . . . .

وعلى الرغم من قيام هذه الحجة البالغة القوية وما أصابهم من خزى وخبرة أطرقوا برؤسهم فإنهم إستعلوا وأصروا على طغيانهم واتفقوا فيما بينهم على الثأر لأصنامهم وصاحوا فى صوت واحد (احرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين) . . وشرعوا يجمعون الحطب والوقود من كل جهة حتى ضاق المكان بأكوامه وأشعلوا فيه النار فلما تأججت وعلا لهيبها واحمر جمرها . . وثقوا إبراهيم وألقوا به فى النار بين مظاهر غبطتهم وسرورهم ولكن الله أنجا إبراهيم من كيدهم وجعل النار برداً وسلاماً وخرج منها سالماً وهذا مالم يحدث لنبى قبله ولا بعده . . . .

وذاعت هذه المعجزة وبهرت الناس فآمن منهم نفر غير قليل وكتموا إيمانهم خوفاً من التشريد بهم . . كما روعت الملك نمروذ فأمر بإحضار إبراهيم فلما مثل بين يديه إبتدره قائلا . . ما هذه الفتنة التى أيقظتها بدينك الذى تدعو إليه وما هذا الإله الجديد ؟ وهل هنالك إله غيرى يستحق العبادة ومن هو ربك الذى تؤمن به وتدعو الناس لعبادته فقال إبراهيم فى ثبات « ربى الذى يحيى ويميت وهو الذى خلق الكون ويفنيه . . فأخذت النمروذ العزة وقال مكابرا . . أنا أحيى من أشاء بالعفو عنه من الموت وكذلك أميت من أشاء

بأمرى فلم يأت ربك بدعاً ولم يفعل عجباً ! !

فأجاب إبراهيم قائلا — إن ربى سخر الشمس وجعل لها نظاما لا تحيد عنه فهو يأتى بها من المشرق فإن كنت إلهاً كما زعمت فغير هذا النظام وائت بها من المغرب .

فبهت الذى كفر وألجمته الحجة بعد أن صدمته الآيات البينة وخرج إبراهيم من مجلس الملك محاطا بالرقباء الذين تربصوا به السوء فعقد العزم على الهجرة من وطنه والفرار من وجه ذلك الملك الطاغية الجبار ومن قومه المفتونين . . وتجهز للرحيل هو وزوجته سارة وهى إبنة عمه وكانت أول المؤمنين به . . ومعه كل من صدق برسالته وفى مقدمتهم ابن أخيه « لوط » وأبوه آزر رغم كفره — وفى غفلة من عيون نمروذ فروا جميعاً مخترقين الصحراء إلى بلاد الشام ولبث فيها حقبة من الزمن يدعو أهلها إلى الإيمان وبين بطلان عباداتهم للشمس والقمر والكواكب لأنها مخلوقة ومسخرة تطلع تارة وتأفل أخرى فتغيب عن العالم وأخذ يقيم لهم البراهين العقلية على وجود الله ووحدانيته وقدرته وعلمه الواسع وكان هدفه من وراء ذلك كله نشر الدين وإصلاح عقائد الناس وتقويم الأخلاق والعادات التى أفسدها الدهر وتطهير العقول من أساطير الأولين وأوهام الشرك والإلحاد وتأليه غير الله الذى لا يغيب عنه شىء ولا يخفى عليه شىء .

ابراهيم فى مصر

ثم انطلق مرتحلا إلى فلسطين فلم يطق العيش فيها طويلا - ثم واصل الهجرة إلى مصر حيث الرخاء والرزق الممتع - على رأس قبيلة هو زعيمها وشيخها ورئيسها رحالة بجانب رسالته المقدسة وكان ذلك فى أيام حكم أمنمحيت الثالث فرعون مصر الذى حكم خلال الفترة من سنة ٢٠٩٩ ق . م . إلى سنة ٢٠١٣ ق . م . وجعل ابراهيم يطوف المدينة وما حولها ومعه زوجته وبعض قومه يدعون الناس إلى عبادة الله وترك عبادة الأصنام - وكانت سارة فاتنة الحسن ذات جمال باهر فأعجبت الناس بها ونقلوا خبرها إلى فرعون وزينوا له حسنها فدعا إبراهيم إليه وسأله عن سارة وصلته بها ففطن إبراهيم إلى مأربه وعرف مقصده وما يرمى إليه من الرغبة فيها وخاف إن هو أبلغه أنها زوجته فتك به أو تخلص منه بالقتل لتخلص هى له فيستأثر بها من بعده فقال له أنها أختى يقصد فى الإيمان . . فاطمأن الملك وأمر باحضارها فأتوا بها مسرعين إلى مخدعه وأفاضوا عليها من ثياب الزينة والجوهر النادر وبسطوا لها الفرش الوثيرة والأرائك الملبسة بالذهب . . فلم يفتنها ذلك النعيم ولا أنساها طهرها وعفتها والاستمساك بدينها والوفاء لزوجها بل رفعت يديها إلى السماء قائلة

اللهم إنى آمنت بك وبرسلك وأحصنت فرجى إلا على زوجى فلا تسلك على هذا الكافر !!

ولما رآها فرعون فتن بها وجن ومد إليها يديه محاولا ضمها إلى صدره ولكن الله عصمها منه بسياج من العفة ـ فأحس فرعون برجفة شديدة فى بدنه وتكررت هذه الحالة معه كلما حاول الإمساك بها ـ حتى تصلبت أنامله وسرى إليه وهم قاتل فكف عنها وعندما استسلم للنوم جاءه هاتف يطلب إليه أن يخلى سبيلها حتى لا يصاب بالهلاك المحقق ـ فلما أفاق قدم لها اعتذاره عما بدر منه وأمر بسرعة إعادتها إلى إبراهيم ومنحها مالا وفيرا وأغناما ووهبها هاجر وهى فتاة مصرية من أجمل جوارى فرعون .

ولبث إبراهيم وزوجته وعشيرته بمصر فترة من الزمن قيل أنها بلغت نحو العشر سنوات كثر خلالها أتباعه وزادت ثروته ونمت أنعامه وقد أعجب إبراهيم بما وصل إليه المصريون من تقدم وحضارة فقد كانت مصر وقت ذاك مهداً للزراعة والفنون والصناعات ومعهداً للعلوم الروحية والفلكية ولأهلها عادات وتقاليد حافظوا عليها دون تغيير وبذلك استطاعوا أن يجعلوا من بلادهم أمبراطورية قوية .

ولكن أشد ما أزعجه ما رآهم عليه من انحطاط دينى فقد كانوا

يعبدون الأوثان ويتخذون ملكهم آلها ويسمونه المعبود الطيب يصلون نسله « برع » إله الشمس ويقولون — إن أباه وجده وجميع من سلف من آبائه كانوا أبناء لرع لأنه لما علم بانقراض ذريته من الأرض هبط اليها وأودع روحا منه فى امرأة فاتنة فولدت رجلا ساعدته يد العناية فى أخذ الملك لتتصل بهسلسلة العائلة الفرعونية حتى لا تنقطع من الأرض وكان أعظم تقديسهم الدينى للاله فتاح وكان يعبد بمدينة « منفيس وما حولها » من البلاد ويعتقدون أنه هو الذى أعطى المعبود « رع » عناصر إيجاد الخلقة وأنه الواضع لقوانين الولادة وأحكامها فلذا كانوا يسمونه رب الخليقة ويرسمونه على هيئة إنسان محنط مقمط ويقولون إن يديه تتحركان كيف يشاء وهو قابض بهما على ثلاث علامات هى . الحياة — والأزلية — وقضيب الملك .

ويليه فى المرتبه المعبود (رع) وكان يعبد فى مدينة آن « عين شمس » بالمطرية ويزعمون أنه ملك المعبودات والناس معاً وله المرتبة الثانية فى الربوبية وأن الدنيا تضىء من نور عينيه وهو الحامل للضوء والباعث على الحياة . . وكانوا يرسمونه على شكل إنسان له رأس نسر — وفى إحدى يديه صورة للحياة وفى الأخرى قضيب الملك وجعلوا على رأسه صورة قرص الشمس وقد التف به ثعبان كبير ولهذا الثعبان قصة فكهية فقد زعموا أن رع كان قد خرج يوما ما من قصره

التف به الآلهة الأخرى لكى يبدأ رحلته اليومية فدبت الحياة فى هذا الثعبان ولدغه فى الحال فصرخ (رع) من شدة الألم وكانت شفتاه ترتعشان وترتجف سائر أعضائه وعندما أخذ يتمالك قواه صاح فى إتباعه قائلا أدركونى أغيثونى فان آلام السم فى جسمى أقوى من لهيب النار . . عندئذ تجمعت الآلهة وأخرجت من جسده السم وعاش (رع) موفور الهناء .

وشاهد كيف يقربون إلى الشمس الأضحية وهم يغنون لها بالتراتيل . . يجب أن تعظم شمس الصباح إلى الظهر وشمس الظهيرة يجب أن تعظم إلى العصر وشمس العصر يجب أن تعظم حتى المساء والذين لا يعظمون الشمس لا تحسب لهم أعمالهم الطيبة فى ذلك اليوم .

وكانت أرض مصر فى ذلك الزمن حمأة مستوحلة فأخذ النيل يقذف طميه السنوى وهو مستمر فى جريانه فيرسب ويتراكم بعضه فوق بعض حتى تكونت منه الدلتا لأن الوجه البحرى كان مغموراً بمياه البحر الأبيض حتى الفيوم .

وكان النيل فى زمن فيضانه يحول مدن مصر إلى جزائر وأرضها إلى أنهار وفى زمن الإنحصار تصبح المدن أشبه بجنة أغراسها نضرة ومزارعها يانعه خضر .

وأوحى الله إلى إبراهيم فرحل عن مصر ومعه أهله وقومه وابن أخيه لوط — ورجعوا إلى فلسطين بمال كثير وأغنام وأنعام وخير موفور — وعز عليه عند رحيلهم فراق أهلها وأرضها الطيبة الجيدة وما زال يحن إليها ويذكرها بالخير بعد إستقرار مقامه فى أرض كنعان .

وأقام إبراهيم بناحية بأرض فلسطين بين الرملة وايلياء وعاش فيها يحوطه الهناء ومعه زوجته سارة وجاريتها المصرية هاجر — يضيف كل من يأتيه من القوم وقد أوسع الله عليه وبسط له فى الرزق وقبيلته على رأيه فى شئون الحياة الدنيا وأوامر الدين .

ورأت إمرأته سارة أنها بلغت من الكبر ولم ترزق بذرية وكانت ترجو الولد رحمة بزوجها الذى تقدمت به السن وطال عليه الأمل — فوهبته جاريتها (هاجر) عسى أن تنجب له الولد المنشود . . . . . . وحملت هاجر واستجاب الله لابراهيم أغلى أمانيه فرزقه إسماعيل .

ولما رأت سارة ميلاد اسماعيل من هاجر وكانت هى عاقراً وفى سن اليأس أخذها ما يأخذ النساء من غيرة الزوجة العقيم من الزوجة الخصيب — وألحت على خروج هاجر بولدها حتى لا تتنغص برؤيتها واشترطت إبعادهما إلى مكان قصى فأوحى الله إلى إبراهيم أن يذهب

بهما إلى حيث مقر بيته الكريم وكعبته الموعودة — وركب إبراهيم دابته وحمل الطفل الرضيع وأمه على دابة أخرى وخرج بهما مخترقا الوديان والفيافى المقفرة يقوده الوحى الكريم حتى وقف به عند مكان البيت الحرام وعمد بهما إلى موضع الكعبة فأنزلهمافيه وأمر ابراهيم هاجر أن تتخذ فيه عريشاً عند دوحه فوق المكان الذى تبعت منه زمزم . . وقد أدت هذه الهجرة إلى تأسيس أسرةفقبيلة فشعبفدولة ودين عظيم وهنا تظهر سابقيه القضاء فى علم الله لأن خروج هاجر وابنها لم يكن المقصود به النفى المجرد عن الغاية بل كان المقصود به تحقيق ما فى علم الله من بناء البيت فى تلك البقعة المحصورة بين سلسلة جبلية وشاطىء بحر عظيم ماؤه ملح أجاج وتدهش زائرها بجدبها فليس فيها خضرة يانعة أو عين ماء جارية ولا أشجارأو نخيل . . خالية من كل ما يبهج النفس ويطفىء الظمأ ويغذى الجسم كما جاء فى دعاء ابراهيم . . (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غيرذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون)

وانصرف إبراهيم عائداً الى فلسطين مقر زوجته سارة . . وكان منظر وداعه مؤثراً فقد هرعت اليه هاجر قائلة .

— الى من تتركنا أيها الشيخ الكريم

— إلى الله عز وجل .

— الحمد لله إنى رضيت به مستودعاً وحافظاً وأميناً .

ثم عادت بإبنها ووضعته إلى جوارها تحت الدوحة فلما فرغ منها الماء واشتد ظمأها وانقطع درها — جاع الطفل واشتد به حتى خيل إلى أمه أنه يحتضر . . . فلم تتمالك نفسها وسارت هائمة تعدوا بحثاً عن الماء بالسعى بين الصفا والمروة سبع مرات أو للتخلص من رؤية الطفل وهو يموت كما توهمت وقد صار هرولة هاجر هذه بين الصفا والمروة فى طلب الماء أحد مناسك الحج حيث قال تعالى (إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما) .

وبينما كان الطفل يتلوى صارخاً من ألم الجوع ضرب الأرض برجليه الهزيلتين فانفجر الماء بقدرة الله — من حجر تحت قدمه وفوجئت هاجر بملك كريم يقول لها — زمى . . زمى أى خذى الماء بيديك واشربى واسقيه — ومن هنا سميت العين بئر زمزم . . وبعد أن شربت وارتوت وأرضعت طفلها قال لها الوحى الكريم . . لا تخافى الحياة فى هذا المكان فإن هذا الطفل وأباه سيبنيان بيتاً لله هنا !!

وبنبع الماء حوم الطير فوق البئر فعرف منه المرتحلون

من قبيلة جرهم وكانوا قادمين بتجارتهم من اليمن إلى الشام ـ وجود ماء في هذه المنطقة فأقبلوا على البئر واستأذنوا هاجر في الإقامة بجوارها فسأنت بهم وشكرت ربها باستجابة دعوة زوجها . . « واجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم » وشب اسماعيل وترعرع وتكلم الكلام باللغة العربية من قبيلة جرهم ولما بلغ أشده تزوج إحدى بنات القبيلة . . ثم ماتت أمه فدفنها بموضع الكعبة التي لم ترى بناءها .

قوم لوط

وعاد ابراهيم إلى زوجته سارة — وبعد فترة رحل عنهما لوط إلى الأردن حيث سكن هو وأهله مدينة سدوم المسماه ببحر لوط أو البحر الميت ـ وكان أهلها وثنيين من أفجر الناس خلقا وأقبحهم سيرة لا يستمعون لنصيحة ولا يردعهم حياء ابتدعوا فاحشة ـ اتيان الرجال من دون النساء وزينها لهم الشيطان ففشت المنكرات وكثرت الموبيقات وألفت قلوبهم حب الفاحشة فأوحى الله إلى لوط أن يدعو قومه (أهل الأردن) إلى الإيمان وعبادة الله والتوبة عن اقترافهم هذه الجرائم الخبيثة ولكنهم أصروا على ما هم عليه فأنذرهم سوء العاقبة وغضب الله فتحدوه أن يأتيهم بالعذاب الذي يهددهم به إن كان صادقاً ! !

فسأل لوط ربه أن يوقع بهم عذابه الأليم . . . واستجاب الله دعاءه وبعث له بجند من ملائكته فى صورة بشر لينزلوا بقومه ما يستحقونه من العقاب . . فنزل الملائكة أولا بدار ابراهيم فحسبهم من عابرى السبيل - ورحب بهم وقدم إليهم خير ما عنده من الطعام وهو لا يدرى أنهم ملائكة ولما لاحظ أنهم لم يأكلوا شيئاً مما قدم أو امتدت أيديهم إلى الطعام أوجس منهم خيفة وقال لهم ما خطبكم أيها الرجال ألا تأكلون فأجابوه . . لا تخف . . إنا جند ربك أرسلنا لنهلك قوم لوط لأنهم لم يستجيبوا دعوته وقبل إنصرافهم بشروه بأن الله سينعم عليه بغلام اسمه اسحق من زوجته سارة وأن لوطا وأهله سيكونوا من الناجين إلا امرأته لأنها فى هواها مع شذوذ قومه ! !

قال تعالى (هل أتاك ضيف ابراهيم المكرمين - إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون - فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه اليهم قال ألا تأكلون فأوجس منهم خفية قالوا - لا تخف وبشروه بغلام عليم - فأقبلت أمرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم قالوا كذلك قال ربك - أنه هو الحكيم العليم - قال - فما خطبكم أيها المرسلون - قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين لترسل

عليهم حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين ـ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين •

ودخل الملائكة مدينة سدوم فى صورة شبان حسان وقابلتهم فى الطريق احدى بنات لوط وكانت تستقى الماء لأهلها فطلبوا اليها أن أن تستضيفهم فصحبتهم معها وأخبرت أباها بأمرهم وحار لوط فى قبول ضيافتهم خوفاً عليهم من شذوذ وشراسة قومه اذا علموا بوجودهم . . ثم أنزلهم فى داره وتستر عليهم ولكن امرأته وشت بهم وأذاعت خبرهم واذا بالقوم الفجرة السفهاء يحاصرون دار نبيهم لوط ويراودونه عن ضيفه يريدونهم للفاحشة . . فأخذ لوط يناشدهم الكف عن مساوئهم وأن يتقوا الله ولا يخزوه فى ضيوفه وقدم اليهم بناته كزوجات فرفضوا كل عروضه ولكنه أسرع وأغلق الباب فى وجوههم وحال بينهم وبين ما يشتهون .

ولما رأى الملائكة حزن لوط وخجله من تصرفات قومه قالوا له لا تخف ولا تحزن فانا رسل ربك جئنا لانقاذك ورفع الأذى عنك.. وعندما جن الليل أمرته الملائكة أن يأخذ معه أهله ما عدا إمرأته ويتركوا هذه القرية الفاسقة ففرح لوط وخرج منها غير آسف حتى إذا ما إبتعد عنها نفذ فيها غضب الله وأصبح عاليها سافلها وأمطرت

السماء حجارة من سجيل فاهلكت قومه أجمعين ! !

ولما أهلك قوم لوط بعث الله إلى إبراهيم يأمره بالخروج من فلسطين كما خرج من بلد أبيه ناقماً على عبادة الأوثان وهذه هى المرة الثانية التى تتحرك العناية الآلهية لتقص إبراهيم عن موطن الشر والأذى ! !

ومازال يرحل حتى بلغ بلاد الكلدانيين والجزيرة فكان أول نبي يجوب أنحاء الأرض فى سبيل الله ونشر دينه وتعمير البلاد — يجر وراءه أقاربه وقطعانه حتى أرغمته كثرة المؤمنين وندرة الكلاء على تقسيمهم وتوزيعهم على مختلف البلاد وقد إستفاد مما شاهده من حضارة عريقة ومدن مؤسسة وحياة كاملة وزراعة متقنة وثقافات عامة ومدنية رائعة .

ذبح اسماعيل

وذات ليلة رأى إبراهيم الخليل فى المنام أن الله تعالى يأمرة بذبح ولده إسماعيل ويجعله قرباناً له . . فامتثل إبراهيم لأمر ربه وارتحل مسرعاً إلى مكة حتى لقى ابنه وقال له . . يا اسماعيل إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى .

فبادر إسماعيل الكلام بالطاعة وتقبل القضاء بالرضا وأجابه

والده قائلا (يا أبت افعــل ما تؤمر ستجدنى إنشاء الله من الصابرين) .

وأوثق ابراهيم يدى اسماعيل وأعصب عينيه وأمسك السكين ليذبحه فسمع نداء ربه أن يا ابراهيم قدصدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين . . وفدى الله اسماعيل بكبش هبط به ملك من السماء فذبحه إبراهيم فداء لابنه وحقنا لدمه وروى الأرزقى وهو من ثقاة المؤرخين القدامى ان قرنى هذا الكبش وجدا فى الكعبة — وقد أصبحت تلك الشعيرة سنة وموروثه إتبعها المسلمون فيذبحون كل عام فى صبيحة عيد الأضحى فدية لإسماعيل وإحياء لذكرى تضحية إبراهيم وشكراً لله على فضله ورحمته .

بناء الكعبة

وبعد مضى فترة غير قصيرة — أمر الله تعالى نبيه ابراهيم باقامة أول بيت للناس ببناء الكعبة المقدمة — فاستجاب لأمره وسافر لفوره الى مكة فلم يجد ابنه اسماعيل فأخذ يبحث عنه حتى عثر عليه جالسا بالقرب من بئر زمزم وقد أسند ظهره إلى جذع شجرة شامخة ويصنع لنفسه بعض السهام فلما رأى اسماعيل والده خف اليه فرحا واندفع اليه معانقاً ومقبلا وقال ابراهيم لابنه .

— يا اسماعيل ان الله أمرنى أن أبنى ها هنا بيتا له وأشار الى مكانه .

فقال اسماعيل .. يا أبتى اصنع ما أمرك به ربى وسأكون عونا لك فى بنائه بإذن الله .

وعندئذ رفعا القواعد من البيت وكان اسماعيل يأتى بالحجارة ويتولى إبراهيم بناءها وكلما أكمل ناحية إنتقل إلى أخرى — أو فرغ من جدار سار الى آخر — وفى أثناء البناء هبط من السماء الحجر الاسود وكأنه كوكب يتلألأ نوره فأتى به اسماعيل واستخدم فى البناء وهذا دليل على أنه كان ذا لون غير الأسود وأن كان بعض المؤرخين يعلل سواده بأنجاس الجاهلية وأرجاسها .

وقد ظهر حرص ابراهيم فى البناء وقصده ألا يكون البيت معبداً لله فحسب بل حسب حساب النذور التى تهدى الى البيت فحفر فى بطن البيت على يمين من دخله — حفرة لتكون خزانة له وهى الحفرة التى نصب عليها عمر بن لحى « هبل » الصنم الذى كانت تعبده قريش .

وكان ابراهيم واسماعيل يبتهلان الى الله أثنا بناء الكعبة قائلين « ربنا تقبل منا أنك أنت السميع العليم — ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت

التواب الرحيم — ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم » .

وقد كان عمر اسماعيل عند بناء الكعبة عشرين سنة . . ويرى المؤرخون ان الكعبة بنيت عشر مرات فقد بناها الملائكة في فجر التاريخ ثم بناها آدم أبو البشر ومن بعده بناها ابنه شيث وفى المرة الرابعة بناها بعد الطوفان ابراهيم الخليل وابنه اسماعيل من هاجر وبناها فى المرة الخامسة العمالقة وفى المرة السادسة بناء زعماء قبيلة جرهم — ثم بناها فى المرة السابعة قصى زعيم قبيلة قريش — وفى المرة الثامنة بناها كبار رجال قريش قبل البعث المحمدى سنة ٦٠٥ م وكان الرسول فى نحو الخامسة والعشرين من عمره واشترك معهم فى نقل الحجارة لبنائها .

وبناها فى المرة التاسعة عبد الله بن الزبير سنة ٦٨١ م وآخر من بناها الحجاج بن يوسف الثقفى سنة ٦٩٦ م

والكعبة بناء مربع من الحجر طولها أربعون قدما وعرضها خمس وثلاثون قدما وارتفاعها خمسون قدماً وفى ركنها الجنوبى الشرقى وعلى بعد خمس أقدام من سطح الأرض الحجر الأسود الذى يبلغ قطره ٧ بوصات . . وهى مقامه فى داخل بناء واسع هو المسجد الحرام .

ولم يكن ذلك البيت الكريم أو المعبد الطاهر مقدساً فى نظر قبيلة واحدة بل فى نظر جميع القبائل والعشائر وكانت هذه القداسة تتجلى كل عام فى سلسلة الحفلات والأعياد والموالد والأسواق التى كانت تقام حول مكة فى بطحائها وظواهرها — وفيها تمتزج المواسم الدينية ذات الشعائر بالتجارة لأن مكة كانت محط رجال القوافل بين جنوبى بلاد العرب والهند وأفريقيا وبين مصر والشام وفلسطين واليمن وكانوا يقومون بالشعائر الدينية حول الكعبة وحجرها الأسود ثم يقيمون احتفالاتهم وكان للادب عندهم جانب لا يضيعونه فطالما خطب الخطباء وأنشد الشعراء ونطق الحكماء فى تلك الأسواق التى كان أهمها سوق عكاظ .

مناسك الحج

وتلقى ابراهيم واسماعيل من الوحى « جبريل » مناسك الحج وهى الطواف سبعا حول الكعبة والسعى بين الصفا والمروة سبعا — والوقوف عند عرفه فى يوم عرفه والنزول إلى المزدلفة ورجم إبليس عند جمرة العقبة بمنى .

والكعبة أول بيت بنى لتوحيد الله كما جاء عنها فى القرآن الكريم . . إن أول بيت وضع للناس للذى بمكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على

الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين .

وروى أن ابراهيم لما أمر أن يؤذن فى الناس بالحج ليأتوه من كل فج عميق قال « يارب وماذا عسى أن يبلغ صوتى فيهم فأجابه تعالى « عليك أن تؤذن فيهم وعلى أن أبلغ صوتك من أشاء » وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق .

حوار بديع

ولإبراهيم الخليل حوار بديع مع ربه . . فقد سأله تعالى أن يريه كيف يحيى الموتى بعد موتهم فأجابه سبحانه . أولم تؤمن . . قال بلى ولكن ليطمئن قلبي « فتفضل عليه تعالى بتجربة الطير بأن يأخذ أربعة منها فيذبحها ويفرق أشلاءها على الجبال ثم يدعوها بإذنه فإنه سيجدها آتية إلية . . وفى هذا الحوار البديع تأكيد عظيم إلى منزلة العبد الصالح المخلص عند ربه .

الذرية الصالحة

ولما وفى إبراهيم ما أمره الله به من التكاليف جعله للناس اماما يقتدون به ويأتمرون بهديه فسأل ربه أن تكون هذه الإمامة متصلة

وباقية فى نسله وخالده فى عقبة فأجيب الى ما سأل كما جاء فى قوله تعالى « واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال انى جاعلك للناس أماماً قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين .

. . وسلمت اليه الإمامة واستثنى من نيلها الظالمين واختص بها من ذريته العلماء العاملين كما قال تعالى « ووهبنا له اسحق ويعقوب كلاهدينا ونوح وهدينا من قبل ». وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين واسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم .

من هو محمد

روى أن ابراهيم رأى فى منامه الجنة عرضها السموات والأرض وأشجارها لا اله الا الله وأغصانها محمد رسول الله وثمارها سبحان الله — فلما أصبح وحدث أهله وقومه عن رؤياه سألوه ومن يكون محمد هذا ؟ .

قال ابراهيم لا « أدرى » ثم ما لبث أن أوحى الله اليه بجبريل يبلغه أن محمدا هو حبيب الله وآخر أنبيائه ورسله وخير خلقه من ذريتك وأول شفيع للناس يوم القيامة وأمته أكرم الأمم .

وبعد البناء عاد ابراهيم الى فلسطين وقد اصطفاه ربه واتخذه خليلا واستجاب له بأن جعله فى ذريته النبوة والكتاب — وأقام فى الموضع الذى أقيم عليه بيت المقدس — وترك وراءه فى مكة اسماعيل وقد صار رجلا وخليفته فى إمامته وملته الحنيفة — ونبيا لجرهم والعمالقة .

وتزوج ابراهيم بعد وفاة زوجته سارة بابنه يقطن الكنعانية فانجبت له ستة من الأولاد الذكور مدين — زمران — سرح — قيشان — نشق ، وطفل مات دون ان يسمى ثم تزوج من بعدها بابنه حجون فولدت له خمسة أولاد هم كيسان — سورح — أميم — لوطا — نافس .

ومات إبراهيم بعد أن عمر ١٧٥ سنة واحتفل اسماعيل واسحاق وباقى اخوانهما بدفنه بجوار زوجته سارة فى مدينة حبرون بالقدس .

وعاش اسماعيل بعد ذلك عيشة هادئة مع زوجته الثانية دعله بنت مضاض بن عمر الجرهمى ورزق اثنا عشر ولداً . ومات بعد أن عمر ١٣٧ سنة ودفن بجوار أمه هاجر ببيت الله الحرام .

وولى من بعده ابنه الأكبر « عدنان » الذى انتشر العرب من نسل شقيقيه نابت وقيدار ومات عدنان فى حياة جده لأمه مضاض

بن عمر الذى قام بضم بنى عدنان ونابت وقيدار وبنى جرهم وكون منهم مملكة واحدة ونصب نفسه ملكا عليهم — ثم أخذت قبائل العرب تتحرك ببطء من ملة ابراهيم إلى عبادة الأوثان وإلى أصنام عمر بن لحى ثم إلى عقيدة التوحيد ودين الإسلام على يدى محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين .



تاريخ بنى إسرائيل

أعقبت وفاة ابراهيم الخليل فترة رهيبة من حياة الوثنية كثرت فيها الأحداث وعظمت الذنوب لترك الناس ماعهد الله اليهم ونسيانهم على مر الزمن ما بين الدين والأخلاق من صلات . فلم تكن الحياة الصالحة فى فهمهم هى السبيل إلى السعادة الدينية والأبدية ـ بل كانت السبيل اليها السحر والطقوس الوثنية واكرام الكهنة وارضاء الآلهة .

وأهم ما ينطبع فى ذهننا عن حياة هذا العصر هو مبين شعوبها المختلفة من وحدة نسبيه فى العقيدة الوثنية وانتشار سلطانها إلى حد أورث خليطا من الناس همجية مسلوبى العقول وخرافاتهم وتوهمهم فى آلهتهم ومعبوداتهم الحجرية والبشرية بأن لها قوة سحرية تنزل المطر من السماء وتدفع عنهم الأخطار وتقضى على الأشرار وتحمى الناس فى الليل والنهار .

وأصبح المجتمع الانسانى شديد الوثنية والشراسة الروحية وفى مسيس الحاجة الى أوامر جديدة من عند الله ورسول يواصل الدعوة

ويقاوم الى الغرائز الكامنة فى النفوس ويقضى على العنف البشرى والاختلاط الجنسي الطليق والشره الماديِ ويبني قواعد النظام الأخلاقى والاجتماعى وينشر دين الله الذى يسمو بالعامن عن عواطفهم الثائرة ويخلع على الحياة بهجة العيش والاطمئنان .

واستجاب الله لدعاء القلوب الصالحة المؤمنة وبعث كلا من اسماعيل واسحاق نبياً ورسولا .

ولبث اسحق فى قومه وهم سكان الأردن وفلسطين والشام ولبنان وغزة مدة ثمانين عاما يهديهم إلى دين الله وينهاهم عن الشرك والشيطان حتى كف بصره واقعدته الشيخوخة .

وكان اسحق قد تزوج فى حياة أبيه ابراهيم الخليل برفقة ابنة عمه تيوائيل فولدت له على الكبير غلامين توأمين أولهما سموه عيصو وهو الذى انحدر من سلالته شعب الرومان وأعقبه الثانى فسمى يعقوب وهو إسرائيل والد الأسباط . . وكان اسحق يدلل ابنه عيصو ويخصه بأكبر قسط من رعايته لأنه الأكبر وكذلك كان يعقوب أحب التوأمين إلى أمه . . ولما بلغ يعقوب واشتد عوده كلفته أمه أن يقوم برحلة الى العراق لزيارة أخيها لابان بن تيوائيل عسى أن يزوجه احدى بناته ــ وودع يعقوب أهله وبدأ رحلته مخترقا صحراء سوريا

الى أرض العراق وكان يسير الليل وينام النهار - وعند بداية الطريق غلبه النعاس فنام في ظل صخرة كبيرة فشاهد في المنام معراجا قد نصب من السماء الى الأرض والملائكة يصعدون فيه ويتنزلون وهم يسبحون بحمد ربهم واذا بجبريل الوحي الكريم يهبط عليه ويبلغه ان الله سيبارك له وذريته ويجعل هذه الأرض - لعقبة - فلما أفاق من نومه فرح بما رآه ونذر لله أن يبنى فى هذا المكان بيتا لله عند عودته من رحلته وأن يتصدق له بعشر ما يناله من الرزق .

وأتم يعقوب رحلته إلى بلاد خاله وموطن جده ابراهيم عليه السلام ومهد نبوته ورسالته الحنيفية وتزوج بابنتى خاله « ليا » الكبرى و « راحيل » الصغرى لأن زواج الاختين فى ذلك الوقت كان مباحا فى شريعتهم - ومكث فى خدمة خاله مدة عشرين سنة كصداق لإبنتيه وكان لزوجته ليا جارية اسمها زلفى ولزوجته راحيل جارية مماثلة اسمها بلها - فوهبت كل منهن جاريتها له فرزق من ليا ستة أولاد ذكورهم (روبير - شمعون - لادى - يهوذا - ايساخر - زفلون - وبنتاً واحدة سمتها دينا ومن جاريتها زلفى بغلامين هما (جاد - أشير .

أما زوجته الثانية راحيل وقد كانت أشدهن حسنا وجمالا فقد

استجاب الله لدعائها لأنها أبطأت فى الحمل فولدت غلاماً جميل الوجه سمته يوسف فاشتد به فرح يعقوب وآثره على اخوته .

وأوحى الله إلى يعقوب بالعودة إلى بلاده وقومه ومعه أهله وبنيه ـ فلما دنا من موطنه ظهر له قبيل الفجر ملك كريم فى صورة بشر وسأله عن اسمه قال (يعقوب فقال له الملك) إن أرادت الله قضت إلا أن تدعى اسرائيل منذ اليوم لأنك أول من سار من بنى الإنسان فى الليل ! !

ولما مر يعقوب على أورشليم اشترى بها مزرعة وابتنى عليها بيت المقدس وفاء لنذره وقدد جدد هذا البيت نبى الله داود وأعاد بناءه ابنه سليمان .

وفى القدس حملت راحيل أم يوسف بولدها الثانى بنيامين وبذلك صار ليعقوب من البنين اثنا عشر ولدا وهم الأسباط أو بنو اسرائيل .

وورث يعقوب النبوة من والده اسحق ـ وبعثه الله إلى قومه من بنى كنعان أو العماليق المعروفين فى التاريخ باسم الهكسوس ـ وكانوا جبابرة طغاة قساة القلوب ـ يحبون الحروب والمنازعات طمعاً فى الجاه والسلطان وحباً فى السيطرة على الشعوب واستعبادها وقد شمل

نفوذهم مصر فأخضعوها لحكمهم سنة ١٨٧٠ ق . م، وفرضوا على أهلها الجزية الباهظة حتى عام ١٥٨٠ ق.م. وهو عصر قيام الامبراطورية المصرية على يد تحتمس الأول .

وقال يوسف لأبيه يوماً ـ وكان ما زال فى ميعة الصبا ـ يا أبت انى رأيت احد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين » فبشره أبوه بأنه سينال منزلة عالية وحذره أن يقص رؤياه على اخوته فيكيدوا له كيداً لأن الله قد اصطفاه لمواصلة رسالة الدين وهدى الناس إلى ملة أجداده ابراهيم ونوح وآدم .

وكان يعقوب شديد العطف على يوسف وبنيامين فأثار ذلك حقد سائر أولاده واتفاقهم على التخلص من يوسف الذى استحوذ على قلب أبيهم ـ فاقترح كبيرهم وهو يهوذا بأن يلقوه فى الجب فيلتقطه قوافل المسافرين ودخلوا على أبيهم وألحوا فى أن يرسله معهم ليرتع ويلعب ـ فاعتذر الأب فى بادىء الأمر قائلا « انى أخاف أن يأكله الذئب منكم وأنتم عنه غافلون فى رعاية ماشيتكم» ثم وافق على طلبهم تحت تأثير الحاحهم — فما كادوا يخرجون بيوسف إلى المرعى حتى أوثقوه وألقوه فى جب به ماء بعد أن نزعوا عنه قميصه وعادوا به إلى أبيهم فى المساء وهم يبكون وقالوا إنا ذهبنا نستبق

وتركنا يوسف فأكله الذئب وقدموا له قميصه وعليه دم كذب — ولكن آباهم لم تدخل عليه الحيلة لأنه يعلم عداوتهم وكيدهم له ولكنه سلم أمره لله .

وتصادف أن مر بالجب قوم مسافرون إلى مصر ومعهم تجارتهم وكانت قافلتهم مؤلفة من عشرين رجلا فارسلوا أحدهم ليستقى من البئر فلما أدلى دلوه تعلق فيه يوسف وأخرجوه وفرحوا به وأسروه بضاعة من جملة متجرهم وهم لا يعلمون ما لله فى ذلك من الحكمة البالغة والقدر السابق فى علمه والرحمة بأهل مصر بما يفعله الله على يديه .

ولما شعر أخوة يوسف بذلك لاحقوهم وطالبوهم به قائلين هذا غلامنا ثم ساوموهم عليه وباعوه لهم بعشرين قرشاً اقتسموها درهمين لكل منهم وكانوا فيه من الزاهدين ! !

ولما وصلت القافلة إلى مصر باعوه بمبلغ عشرين ديناراً إلى العزيز وزير المالية المصرية فى حكومة الريان بن الوليد ثانى حكام مصر من العماليق وكان ذلك فى عام ١٨٥٠ ق. م. وكانت الحياة فى مصر مملوءة بالسحر والطلاسم وعبادة الأوثان — وكان لكل يوم عندهم فضائل وأخطار مرتبطة بحوادث المعبودات من نصر وقهر وسعادة

وشقاء. مثال ذلك أن الأطفال الذين يولدون فى اليوم الثالث والعشرين من كل شهر توت سيموتون لا محالة وهم صغار ومن كانت ولادته فى تسع من بابه عاش إلى أرزل العمر ومن عبر النيل يوم ٢١ بؤونة أكله التمساح — بل كانوا يعينون ما سوف يقع لكل شخص منهم فى حياته حسب اليوم الذى ولد فيه فيعرفون كيف يموت وماذا سيكون له فى مستقبل أيامه ! !

وقال الذى اشتراه لأمرأته اكرمى مأواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وحذرها أن تعامله معاملة الخدم أو العبيد وكان هذا من فضل الله واحسانه إليه بما يريد أن يؤهله له قال تعالى « وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله أنه ربى أحسن مثواى انه لا يفلح الظالمون .

يذكر الله تعالى ما كان من مراودة امرأة العزيز ليوسف عن نفسة وطلبها منه الفحشاء وكيف غلقت الأبواب عليها وعليه وتهيأت له بأحسن ثيابها وأفخرها وهى الشابة الحسناء التى تفيض حسناً وجمالا — ولكن الله عصمه عن الفحشاء وحماه من مكر النساء لأنة أحد السبعة الأتقياء المذكورين فى الصحيحين عن الرسول فى قوله « سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله — إمام عادل — ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه — ورجل معلق قلبة بالمسجد إذا خرج منة حتى يعود

ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه — ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه — وشاب نشأ فى عبادة الله — ورجل دعته أمرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله .

وفر منها يوسف إلى الباب فاتبعته فى أثره وأمسكت بقميصه فقد من خلف وهو يحاول الأفلات منها وفى هذه اللحظة فاجاءها العزيز فلما رأته أصابها الارتباك وأسرعت بالشكوى إليه قائلة ما جزاء من أراد باهلك السوء إلا أن يسجن أو يجلد فاضطر يوسف إلى دفع التهمة عن نفسه قائلا « هى التى راودتنى عن نفسى فأبيت . . وشهد طفل رضيع من أهلها انطقه الله إن كان قميصه شق من الأمام فصدقت وهو من الكاذبين وأن قميصه شق من خلف فكذبت وهو من الصادقين — فلما رأى أن قميصه شق من الخلف اتضح له كذب زوجته وخيانتها ثم اضرب صفحا عن هذا وأمرها بالإستغفار لذنبها الذى صدر منها ورجا يوسف كتمان ما حدث وعدم ذكره خوفا من الفضيحة — ولكن الحادث شاعت فى المدينة وأصبحت حديث الناس فى المجالس وندد بها نساء الأمراء وبنات الكبراء وقلن أمرأة العزيز هامت حبا بغلامها العبرانى ولكنه احتقرها

وعزف عنها فلما علمت بمكرهن ـ دبرت الكيد لهن فدعتهن إلى وليمة فاخرة فى قصرها وعندما قدمت لهن الفاكهة أمرت يوسف أن يخرج عليهن فلما شاهدنه شابا جميل المحيا حلو الملامح ذهلن لفرط حسنه وراحت أيديهن تعبث بسكاكين الفاكهة فجرحن أيديهن دون شعور أو إدراك وصحن قائلين « حاشا لله ما هذا إلا ملاك كريم » فقالت لهن هذا هو يوسف الذى لمتوننى عليه فإذا كنتن قد قطعتن أيديكن لمجرد رؤيته مرة واحدة فماذا أملك لنفسى وقد تأجج نار حبه قويا فى صدرى وصارحتهن بأنها راودته عن نفسه فرفض ولئن لم يفعل ما آمره به فسيكون مصيره السجن ! !

وحرضن النساء يوسف على تلبية أوامر سيدته خوفا من السجن أو العذاب فأبى أشد الأباء وتوجه إلى ربه قائلا « رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه » فاستجاب له ربه ليصرف عنه كيدهن .

ودخل يوسف السجن بتهمة افتضاح امرأة العزيز ـ وعاش بين المجرمين ـ رضى النفس بحكم الله ورأى أنه من الخير أن يدعوهم إلى الخير والصلاح علّه يطهر إنسانيتهم من إدرانها ويحولهم إلى

مواطنين صالحين - فاحبه المسجونون واطمأنت نفوسهم إليه والتفوا حواليه .

وأكرم الله يوسف فأوحى إليه بالنبوة وأمره أن يواصل رسالة الدين والإيمان بالله وتوحيده بين المسجونين فبينما كان يتهيأ لدعوته جاءه طاهى الملك وساقيه ليفسر لكل منهما رؤياه وكانا قد دخلا السجن مع يوسف بتهمة التآمر على حياة الملك وتسميمه فى طعامه تنفيذا لخطة وضعها الكهنة وكبار المصريين للتخلص من حكم الهكسوس لهم !!

قال الساقى . . رأيت أنى فى حديقة نضرة مملوءة بأشجار العنب فقطفت بعض العناقيد وعصرتها فى كأس الملك ثم قدمتها إليه فشربها .

وقال الطاهى . . أرانى أنى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطيران منه . . نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين .

ولاحت ليوسف فرصة الدعوة وإبلاغ رسالة الإيمان إلى جميع المساجين الذين احتشدوا لسماع التفسير - لأن المساجين كانوا يحتفظون معهم بأصنام صغيرة لعبادتها فأخذ يشرح لهم رسالة الدين وفضائل

الإيمان بالله خالق كل شيء في السموات والأرض ـ وبطلان عبادتهم لآلهتهم وأصنامهم الحجرية ـ حتى جعلهم يتسابقون إلى تحطيمها . .
ثم انتقل إلى تفسير الرؤيا فبشر الساقي بالعفو عنه وعودته إلى سابق خدمته ساقيا للملك كما كان وطلب إليه أن يذكره عند الملك بأنه سجن بغير جريمة ارتكبها ثم قال للطاهي . . « أما أنت فسينفذ فيك حكم الأعدام صلبا وتترك حتى تأكل الطير من رأسك » ! !

ـ وصح تأويل يوسف فصلب الطاهي ونجا الساقي وعاد إلى خدمة الملك ولكنه نسي أن يبلغ الملك برسال يوسف .

وبعد مضي سنين رأى الملك رؤيا افزعته فدعا إليه بالمفسرين والعلماء والكهنة ولكن لم يتمكن واحد منهم من تفسيرها بل واجمعوا على أنها من أضغاث الأحلام ـ وشاءت إرادة الله فتذكر الساقي يوسف وشرح قضيته للملك فأرسله إلى يوسف في السجن ليأتي له بتفسير حلمه . . . وقال الساقي ليوسف أن الملك رأى «سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف مهازيل ـ وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات) ـ فما هو تأويل ذلك ؟

قال يوسف . . ستقبل عليكم سبع سنوات رخاء تزدهر فيها غلاتكم ويصفو لكم العيش وتطيب الحياة ـ ثم تأتي في أعقابها

سبع سنوات شداد تجدب فيها أرضكم وتصابون بقحط شامل فادخروا من حصاد غلاتكم فى سنى الخصب ما يكفى مؤنتكم فى سنى الجدب . . ثم تصالحكم الأيام ويأتيكم بعد ذلك عام يفيض فيه النيل فتجود عليكم الأرض باطيب الثمرات وفيه تعصرون الأقصاب والزيتون والسمسم وتعيشون فى رفاهية ! ! .

وأعجب الملك بالتفسير واستبشر به ورأى فيه خيراً على أمته وبلاده وأمر بالإفراج عن يوسف مكافأة له ولكن يوسف رفض أن يكون خروجه من سجنه بهذه الطريقة واصر على أظهار براءته وأن يتولى الملك التحقيق مع أمرأة العزيز والنسوة اللائى قطعن أيديهن فوافق الملك على ذلك واعترفت له أمرأة العزيز بأنها ظلمت يوسف وادخلته السجن وقالت « الآن ظهر الحق وأنا التى دعوته إلى نفس فأبى وامتنع - وقالت النسوة حاشا الله ما علمنا عليه من سوء وما عرفنا فيه إلا فتى عفيفا كريما .

أثارت هذه الصفات النبيلة رغبة صادقة عند الملك فى أن يقربه إليه ويتعرف عليه فقال لرجال حاشيته « ائتونى به استخلصه لنفسى وأجعله من المستشارين . . فلما مثل يوسف بين يديه وحادثه ألفاه حصيفا وحكيما وسألة . . لقد بلغنى أنك كنت تدعو المسجونين إلى

عقيدة جديدة وعبادة إله غيرى .. فما ربك الذى تعبدة ومن أى شيء .. هو ؟ هل من الذهب أم من الفضة فضحك يوسف قائلا « إن إلهى هو الله رب العالمين » .

وقام الملك متسائلا ـ ومن هو الله واين هو ؟

قال يوسف ـ أنظر إلى هذه السماء كيف صنعت ورفعت وزينت بالكواكب وإلى الأرض وما عليها من نعم وأنعام ـ فهل تستطيع أن تأتى بخلق مثلها فأجابه الملك بالنفى فعاود يوسف الكلام قائلا . فإذا كنت أيها الملك العظيم عاجزاً عن خلق شيء منها فكيف تعبدك من دون الله صاحب هذه القدرة العظيمة الذى فى السماء عرشه وفى الأرض سلطانه وحكمه وليس كمثله شيء وهو السميع العليم .. فصمت الملك برهة وذهب فى تفكيره العميق وهو واضع رأسه بين يديه الغليظتين وقد بدت عليه دلائل التأثر والاقتناع ثم عاد إلى استئناف كلامه مع يوسف قائلا .. أنى أشعر باقتناع كبير مما قلته ولكنى أريد أن اقف على الأسباب التى جعلت الناس ينصرفون إلى تقديس غير ذات الله ؟

قال له يوسف .. أن مرد ذلك إلى ما أصاب العقل حين تملكته الأوهام وسيطرت عليه الأباطيل والخرافات وأخذت تقوده

إلى مهاوى الشر والنزوات وتصرفه عن الواجبات الإنسانية والدينية التي يراقب بها ربه ويقى بها نفسه ومن الغدر والخديعة والمنكر ويتطهر من غرائز النفس التى تفسد على المجتمع حياته ـ مما أظلم الحياة أمامه وباعد بينها وبين فضائل الإيمان ومكارم الأخلاق وعندئذ ضل الإنسان وشقى وعبد أوهاما وأصناما وأحجارا وحيوانا وأصبحت الحياة كريهة المذاق فى أفواه الأحياء .. ومضت الإنسانية لاهثة لاتهدأ ! !

فسر الملك به وأعجبه منطقه وتذكر أمانته وحسن سيرته فى السجن وقوة إدراكه وتقديره للأمور وفهمه للحياة ثم ما كان من شدة حرصه على إظهار شرفه وكرامته فقال له . يا يوسف إن حديثك أنزل على السكينة وغمر قلبى بالطمأنينة وشيع فيه الرضى والأمن وروح الإيمان فاشهد أنى آمنت بربك وأسلمت له مع قومى.. ثم خلع خاتمه وأهداه له مع قلادة ثمينة مرصعة وسأله أى المناصب يختارها لنفسه . . فاختار يوسف أن يكون مسئولا عن خزائن الأرض وزراعتها ليتمكن من مواجهة سنى القحط بالعمل على تحسين الزراعة وتوفير الرخاء وتنمية العمران .. وعين يوسف وزيراً للتموين والزراعة ولم يبلغ الثلاثين من عمره وذلك مصداقا لقوله تعالى « وكذلك مكنا

ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين) .

وأشرف يوسف على زراعة الأرض كلها وأخلص في تدبير شئون الحياة لأهل مصر وعنى بتوفير المعيشة لهم وبنى الصوامع الضخمة وخزن فيها الغلال والحبوب فلما انقضت سنوات الخصب السبع وحلت سنوات القحط وشمل الجدب والبلاء كافة البلاد والأقطار ومنها أرض كنعان موطن يوسف وأبيه وأجداده ، ووضع يوسف نظاماً لبيع الفائض عن مصر من مخزون الطعام والحبوب بمنتجات الدول المحتاجة . فاتجهت الأنظار إلى مصر وما تعيش فيه من بحبوحة الرفاهية الاقتصادية والرغد المعيشى رغم المجاعة الشديدة التي اجتاحت العالم وجاءت إلى مصر وفود من مختلف الدول لشراء الغذاء .

وأمر نبي الله يعقوب أولاده أن يشدوا الرحال إلى مصر ويأخذوا معهم من السلع ومنتجاتهم ما يكفيهم ثمناً لما يحتاجونه من غذاء وحبوب مصرية لمواجهة المجاعة التي أوشكت أن تفتك بهم .

وواصل أخوة يوسف إلى مصر ودخلوها ليلا وكانوا عشرة لتخلف أصغرهم وهو بنيامين شقيق يوسف — فلما أصبحوا ذهبوا إلى يوسف لأنه الوزير المسئول — فعرفهم وهم لم يعرفوه لأنه لم يدر

بخلدهم أنه قد يصل إلى هذه المكانة والصدارة ... وكان يوسف قد تجاوز الأربعين من عمره وتزوج احدى المصريات وهي (أسنات) ابنة (بدروع) رئيس كهنة معبد هيلوبوليس ورزق منها بولدين اسمى الأول (منسيا) تذكرة بأن الله قد أنساه كل مشقة في فراق والده وأهله — وسمى الثاني «أفرايم» تيمنا بفضل الله عليه ورفعة شأنه في أرض مصر.

وكانت مدينة هليوبوليس مركزاً للحكومة في ذلك العصر وفيها أكبر الجامعات العلمية في العالم ومنها انبثق نور الحضارة والتمدين الفكري فاستنار به سكان الأرض قاطبة وقد أسس فيها يوسف والريان بن الوليد مدارس عليا لتدريس أصول الدين وتثقيف العقول وتهذيب الأخلاق على أيدي كهنة المعابد.

* وعاد أخوة يوسف إلى أبيهم وحدثوه عن رحلتهم إلى مصر وما لاقوه من كرم ضيافة وزير التموين عندما علم أنهم أولاد نبي الله يعقوب وقصوا عليه انهم وجدوا أهل مصر وملكهم وحكومتهم متعبدين بشريعة جدهم ابراهيم حنفاء مخلصين لملته .. وأن وزير التموين قرر حرمانهم من شراء الحبوب في الفترة المقبلة إلا إذا كان بصحبتهم بنيامين — فاضطر يعقوب إلى إرساله معهم

ووصاهم أن يدخلوا مصر من أبوابها المتفرقة الاربعة حتى لا يصابون بحسد العين لأنهم كانوا ذوى جمال وهيبة .

فلما رآهم يوسف ومعهم شقيقه بنيامين بالغ فى تكريمه وأمر بإعداد سماط لهم وأوصى باجلاس كل اثنين منهم على مائدة — فبقى بنيامين وحده وسمعه يوسف يبكى ويقول لو كان أخى يوسف حياً لجلس معى فتقدم إليه وقال له . . لا تحزن أنا لك بمنزلة يوسف ثم أكل معه .

وقبيل رحيلهم أمر يوسف رجاله بإعطاء أخوته حاجتهم من الحبوب وهمس إلى أحدهم بدس الكأس التى يشرب فيها الملك وكانت من الذهب الخالص المرصع فى وعاء أخيه بنيامين ولما تجهزوا للعودة فاجأهم بسرقة الكأس وقالوا ما جزاء من وجدت معه ؟ قالوا يؤخذ عبداً للملك وأظهر التفتيش وجودها فى وعاء بنيامين ورفض يوسف كل رجاء للعفو عنه ولو بحجز أحدهم وعادوا إلى أبيهم بدونه فلما قصوا عليه ما حدث قال يعقوب كيف أصدق أن يقدم بنيامين على السرقة وهو سليل بيت النبوة — وفوض أمره إلى ربه وابتهل إليه أن يلهمه الصبر واستسلم للبكاء والحزن حتى ابيضت عيناه وفقد بصره .

وألهم الله قلب يعقوب فأمر وأولاده أن يعودا إلى مصر لمواصلة البحث عن يوسف وأخيه ولا ييأسوا من رحمة الله .. فلما وصلوا إلى مصر ذهبوا إلى يوسف واستعطفوه أن يتصدق عليهم باطلاق سراح بنيامين فقال يوسف .. هل تتذكرون ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ فرقتم بينهما وألهبتم صدريهما بنار الفراق .

قالوا .. أئنك لأنت يوسف ؟ قال أنا يوسف .. وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين .. فاحمرت وجوههم من الخجل وأجابوه وهم منكسوا الرؤس .. يا يوسف إننا نعتذر إليك والحمد لله الذي آثرك علينا .. فصفح عنهم وقال لهم اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين ..

وشد يعقوب رحاله إلى مصر بعد أن قرت عينيه بالبشرى وارتد بصيراً — ومعه أهله أجمعين وكان عددهم نحو السبعين نفسا فلما وصلوا إلى مصر وجدوا أن يوسف قد نظم احتفالاً كبيراً لاستقبالهم فاصطفت الجند والتجار بملابسهم الملونة التي تختلف أطوالها باختلاف رتب لابسيها وحولهم جمهور كبير من رجال عراة إلى نصف أبدانهم ورجال الشرطة في طوابير عسكرية وبأيديهم عصى طويلة

مكتوب على رؤسها المعدنية اسم الملك ويتقدم الجميع كبار الكهنة وقد ارتدوا حللهم البيضاء الطويلة ولفوا حول رؤسهم أشرطة بيضاء جميلة ومن خلفهم القضاة تتميزهم ريشة نعام طويلة تخفق فوق قلنسواتهم وساروا فى طريق إلى قصر يوسف يحاذى نهر النيل ويخترق المزارع والحقول ويمر وسط حدائق الفاكهة وأشجار النخيل يزينها البلح الأحمر فتبدوا فى حلة ياقوتية جميلة وكانت الشمس تسطع وتبعث أشعة الضوء والحرارة قوية مع أن الشتاء كان قد حل — ويمتعون النظر برؤية الزوارق والسفن الشراعية وهى تروح وتأتى فى النيل محملة بالحاصلات الغذائية والركاب .

.. ولما رأوا يوسف سجدوا له معظمين — وقال يوسف لأبيه « يا أبت » هذا تفسير رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا . ثم رفع يديه إلى السماء قائلا « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين » .

وعاش اسرائيل وبنوه وأهله فى مصر فأثروا وكثر عددهم وتقلدوا أرفع المناصب وانتشروا يجوبون البلاد لهداية الناس والدعوة إلى دين الله وتوحيده تعالى . . ومات اسرائيل بعد مضى ١٧ سنة

وعندما حضرته الوفاة جمع الأسباط وسألهم «ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد آلهك وإله آبائك . إبراهيم واسماعيل واسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون «وأمر يوسف بتحنيطه على الطريقة المصرية واحتفل بدفنه بجوار جده إسحاق بمدينة القدس تنفيذاً لوصيته .

وخلال فترة حياة يوسف فى مصر ـ اختفى ما فى الأدب المصرى من تباين ونزعات الحادية وحزفت من لغة الكلام تدريجياً وتقدمت الفنون وازدهرت العلوم وعكف المؤلفون على الكتابة بلغة الأدب الحديث وهم يصفون الحياة الجديدة ويسخرون من خرافات القديم ـ وامتلأت الكتب بعبارات التقى والورع ونصائح الدين التى تحض على حسن الخلق ـ حتى أغانى الحب والحرب كانت كلها تفيض بالعواطف الوطنية .

ويلوح أن علماء الطبيعة والكيمياء وراصدى النجوم أنشأوا فى هذا العصر التقويم الذى أصبح فيما بعد من أعظم ما أورثه المصريون بنى الإنسان وقد بدأوه بتقسيم السنة إلى ثلاثة فصول فى كل واحد منها أربعة شهور أولها فصل إرتفاع النيل وفيضه وانحصاره وثانيها فصل الزرع وثالثها فصل الحصاد وكانت عدة كل شهر من شهورهم ثلاثين يوماً واختاروا لبدء السنة اليوم الذى يصل فيه النيل إلى أقصى إرتفاعه .

وفى عهده تقدم المصريون فى الطب والجراحة مما أتاح لهم فرصا جديدة فى فن التحنيط وتوصل الأطباء إلى عدة وافية من دساتير الأدوية لمقاومة الأوبئة والأمراض كلها ـ واخترع المحراث الذى ساعد فى انماء مقادير الغذاء ومنتجات الثروة الزراعية مما تطلب زيادة مساحة الأرض المنزرعة وإلى وضع نظام جديد للرى يفى بحاجة الحقول الكثيرة التى انتشرت فى أكثر أرجاء البلاد .

* * *

ومرت على مصر ـ بعد وفاة يوسف أحقاب طويلة تبلغ نحو ٥٥٠ سنة فى ظلم حكم وثنى وسيطرة فراعنة عتاه خلفوا من ورائهم آثارهم لتروى للناس ما تفردوا به من عبقرية وفن فى الحروب والبناء وتدبير الملك ولكن واحداً منهم لم يبلغ منزلة وصداره أخناتون زعيم التوحيد .

وأخناتون هذا هو أمنحتب الرابع الذى خلف والده أمنحتب الثالث أعظم الأباطرة المصريين حباً للترف والفخامة واللذات ـ فى الحكم عام ١٩٧٦ ق م ولم يتجاوز الخامسة عشر من عمره ـ وقد كان والده معبوداً هو وأمه ـ ولكنه إستطاع أن يسجل اسمه بين المفكرين الأحرار الداعيين إلى التوحيد والتحرر من الخرافات

والشعوذ وكانت شجاعتة سبباً فى تحويل عقائد الناس إلى التفكير الطبيعى الحر وإلى عبادة إله السموات خالق الكائنات والأشياء لا شريك له الفاعل المختار لكل شىء ويعلم ما تكنه الضمائر وما تخفيه الصدور .

وكان هذا الملك الشاب مثالا للطهر والأمانة فلم يرضه هذا العهر المقدس ولا الرائحة النتنة من دم الضحية التى كانت تقدم قرباً للآلهة ـ فقد رأى فى معبد الكرنك طائفة كبيرة من النساء الجميلات يتخذن سرارى الآلهة فى الظاهر وهن فى الحقيقة للترفيه عن الكهنة لذلك أمر بإغلاق المعابد وطرد الكهنة لأنهم كانوا حجر عثرة ضد دينه ودعوته الروحية بعد أن عجزت عقولهم عن فهمه حتى لا يتمكنوا من الضغط على أفكار الشعب باسم الدين لنشر الفساد السياسى ـ وبذلك إستطاع أن يحمل الناس على نسيان الماضى .

ويظهر من تمثاله النصفى الذى عثر عليه فى آثار تل العمارنة فى الصعيد أنه كان شخصاً نحيف الجسم إلى حد لا يكاد يصدقه العقل ـ ذا وجه نسائى فى رقته وفى طول أهدابه وعيونه الحالمة الجميلة . . وكان يكره المراسم التى يفرضها عليه سلطان الملك « بروتوكول القصر » لأنه يرى نفسه كسائر الناس من حقه أن يعيش مثلهم فى بساطة وكانت

زوجته وهى أخته نفرتيتى الجميلة المشهورة لا تشجعه على هذه المعيشة البعيدة عن مظاهر الترف ونعيم الدنيا والحياة ـ وقد كان زواج الأخ من أخته مباحاً فى شريعتهم ثم جاءت تعاليم التوراة والمسيحية وأعقبتها تعاليم الإسلام بحرمة هذا النوع من الزواج واستبدل بالشقيق أبناء العمومة والأقارب .

وأعلن فى شجاعة أن آلهة المعابد وجميع ما فى دينها من احتفالات وطقوس كلها وثنية منحطة وأن الكهان طائفة مرتزقة وأن ليس للعالم إلا إله واحد لا يحب الوساطة إليه .. وألف أغانى جميلة حماسية فى مدح آلهته منها قوله : ـ

ـــ إلاهى ـ انك فى قلبى

وما من أحد يعرفك

الا ابنك أخناتون

لقد جعلته حكيماً

بتدبيرك وقوتك

ان العالم فى يديك

بالصورة التى خلقتها

فاذا أشرقت دبت فيه الحياة

وإذا غربت مات

والناس يستمدون منك الحياة

ما دامت عيونهم تتطلع إلى سناك

* * *

أنت أوجدت العالم

وأقمت كل ما فيه

الباقي المزدهر أبد الآبدين » .

وفى هذه القصيدة تظهر بلاغة عقيدته وشدة إيمانه ـ فقد آمن بأن إلهه خلق الكون ـ بإرادته وسوى الحياة على مختلف صورها لتسبح بحمده وتثبت وجوده وليس مافى الوجود إلا رمزاً لقدرته

ومن مآسى التاريخ أن أخناتون بعد أن حقق حلمه العظيم فى الوحدانية فلم يكد يتم الثلاثين من عمره حتى توفى وذلك فى عام ١٣٦٣ ق م .

وبعد وفاته بنحو عامين جلس على عرشه توت عنخ آمون زوج ابنته لأنه لم ينجب ولداً . . وما لبث أن أعاد إلى الشعب عبادته القديمة

وأزال من جميع الآثار كلمة (أخناتون) وحرم على الشعب النطق بها واستطاع الكهنة أن يجبروه على ترك تل العمارنة والعودة إلى طيبة واعادة أيام البهجة والأعياد الدينية المرحة والطقوس الوثنية التي كانت شائعة فى عبادة الآلهة المصرية وهكذا عادت مصر إلى الوثنية من جديد واختفت ديانة أخناتون .

موسى وفرعون

وفى عام ١٢٩٢ ق . م . ارتقى عرش مصر رمسيس الثانى صاحب الشخصية الروائية العجيبة وأحد الفراعنة العظام الذى قلما عرف التاريخ ملكا أبهى منه منظراً فقد كان وسيما شجاعا وكانت حياته حافلة بالعظمة والنعيم الدنيوى ـ وهو بعينه فرعون موسى عليه السلام الذى ورد ذكره فى سفر الخروج والقرآن الكريم ـ وكان جباراً عنيداً أدعى الألوهية وأرغم شعبه على عبادته وتقديسه .

وقد تولى رمسيس الحكم خلفا لوالده سيتى الأولى الذى استمرت فترة حكمه إلى ثمانين سنة وفى أيام حكم رمسيس التى بلغت ٦٧ سنة تدفقت الأموال الطائلة على مصر آتية من بلاد آسيا التى استولى عليها واخضعها لسلطانه فساعدت على إيجاد عهد يمتاز بالفخامة والقوة

لم تعرف الدنيا شبيها له وواضح أثر ذلك فيما تركه من مبان فخمة رحبة فى معبد الكرنك وخاصة القاعة الكبرى المعروفة باسم بهو الأعمدة الذى يعد أعظم ما أقامه الإنسان إذ يبلغ طولها ٣٣٨ قدما وعرضها ١٧٠ قدما وعدد أعمدتها ١٣٤ مرتبة فى ١٦ صفا يبلغ ارتفاع الواحد منها ٧٩ قدما وكل شىء فيها دقيق الصنع ملونا بألوان زاهية جذابة — وكانت أغلب أجزاء هذه المبانى مغطاة بصفائح من الذهب والفضة تذهل الأبصار بضيائها عندما تنعكس صورتها فى مياه بحيرة المعبد .

وقد جمع هذا الرجل الذى يقوم تمثاله فى ميدان محطة القاهرة المتناقضات على نحو لا نكاد نجده عند غيره من مشاهير عصره فقد كان طويل القامة مغامرا إلى حد غير عادى مترفا يميل إلى كل ماهو رقيق جميل — قاسيا على خصومه لا يعرف الرحمة وإذا غضب لا يعرف لإنتقامه حد — وأغرب ناحية فيه أسرافه فى الزواج فإن زوجاته يزدن على العشرين وعاش أكثر من تسعين سنة أنجب خلالها ١١١ ولدا ، و٥١ بنتا .

وكان رمسيس أشد الفراعنة كراهية وأقساهم على بنى إسرائيل — أذلهم وسامهم سوء العذاب وفرض عليهم الضرائب الباهظة وحرم

عليهم الأشتغال فى الوظائف العامة والتجارة وخصصهم للأعمال الشاقة كقطع الأحجار من الجبال لبناء القصور والمعابد وكلفهم باصلاح الأراضى الزراعية وحفر الترع وتطهيرها ونظافة الطرق .

ومما زاد فى مقته لهم أنه رأى فى منامه أن ناراً أقبلت عليه من بيت المقدس فأهلكت شعب مصر وقضت على ملكه ولكنها لم تمس شعب بنى إسرائيل أو ممتلكاتهم بأدنى سوء ـ فدعا كهنته والسحرة والمفسرين فقالوا له . . يولد فى بنى إسرائيل غلام يسلبك الملك ويغلبك على سلطانك ويخرجك وقومك من أرضك ويبدل دينك ـ وقد أظلك زمانه الذى يولد فيه . . فأمر رمسيس بذبح جميع المواليد من الأطفال الذكور فى بنى إسرائيل حتى أوشكوا على الانقراض ـ فجاءه نفر من علية المصريين وشكوا إليه خشيتهم من فناء بنى إسرائيل لقتله أطفالهم وانقضاء أجل شيوخهم فيتعطل دولاب العمل فى المزارع والمعابد. ويصبح ذلك من نصيب المصريين فأمر فرعون بتعديل قرار ذبح الأطفال اليهود سنة وتركهم سنة فلما كانت السنة الممنوع فيها الذبح رزق عمران بن قاهث من سبط لأوى ابن إسرائيل بولده هارون من زوجته يوكابد من سبط لأوى . . ثم رزق بإبنه الثانى موسى فى العام المقرر فيه قتل الأطفال فاشتد بأمه

الحزن والخوف عليه وخافت افتضاح أمرها فيقتله فرعون ولكن الله تعالى ألهمها (أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى أليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) . . فلما أرضعته وضعته فى تابوت من الخشب وألقته فى نهر النيل وطلبت من ابنتها الكبرى مريم أن تتبع أثره . . وحمله الموج حتى ألقى به بين الأشجار عند قصر رمسيس الثانى فى مكان مستقى جواريه فالتقطنه ولم يتجاسرن على فتحه حتى وضعنه بين يدى سيدتهن آسيا امرأة فرعون وأحب زوجاته إليه وكان لقبها «لانفرتارى» ومعناه صاحبة الجمال ويقال أن أسمها على مسمى ـ فأنزل الله الرحمة فى قلبها فأخذت تسعى لدى زوجها وتتوسل اليه حتى وهبه لها وعدل عن ذبحه. . واحتاروا فى كيفية أرضاعه لأنهم لم يكونوا قد عرفوا طريقة التغذية الصناعية وهو يأبى الرضاعة من كل المرضعات مصدقا لقوله تعالى (وحرمنا عليه المراضع) .

وكان ممن ذهبن إلى دار فرعون أخته مريم فقالت لهم أنى أعرف إحدى المرضعات ودلتهم على أمها وبذلك تحقق وعد الله (فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن)

وشب موسى تحوطه عناية الله فى حضانة آسيا وأدخله فرعون

معهد عين شمس . . وبعد أن أتم علومه وثقافته لقي ـ وهو في طريقه إلى قصر فرعون ـ مصريا يقسو على أحد الإسرائيليين ويحمله قهراً على أعمال السخرة فاستغاث الإسرائيلي بموسى فانتقم له ولكم المصرى لكمة قضت عليه في الحال ولكنه ندم على ذلك وعده من عمل الشيطان واستغفر ربه على ما فرط منه .

وفي اليوم التالي خرج موسى ليطوف بالمدينة فرأى نفس الرجل الإسرائيلي الذى نصره بالامس مشتبكا مع مصرياً آخر فهم موسى أن يبطش بالمصرى فقال له . . أتريد أن تقتلني يا موسى كما قتلت زميلي المصرى بالأمس ! !

وشاع في المدينة خبر الحادثة وأصبح موسى يسير خائفاً (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال) « يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين »

وقال موسى رب نجني من القوم الظالمين ـ ورحل عن مصر ناجيا بنفسه إلى أرض مدين بن إبراهيم الخليل وهى البلاد الواقعة حول خليج العقبة ما بين شمال الحجاز وجنوب فلسطين وأقام بهـا مدة عشرين سنة فى رعى أغنام صهره نبى الله شعيب . . ولما أوحى الله

بالنبوة وبعثه رسولا إلى بنى اسرائيل وإلى فرعون والمصريين يهديهم إلى دين الله وعبادته وحده مخلصين وينهاهم عن الشرك والوثنية تجهـــز للعودة إلى مصر ومعه زوجته — فلما وصل إلى جبل الطور ضل الطريق وأمضى ليلته وسط عواصف هوجاء وأمطار شديدة وبرد قارس وظلمة مزعجة فأبصر عن بعد نوراً قوياً حسبه ناراً موقدة فأسرع إليها ظناً أن يجد عندها من يدله على الطريق وليأتى منها بجمرات ملتهبة لتدفئة زوجته التى تعانى المخاض وقسوة الطقس — فلما اقترب من مكان النار لم ير أمامه سوى نور عظيم باهر ممتد من عنان السماء إلى شجرة عظيمة فى هذا المكان — وبينما هو سارح بفكره مذهولا حائراً لا يدرى كيف يتصرف إذ سمع صوتاً يناديه ياموسى « انى أنا الله رب العالمين » وما تلك بيمينك يا موسى « قال . . هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها غنمى ولى فيها مآرب أخرى » .

فقال تعالى « الق بها . . فلما رآها موسى تهتز كأنها جان أطلق لساقيه العنان هارباً منها فناداه الله . . « يا موسى أقبل ولا تخف انك من الآمنين . . وادخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء » ياموسى ان لديك برهانين من ربك يعزز بهما كلمتك ويعلى حجتك فاذهب إلى فرعون أنه طغى حتى تخرجه وقـومه من

الظلمات الى النور وتقيم دعائم الحق وتنشر نور الإيمان فى ربوع بلاد النيل .

قال « رب إنى أخاف أن يكذبون فارسل معى أخى هارون وأشركه معى فاستجاب الله لدعائه . . وواصل موسى السير مع أهله وغنمه حتى دخل مصر والتقى بأمه واخواته وبنى قومه ثم انطلق مع أخيه إلى فرعون لإبلاغه الرسالة .. وكان قصر رمسيس ممتلئاً كعادته بالحياة والحركة وحجراته غاصة بالجوارى والأسرى من مختلف البلاد التى أخضعها لنفوذه وساحاته مملوءة بالحرس ورجال الحكومة وصغار الكهنة والعبيد والكل فى أبهى الحلل وأحسنها — وكانت ردهة الاستقبال التى جلسوا فيها مطلة على حديقة كبيرة — وتحمل سقفها عمد مرمرية بديعة النقش مزدانة بأجمل زينة وتتدلى منها ثريات من الذهب الخالص المرصع — وانتظروا حتى عاد رمسيس من مذبح القصر حيث كان يؤدى صلاته ويقدم قرابينه لآلهته ومعبوده العجل أبيس أمام الشعب على تراتيل وصلوات الكهنة وهم ينشدون أدعيتهم للملك بصوت عال معددين فضائله وحسناته ومعلنين طهارته من الأوزار ومن كل السوءات ! !

وما كاد رمسيس يمهر بامضائه آخر كتاب يصرح فيه بالمال اللازم لبناء بعض قطع لأسطوله البحرى حتى أعلن الحاجب له رغبة

موسى وهارون فى الاجتماع به . . وهز فرعون رأسه فى ظاهر رداعلى تحتهما ثم سأل موسى مقطبا محتدا وهو يمسك بيد زوجته « لانفرتارى » التى كانت أجمل من حوى المكان لحسنها الرائع وكانت تجلس بجوار زوجها على كرسى ذهبى عال وقد طرحت فوق ثوبها الوردى خماراً جميلا من الحرير الخفيف مطرزا بالذهب وموشى بالاحجار الثمينة .

قال رمسيس . . ماذا ترغب منى يا موسى فوقتى قصير محدود .

قال موسى . . إن الله أرسلنى إليك وأمرنى أن أخلص بنى اسرائيل من ذل عبوديتك وجبروتك ليتفرغون لعبادة الله وتوحيده وكلفنى أن أدعوك وأهلك وقومك الى الإيمان بالله وعبادته وحده وأن تتوبوا ولا تتبعوا الشيطان ؟

ولكن فرعون أخذته العزة فتكبر فى نفسه ونظر الى موسى بعين الإزدراء وقال له (ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التى فعلت (مثل المصرى) وأنت من الكافرين » فرد عليه موسى قائلا نعم فعلتها قبل أن يوحى الى وينزل على (ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين)

عندئذ زادت حدة رمسيس وعبوسة فمضى موسى فى قوله متحمساً

وقد بعثنى الله إليكم لأنذركم بعذابه الشديد ان لم تتوبوا اليه وتؤمنوا به أجمعين .

قال رمسيس ـ لست فى هذا مصيبا ياموسى ثم تلفت ضاحكا وهو يحدث من حوله من الوزراء وكان أكبرهم هامان عدو اليهود الأكبر العامل على أبادتهم ـ وكبار القوم والكهنة والراقصات وكن على وشك البدء فى الرقص ولم يكن عليهن من ملبس سوى قمصان رفيعه من النسيج . . وفجأه صاح فيهم فرعون هل لكم إله غيرى . . وكان من الطبيعى أن يردوا قائلين . . لا . . لا ! !

فقهقه رمسيس عاليا وقال لموسى هل سمعت . . ومن هو إلهك الذى تدعوننى إليه قال . . هو الله رب العالمين .

(قال فرعون وما رب العالمين قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين) .

قال فرعون « لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين) قال موسى (أولو جئتك بشيء مبين قال فأت به أن كنت من الصادقين فألقى موسى عصاه فإذا هى ثعبان مبين) ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين) .

ومما أوحى الله إلى موسى عقب هـــــذه الزيارة . . ياموسى

ـ لا تعجبك زينة فرعون ولا ما متع به ولا تمدن إلى ذلك عينك فإنها زهرة الحياة الدنيا وزينة المترفين ولو شئت أن أوتيك زينة يعلم فرعون حين ينظر اليها أن مقدرته تعجز عنها فعلت ولكنى أرغبتك عن ذلك وأزويتك عنها فكذلك أفعل باوليائى أنى لازودهم عن نعيمها ولذاتها كما يذود الراعى الشفيق غنه عن مراتع الهلكية وإنى لأحميهم عيشها وسلوتها كما يحمى الراعى ذوده عن مبارك العر (الجمال الجرب) .

وأرسل فرعون بالمنادين إلى كل مكان يأتونه بالسحرة لأنه كان للسحر منزلة كبيرة فى نفوس المصريين ومختلف شعوب هذا العصر .. وأقام لهم حفلا كبيراً فى حدائق قصره ومناهم باجزل العطاء إن هم تغلبوا بسحرهم على موسى :

وفى اليوم المحدد ـ قيل ـ أنه كان يوم عيد رأس السنة المصرية وهوم وفاء النيل احتشدت الجموع الخفيرة من مختلف طبقات الناس وحضر رمسيس وزوجته يحف بهما رجال الحاشية ورؤساء الكهنة والوزراء والأشراف . . وفى تلك اللحظة أيضاً حضر موسى يتكىء على عصاه وبرفقته أخوه هارون فاتجهت كل الأنظار إليهما وعندما بدىء الاحتفال القى السحرة للمصريون عصيهم وحبالهم حتى امتلأ بها

المكان وخيل للناس من سحرهم أنها حيات تسعى مما زاد فى ابتهاج وغبطة فرعون وحاشيته والقى موسى عصاه فإذا هى ثعبان ضخم مخيف يثير الرعب والفزع وهو يبتلع جميع حيات السحرة ـ ففر الناس خوفا منه ـ وخر السحرة ساجدين للقـــدرة الإلهية غير مبالين بفرعون وما أعدلهم من العذاب وأعلنوا إيمانهم برب موسى وهارون فهددهم فرعون بقطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم على جذوع النخيل ولكنهم سخروا منه ومن تهديداته وتمسكوا بإيمانهم حتى لاقوا حتفهم مصلوبين وماتوا مسلمين ! !

وبعد أن شاهد فرعون مصرع أمله فى سحرته لوى أطرافه كمن أصابه خبل لمن شاهده أن عينه قد توسطتا رأسه من كثرة الغيظ والغضب .

قال تعالى (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا فى ضلال وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو يظهر فى الأرض الفساد — وقال موسى أنى عذت بربى وربكم من كل متكبر ولا يؤمن بيوم الحساب) .

وكان لموسى عم يدعى قارون ويعد من أكبر علماء اليهود وأفقههم بعد موسى وهارون منحه الله — مالا وفيرا وثروة طائلة حتى قيل إن أقوى الرجال عجزت عن حمل مفاتيح خزائنه ورغم كل ذلك كان منافقا وطاغية وعدوا لموسى ورسالته يحيك ضده الدسائس ويضطهد اتباعه ويقف فى وجه رسالته ولا سبب لذلك إلا أن موسى قد فضل عليه أخاه هارون وقلده رياسة هيكل المعبد فحقد عليه ودبر مكيدة خبيثة للانتقام من ابن أخيه موسى بأن اتفق مع امرأة فاسدة من بنى إسرائيل ووعدها بالزواج منها أن هى أعلنت فى الاجتماع الذى سيعقده فى بيته لزعماء بنى إسرائيل أن موسى قد راودها عن نفسه وطلب منها الفاحشة فتظاهرت بالقبول وعندما حضرت إلى الاجتماع خطبت فى ضيوفه قائلة . . يابنى إسرائيل أن قارون تودد إلى بالأمس وأغرانى للافتراء على نبى الله موسى واتهمه بالفاحشة أمامكم فاشهدوا أنى بريئة من هذا الإثم العظيم ومن كيد قارون لأنى تبت إلى الله وندمت على ما فعلت وأسأت مع موسى . . وقد أثارت هذه الواقعة نفوس بنى إسرائيل ضد قارون وانفضوا من حوله داعين عليه باللعنة وذهب فريق منهم إلى موسى وأبلغوه بما حدث فغضب موسى

وسأل ربه أن ينتقم منه وأن يظهر الأرض من رجسه — فتقبل الله دعاءه وخسف بقارون وبداره الأرض .

خروج اليهود

..وظل فرعون مستبدا بكفره متعاليا بألوهيته متماديا فى تكذيب موسى متربصا به رغم المعجزات التى رآها بنفسه — فرحا بإبادة بنى إسرائيل وإذلا لهم واستباحة أعراضهم ـ فأوحى الله إلى الوسى أن ينذر فرعون وجنوده بالعذاب الشديد . . وابتلاهم أولا بطوفان مكث فيهم ثمانية أيام وأهلك مزارعهم وخرب ديارهم . . ثم سلط عليهم الجراد لمدة ثمانية أيام أكل خلالها كل زرع وشجر وابتلاهم فى المرة الثالثة بحشرة القمل الذى كاد يقرض اجسامهم وشعورهم — وبعث إليهم الضفادع تلوث طعامهم وشرابهم . . ولما لم يتعظوا أو يؤمنوا أحال لهم مياه النيل دما قانيا حتى أشرف جميع الناس على الهلاك .

وكانوا كلما انزل الله عليهم بعذابه يهرع فرعون إلى موسى، يعلن له إيمانه ويرجو أن يدعو له ربه أن يدفع عنهم البلاء ثم يعود سيرته الأولى ويستمر فى غدره وطغيانه .

* * *

وأمر الله موسى أن يرحل ببنى إسرائيل عن مصر ويخلصهم من عبودية فرعون وعذابه . . ونادى موسى فى قومه - وخرج بهم ليلا وكانوا يبلغون نحو الستمائة ألف يهودى وقيل أن نساءهم استعرن من نساء المصريين حليهن وفزن بها غنيمة . . ولما بلغ فرعون نبأ رحيلهم خرج إليهم بجنوده على رأس قافلة حربية كبيرة من عربات محملة بالذخائر حتى أدركهم عند الشرق على ساحل البحر الأحمر بالقرب من خليج السويس وكان ذلك فى نهاية عام ١٢٥٠ ق . م . فلما رآه الإسرائيليون صاحوا ياموسى هذا فرعون قد أدركنا بجنود لا رجاعنا والفتك بنا فماذا أنت فاعل بنا وقد سدت علينا كل الطرق ولم يبق إلا البحر أمامنا وقال موسى لاتخافوا فإن الله معنا قال تعالى (وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فأضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى) . . وضرب موسى البحر بعصاه تنفيذاً لأمر الله فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم — وعبر موسى وقومه من الشاطىء الغربى للبحر إلى شاطئه الشرقى فتبعهم فرعون وجنوده فانطبق البحر عليهم وأغرقهم أجمعين — وعندما أشرف فرعون على الهلاك قال (آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين) . . وقذف البحر بجثته لتكون عظة لكل مكابر ظالم وهى معروضة الآن بمتحف الانتكخانة بالقاهرة تأييدا لقوله

تعالى « فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وأن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون) .

وقد حدث ذلك فى يوم الفصح ١٢٥٠ ق . م . الموافق ١٠ محرم « عاشوراء » فصامه اليهود شكراً لله على نجاتهم . . ثم واصلوا السير إلى جبل الطور فوصلوه بعد مضى ثلاثة أشهر وقالت اليهود لموسى إنك قد وعدتنا بالأرض المقدسة قبل أن تخرجنا من مصر فكيف نقوى على مواصلة السير إليها ولا زاد معنا ولا ماء فأوحى الله إليه . . ياموسى قل لهم أنى منزل عليهم المن — وهو غذاء حلو الطعام والسلوى — وهو طائر السمان — وأمرت الحجر أن يتفجر لهم بالماء العذب والغمام ليظلهم ويسير معهم حيث ساروا (وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن أضرب بعصاك الحجر فانبجست منه أثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم — وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى) ولكنهم بطروا نعمة الله وما هم فيه من الرغد وسعة الرزق مصداقا لقوله (وإذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفولها وعدسها وبصلها قال اتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم) .

وما كاد موسى يبلغ ببنى إسرائيل سفوح جبل الطور حتى توقفوا على المسير لأنهم رأوا قوما يمكفون على عبادة الأوثان وطلبوا من موسى أن يجعل لهم آلهة مثلنا ليعبدوها فدهش موسى من هذا الطلب الطلب الغريب ولامنهم عليه وأمرهم بالتوبة والاستغفار ثم ذكرهم برحمة الله عليهم وأفضاله التى لا تنسى وقال : (أغير الله أبغيكم إلها أتكم قوم تجهلون) .

وقال تعالى: (وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى أجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون — أن هؤلاء متبرماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون. قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين) .

ثم عادوا وسألوا موسى عن الكتاب الذى وعدهم أن يأتيهم به من عند الله لأنه لم يكن قد نزل عليهم كتاب ولا شريعه ينتهون إليها . . وسأل موسى ربه فى ذلك فوعده بعد ثلاثين ليلة قصامها حتى أتمها وتطهر وطهر ثيابه وصعد إلى جبل الطور لتلقى كتابه .

وغادر موسى قومه لميقات ربه وقد جعل عليهم أخوه هارون خليفة عنه يشرف على شئونهم ويرعى مصالحهم . . وبعد أن أتم

صيامه شعر وهو يصعد الجبل برائحة لفمه من أثر الصوم فأكل شيئا معطرا من نبات الأرض فعاتبه الله على افطاره وأمره أن يعود فيصم عشرة أيام أخرى جزاء افطاره وقال له . . أما علمت ياموسى أن خلوف فم الصائم أطيب عندى من رائحة المسك مصداقا لقوله (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليـــلة) .

وكلم موسى ربه فقال (رب أرنى أنظر إليك) فقال له تعالى (لن ترانى ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صاعقا) .

ثم عاد موسى إلى قومه بعد أن اصطفاه ربه على الناس بالرسالة وقربه اليه بكلامه معه وكتب له الألواح وتعرف فى القرآن بالتوراة وتتضمن تفصيلا لكل شىء لبنى إسرائيل من مواعظ وأحكام لعلهم يهتدون بها — وقد بين الله أن قومه لم يحفظوها كما جاء فى صورة المائدة (ونسوا حظا مما ذكروا به) والتوراة كلمة عبرانية معناها الشريعة أو الناموس وهى تطلق عند أهل الكتاب على خمسة أسفار هى :

١ — سفر التكوين ويروى بدء الخليقة وأخبار الأنبياء .

٢ — سفر الخروج .

٣ — سفر اللاويين أو الأحبار .

٤ — سفر العدد .

٥ — سفر تثنية الإشتراع .

فوجد أن الفتنة قد حلت بينهم ورآهم يعبدون العجل أبيس معبود فرعون — ومن شدة غضبه عليهم سقطت منه الألواح المقدسة وتكسرت . . ذلك أنه كان من بين عظماء بنى إسرائيل رجل منافق إسمه السامرى أندس بين صفوف بنى إسرائيل وأبلغهم أن غياب موسى أكثر مما هو معلوم له — يعنى أنه لن يعود إليهم ثانية ثم جمع من نسائهم الحلى والقلائد الذهبية التى استعرنها من نساء المصريين قبل رحيلهم — وصنع لهم منها العجل أبيس . . وجعله مجوفا لتمضى الريح فى جوفه فتحدث صوتا كالخوار فعكف على عبادته أغلب اليهود — ولما حاول هارون أن يردهم عن عبادته ويبلغهم أنهم فتنوا به ويهديهم إلى دينهم وإلى عبادة الله قالوا له : (لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع موسى) ثم تغلبوا عليه حتى كادوا يقتلونه .

ولما عاد موسى لامهم أشد اللوم آسفا على ضياع جهوده فى سبيل هوايتهم غاضباً لأقدارهم وعودتهم إلى عبادة آلهة عدوهم فرعون الذى أهلكه الله وطهر الأرض من فساده وطغيانه .. وبحث موسى عن السامرى وطرده وأهله إلى البرارى .

وسأل اليهود موسى .. كيف نعتذر إلى الله ونتوب إليه . . فأوحى الله إليه أن يقتلوا أنفسهم وذلك بأن يقتل كل برىء المجرم منهم دون تمييز بين أصح وصديق وقريب .. ثم عفا عنهم بعد أن قتلوا من انفسهم عددا عظيما مصداقا لقوله (وإذ قال موسى لقومه ياقوم أنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم أنه هو التواب الرحيم) .

وأمر الله موسى وبنى إسرائيل بالمسير إلى الأرض المقدسة فخاف الإسرائيليون سطوة سكانها من بنى كنعان وقالوا .. (أننا لن ندخلها حتى يخرجوا منها) فلما أمرهم الله بقتالهم — قالوا لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا وحدكما ولن نبارح هذا المكان .. فغضب منهم موسى ولجأ إلى ربه شاكيا (رب أنى لا أملك إلا نفسى وأخى فأفرق بيننا وبين القوم الفاسقين) فإستجاب الله له وحرم

عليهم دخولها وكتب عليهم البقاء فى البرية مدة أربعين سنة قضوها فى التيه . .

وقبيل انقضاء هذه المدة توفى هارون فدفن فى جبل (هور) ولحقه موسى بقليل فدفن فى جبل (نبو) بعد أن وصل ببنى إسرائيل إلى قرب بلدة أريحا بفلسطين وانتقلت زعامه بنى إسرائيل من بعده إلى كبيرهم يوشع بن نون وهو من آل يوسف عليه السلام . .

ويبدو أن قصه الأربعين عاما التى أمضاها اليهود فى التيه ليست إلا مثلا صارخا لانقضاض جماعة من الجياع — على جماعة مستقرين آمنين ولم يعرف فى تاريخ الحروب مثلا لعدوانهم الذى ارتكبوه فى قتلهم العرب من بنى كنعان حتى جرت دماؤهم أنهارا . . فقد ذكرت التوراه أن بنى إسرائيل تابعوا السير بعد وفاة موسى عليه السلام حتى وصلوا إلى أسوار (اريحا) فى مشارق فلسطين فاحاطوا بهذه المدينة المنيعة ولما فشلوا فى الانتصار على أصحابها الكنعانيين استعانوا بإمرأة فاسدة من سكانها فدلتهم على مداخل المدينة وبذلك استطاعوا أن يدخلوها فذبحوا أهلها وأحرقوها ثم دمروها وبهذه الطريقة التى لا أثر فيها للعواطف الإنسانية استوطن اليهود فى فلسطين زاعمين أنها أرض شعبهم المختار — وهذا قول يتطلب منهم

مستوى من الفضيلة ولا يقره عاقل لأن اليهود خليط من سلالات أكثرها ينحدر من أجناس غير نقية !!

وقد استطاع اليهود بعذابحهم القضاء على بنى كنعان ولكنهم لم يتمكنوا من تقوض حضارتهم أو القضاء على تراثهم فقد ظلت تربة الأرض الفلسطينية التى أصلحها بنو كنعان واخصبها نهر الأردن والحقول التى عنوا بريها وزرعها تخرج محصولات موفورة من القمح والخضر والبقول والفاكهة الكثيرة المختلفة الأنواع المتنوعة المذاق !!

داود وسليمان

« ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين » .

.. وطال المدى على بنى إسرائيل بعد وفاة يوشع بن نون وهم يتوارثون صندوق الألواح التى كتبت عليها أسفار التوراة لموسى (تابوت العهد) وكانوا إذا حاربهم عدو وقدموه أمامهم فى القتال نصرهم الله وأنزل بعدوهم شر الهزيمة ـ فلما بغوا وأفسدوا وأعرضوا عن الإيمان وغرتهم الحياة سلط الله عليهم العمالقة وهم عرب بنى

كنعان وكانوا يسكنون مدن غزة وأجزاء من وطنهم فلسطين فحاربوهم وانتصروا عليهم وأخذوا توراتهم واستردوا منهم سائر مدنهم وأراضيهم الفلسطينية التى استولوا عليها عقب دخولهم فلسطين بعد معركة أريحيا المشهورة ثم إنتقموا لما حل بهم فى هذه المعركة بأن أسروا كثيراً من ذراريهم وفرضوا عليهم الجزية الباهظة ! !

ومضى الزمن وتاقت أمنية بنى إسرائيل إلى أن يكون لهم ملك يدير شئونهم وينظم جيوشهم ويقودها فى الحروب . . وابتهلوا إلى الله أن يعيد اليهم النبوة ويمن عليهم بنبى صالح يهديهم فى الحياة ويأتيهم بالخير ويرشد مليكهم ويشد أزرهم فى الملمات . . وحقق الله الرجاء وبعث فيهم صموائيل نبياً وقد كان من أبرز قضاتهم وعلمائهم الصالحين فسألوه أن يولى عليهم ملكا منهم فدعا صموائيل ربه أن يلهمه التوفيق ويسدد خطاه بتحقيق هذا المطلب فبعث الله اليه بملائكته تحمل له عصا طويلة وآنية فيها قدر من الزيت المقدس ـ وأبلغته أن إرادة الله قد اقتضت أن يكون الملك الذى يسوس بنى إسرائيل فى طول هذه العصا ـ فإذا قدم عليه رجل يبلغ طولها وسمع للزيت صوت الغليان فالرجل هو ملك بنى إسرائيل ! !

وكان فى بنى إسرائيل رجل من سلالة بنيامين شقيق يوسف بن

يعقوب اسمه طالوت (شلؤول) ـ يعمل دباغا للجلود وكان لأبيه حمير ضلت الطريق فخرج يبحث عنها وفى أثناء الطريق عرج على بيت نبى الله صموائيل يسأله الدعاء له حتى يوفق فى العثور عليها . . وفى أثناء لحظة دخوله سمع صموائيل فورة الزيت كأنه الغليان فغادر مجلسه لفوره وأحضر العصا وقاسها على طالوت فاذ هى على قدر طوله ـ فابتهج صموائيل وبعث إلى زعماء بنى إسرائيل يزف البشرى ويطلبهم لمبايعة طالوت لكنهم حين جاءوا الى نبيهم أحرجوه وقالوا له ـ كيف تطلب أن نوافق على اختيار شخص عادى وغير واسع الجاه والنفوذ ـ فقال صموائيل ان الله اصطفاه لكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه لمن يشاء والله واسع علمه ـ فعادوا وطالبوه أن يقيم لهم الحجة الصادقة والبرهان القاطع على صحة كلامه فأجابهم بما رواه الله على لسانه (ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة) وبالفعل جاءتهم الملائكة تحمل اليهم تابوت العهد فارتفعت صيحاتهم وهللوا فرحين ونحروا القرابين ورضوا بطالوت ملكا عليهم ! ! ولم تنقض إلا فترة غير قصيرة حتى اشتعلت نيران الحرب بين اليهود وبنى كنعان وكان اليهود هم البادئين وكانوا (كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله) وحشد طالوت جيشه لتنفيذ خططه الحربية وقال لجنوده على

سبيل التثبت من اخلاصهم له وطاعة أوامره أثناء خوض المعركة ان الله مبتليكم بنهر (الأردن) فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فانه مني إلا من اغترف غرفة بيده فعاهدوه على الطاعة العمياء واحترام أوامره . ثم تجهز الجيش ورحل من القدس الى ساحة القتال وتصادف أن كان الوقت حرا شديداً فشعرت القوات بالظمأ الملوع وما كادوا يبلغون النهر حتى نسوا كل شيء وأطلقوا العنان لأنفسهم في الشرب منه فطردهم طالوت وسار بالقلة التي امتثلت لأوامره وامتنعت عن الشرب الا غرفة بيد من الماء وعبر بهم النهر فلما اقتربوا من مواقع العدو وشاهدوا عدته وقوته ارتعدت فرائصهم من الخوف والهلع وقالوا لطالوت بعد أن حاول أكثرهم الفرار (لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده)

ودارت الحرب بين الفريقين واشتد القتال بينهم وخرج جالوت ملك بني كنعان ووقف على رأس قواته وأقسم أمام إسرائيل أنه سيمنح ملكه لمن يقتله منهم أو يقهره وإلا استولى على بلادهم وقال هازئاً باليهود أنه يتحدى ملكهم طالوت أن يجد في نفسه الشجاعة أو من ينوب عنه فيخرج لمقاتلته ولكن لم يجرؤ واحداً من اليهود على مواجهة هذا التحدي المخزي خشية من قوة جالوت وشدة بطشه في الحروب وعز على طالوت ملك اليهود أن يجد نفسه فريسة لهذا

التحدى السافر فصاح فى جنده أن من يقتل جتلوت سيزوجه من ابنته الفاتنة الجميلة ويعينه حاكما على الكنعانيين مكافأة له على بطولته . .
ورغم إغراء هذه المكافأة لم يجرؤ أحدهم على مقاتلة جالوت مما اضطر طالوث إلى أن يعود إلى نبيه صموئايل يستشيره فى حل الموقف وعلاجه فأوحى الله إلى صموائيل أنه أعد داوود بن إيشا للقام بهذه المهمة لأن لديه مقلاعا إذا قذف به الوحوش صرعها فى الحال وكان داود أصغر أخوته الذكور البالغ عددهم ثلاثة عشر ويشتغل برعى الغنم ولم يتجاوز الثلاثين من عمره .

وجئ بداود من البرية وقبل المهمة ثم حمل مقلاعه معه ومضى إلى ساحة القتال معتمداً على الله وواجه جالوت وانتصر عليه وقتله بضربة حجر من مقلاعه أصابت رأسه فسقط جثة هامدة فى الحال ـ وأخذ داود يجرها حتى ألقاها أمام طالوت .

قال تعالى (وقتل داود جالوت وأتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين) .

وينحدر داوود عليه السلام من سبط يهوذا الابن الأكبر لإسرائل (يعقوب) وهو ثانى ملوك بنى إسرائيل وقد ولد فى بيت

لحم واشتغل برعى الأغنام حتى منحه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ثم أورثه النبوة عقب وفاة صمائيل وأنزل عليه الزبور وجعله خليفة فى الأرض ومنحه حسن الصوت فكان إذا تخلل الجبال وسبح ربه جاوبته بالتسبيح وسبحت معه الطيور والوحوش وكان جميل الصورة أزرق العينين أحمر الوجه أبيض البشرة متوسط القامة طاهر القلب ويقول الله تعالى عنه (وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) وأحاطه الله بالصفوة الصالحين من قومه ومن أهل العلم والسياسة وأيده بالخلاصة الطيبة من الرجال العادلين فى تصريف شئون الحياة .

أما الحكمة التى أعطيها فهى العلم النافع وفصل الخطاب ـ وهو القضاء بين الناس سواء كان ذلك فى إقامة حجة الدين أم تنظيم الشئون العامة للحياة فى دنيا الناس .

وقد استمرت فترة حكمة نحو أربعين عاماً بدأت فى سنة ١٠١٠ ق . م إلى سنة ٩٧٠ ق . م . واتخذ من القدس عاصمة له وجعلها مقراً لتابوت العهد وألان الله له الحديد وجعله طوع أمره وعلمه صنع الدروع لاتقاء بأس الحروب لأن تنازع البقاء فى سبيل أعلاء كلمة الله هو قتال مشروع سواء أكان ذلك دفاعاً عن النفس والمال والعرض أو فى سبيل الله ودعوة الدين والدفاع عن الوطن .

وبدأ فى بناء بيت المقدس الشريف على صخرة المعراج ولكنه مات قبل أن يتم البناء ـ وفى أيامه نشأت الوحدة الدينية وتركزت عبادة اليهود فى الهيكل بأورشليم لله وحده ـ وكانت طقوسهم الدينية تسمو كثيراً على غيرها من الأديان فى ذلك الوقت فى عظمتها وسلطانها وفى وحدتها الفلسفية ـ وفيما تنطوى عليه من حماسة أخلاقية كان لها أكبر الأثر فى النفوس وكانت تضارع فى عواطفها وروحانيتها الطقوس الوثنية والاحتفالات المرحة التى كانت شائعة فى عبادة الآلهة المصرية والبابلية واليونانية .

وكان طبقة الكهنة من أبناء ليفى أحد أسباط إسرائيل وهم الذين فى إمكانهم وحدهم تفسير الأسرار الدينية وإقامة الطقوس الروحية وكانت هذه الطبقة هى الوحيدة المعفاة من أنواع الضرائب ولهم حق الإنتفاع بكل ما يقدم إلى الهيكل من القرابين .

هبة سليمان لداوود

وتوفى داوود عن سبعين سنة وأوصى بالملك من بعده لأبنه سليمان الذى كان أنجب أبنائه جميعاً تنفيذاً لمشيئة الله تعالى لأنه قد كلفه أن يسأل ولده سليمان عن أشياء أوحى بها إليه فإن أجابه عنها فهو الخليفة من بعده فى النبوة والملك على بنى إسرائيل فدعا داوود

أحبار اليهود وزعمائهم إلى اجتماع كبير وجاء بسليمان وكان في نحو العشرين وسأله أمامهم عن أقرب الأشياء وعن أبعدها وما آنس الأشياء وما أقبحها .. وما أقل الأشياء وما أكثرها وما القائمان .. والمختلفان والمتباغضان . . وما الأمر الذى أن ركبته حمدته والذى إن ركبته ذممته فأجاب سليمان قائلا – أما أقرب الأشياء فهى الآخرة وأبعدها فهو ما فاتك من الدنيا .. وأما آنس الأشياء فهو جسد الإنسان إذا كانت تدب فيه الروح وأوحش الأشياء هى جثته – وأما أحسن الأشياء فهو الإيمان بعد الكفر وأقبح الأشياء هو الكفر بعد الإيمان . . أما أقل الأشياء فاليقين وأكثر الأشياء فهو الشكر . . وأما القائمان فالسماء والأرض والمختلفان هما الليل والنهار – وأما المتباغضان فالموت والحياة وأما الأمر الذى إذا ركبه الرجل حمد آخره فهو الحلم والذى إذا ركبه الرجل ذم آخره فهو الحدة عند الغضب .

فسر داوود ومن معه من أحبار اليهود من فطنة سليمان وحكمته وعاهدوا داوود على مبايعته بالملك من بعده .

وحين ورث سليمان الملك والنبوة والحكمة عن والده حباه الله بفضل منه فعلمه منطق الطير وسخر له الجن والرياح تسير بأمره — فبعد أن أتم سليمان مراسم العزاء على والده دخل المحراب لعبادة الله

فهبط عليه جبريل وحمل إليه السلام من ربه وأبلغه أن الله تعالى يسأله عن أيهما أحب إليه العلم أم الملك — فسجد سليمان شاكراً لله فضله ونعمه عليه وقال أن العلم أحب إلى من الملك .. وعاد جبريل يبشره أن الله قد وهبه لتواضعه ولتفضيله العلم على الملك — العلم والملك معا وسيطوى له الدنيا بأسرها ليشاهد عجائبها — فخر سليمان ساجداً لله ولما رفع رأسه رأى الرياح قد وقفت بين يديه وقالت له إن الله سخرها له ليركبها متى شاء إلى أى مكان يقصده .. ثم أقبلت الطير والوحوش وقالت له — أن الله أمرها بطاعته .. وجاء الجن وقال له مرنا بما شئت فلن نعصى لك أمراً !!

عهد سليمان

ويمتاز عهد سليمان الذى بدأ عقب وفاة داود فى عام ٩٧٠ ق . م . حتى عام ٩٣٧ ق . م . بأنه عهد سلام واستقرار لم تألفه أورشليم من قبل لمراعاة روابط الود والصداقة ومحافظته على التعاون الاقتصادى والتجارى التى أقامها والده مع جيرانه من ملوك الدول الأجنبية والمجاورة — وقد أدى ذلك إلى انعاش فلسطين اقتصاديا — وجعل القدس من أنشط الأسواق فى الشرق وأدى — ازدهار حركتها التجارية إلى إنشاء أسطول تجارى بحرى لسليمان فى

البحر الأحمر لنقل حاصلات بلاده وتجارته مع سائر بلاد آسيا وبابل ومصر والحبشة .

واستخدام سليمان معظم موارده فى تقوية دعائم حكومته وتجميل عاصمته وحمايتها بإقامة الحصون المنيعة والقلاع الحربية وعززها بحاميات من الأسلحة والمواقع الثقيلة ليرهب بها الأعداء الغازين أو الثائرين على السواء .

وقسم بلاده إلى أثنى عشر قسما اداريا وتعمد فى أن تكون حدودها متفقة مع حدود منازل نقباء الأسباط الأثنى عشر وطالب كل قسم منهم بدفع جزء معين من ضريبة المال — وكان يرجو من وراء هذا أن يضعف النزعة التى ترمى إلى جعلهم شعبا واحدا .

ومن الوسائل التى استخدمها لتحويل مشروعاته — فرض الأتاوات على التجارة بفلسطين وإيفاد البعثات الفنية لاستخراج المعادن الثمينة واحتكاره سوق أستيراد مواد الترف والسلع القيمة النادرة لبيعها للاثرياء بأثمان مرتفعة .

وقد استطاع أيضا بفضل حكمته أن يعلم شعبه النظام واحترام

القانون وأقنعهم نبذ الشقاق والحروب والالتفات الى تحسين الصناعة وتقوية العلم ..

بيت المقدس الشريف

وبدأ سليمان فى تكملة بناء بيت المقدس الشريف الذى أقامه والده داود لأنه لم يكن لبنى اسرائيل قبل حكم سليمان هيكل كبير واحد وكان اليهود يقربون القرابين فى محليه محلية أو فى هيا كل بدائية أقيمت فوق التلال غيران سليمان جمع ذوى النفوذ والثراء من أهل المدن وأعلن اليهم عزمه على تشييد الهيكل وخصه بكميات كبيرة من الذهب والفضة والحديد والخشب والأحجار الكريمة من مخازنة الخاصة .. ثم أوحى الى مواطنية فى رفق أن الهيكل يرحب بمختلف أنواع تبرعاتهم فبلغ مقدار ما تبرعوا به نحو ١٥٠ ألف أقه من الذهب ومائة ألف أخرى من الفضة وكان كل من يجد لديه حجارة أو أخشاب أو حديد كان يهديها لخزينة بيت الرب .

وشرع فى إتمام البناء وجعل جدرانه كأنها إمتداد للمنحدرات الصخرية فجاء طرازه أحسن مافى العمارة المصرية والأشورية والبابلية

واستخدم فيه ١٥٠ ألف عامل حتى أتموه بعد مضى سبع سنوات متتالية وكان من عجائب الدنيا فى ضروب التزيين ورصع سقفه وجدرانه الداخلية بالجواهر الكريمة حتى صار أبهى مسجد وأنور بيت لله فى الأرض . . وجعل فى صدر البناء الرئيسى مدخلا كبيراً يبلغ ارتفاعه ١٨٠ قدماً وصنعت الأبواب والشبابيك والعمد من خشب الزيتون والأرز المنقوش ومغطاه بصفائح من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة أما مواد البناء فقد جيء بمعظمها من مصر وسوريا .

وفى يوم افتتاحه جمع سليمان أحبار اليهود وقال لهم . . إننى أقمت هذا المسجد لله تعالى وكل ما فيه خالص لوجهه تعالى وجعل من يوم إفتتاحه عيداً عظيما تنحر فيه الذبائح ونقدم قرباناً لله .

وبعد الفراغ من بناء هذا المعبد واصل العمال فى تشييد قصر كبير يسكن فيه سليمان ونساؤه وكانت جدران البناء الرئيسى فى القصر مقامة على تل من الحجارة الضخمة طول الواحدة منها ٢٥ قدماً وتزينها النقوش المحفورة والرسوم على الطراز الأشورى وكان القصر يحتوى على عدة أجنحة فخمة ليستقبل فيها كبار زائريه ويضم مستودعاً كبيراً للسلاح وديواناً لرياسة الحكومة .

سار سليمان بجنده من الجن والأنس والطير فى رحلة إلى دمشق. وفى الطريق مروا على وادى يكثر فيه النمل — فقالت نملة لصواحبها (أيها النمل أدخلوا مساكنكم حتى لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) وسمع سليمان كلامها فتبسم ضاحكا من قولها عجبا وسأل الله أن يلهمه الشكر على نعمته التى أنعمها عليه ولم يؤتها لأحد سواه .

وهذه القصة وقصة الهدهد تعطى للانسان لونا ناصعاً عن تواضع العظماء فقد تفقد سليمان الطير يوماً ما فلم يجد الهدهد فتساءل أموجود لا أراه — أم هو غائب بغير إذن ؟ ثم توعده بالعذاب أو بالذبح إن لم يأته بعذر وجيه عن أسباب غيابه المفاجئ . . وحضر الهدهد ووقف بباب سليمان قال (مولاى إنى أحطت بما لم تحيط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين) رأيت ملكة ذات جمال ولها جاه وعرض عظيم تعبد هى وقومها الشمس ويسجدون لها من دون الله وقد زين الشيطان لهم فصدهم عن الإيمان .. فما كان من سليمان إلا أن بعث إليها برسالة طار بها الهدهد إلى قصرها بمأرب قرب صنعاء باليمن وألقاها إلى بلقيس وهى جالسة على عرشها المصنوع من الذهب والفضة ترصعهما

أنواع الجواهر وقوائمه من الياقوت والزمرد والمرجان ومن حواليها نحو ثلاثمائة من القادة كل واحد منهم على رأس عشرة آلاف من الجند — فتلقته وأخذت فى قراءته لأنها كانت كاتبة قارئة ومن نسل (شراصيل) أحـد ملوك حمير الذين توارثوا الملك عن آبائهم وأجدادهم — وتعاقب منهم على عرش اليمن أربعون ملـكا ثم خلفتهم بلقيس لأن أبوها لم يرزق بسواها . . ثم قالت لأهل مشورتها . . (يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم إنه من سليمان وإنه باسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على وأتونى مسلمين) وسألتهم الفتيا والرأى قائلة (يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون قالوا نحن أولوا قوة وألو بأس شديداً والأمر إليك فأنظرى ماذا تأمرين قالت — إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون — وأنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بما يرجع المرسلون) فإن قبلها منهم فهو إذن لا يعدو سوى أحـد ملوك الدنيا وأنا أعز منه وأقوى — وإن رفضها فهو ملك عظيم ونبى صالح أمين .

وحمل الهدية وسافر بها وفد من كبار حاشيتها يرأسهم المنذرين عمرو من أشراف سبأ ولما حظى الوفد بمقابلة سليمان فى قصره بالقدس وقدموا له الهدية وهى من كنوز المال ونفيس الجوهر قال لهم سليمان

أتمدونني بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون. ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) .

وعاد الوفد بهديته وقص على مليكتهم ما شاهدوه عن كرم سليمان وعظمة ملكه وقوة سلطانه وسعة نفوذه وشدة بأسه ومظاهر النعم التي يعيش فيها وعزمه الأكيد على غزو بلادهم وأخذهم أسرى أجمعين إن لم يسلموا معه لله رب العالمين .

فانزعجت بلقيس وخشيت على ملكها وعرشها من جبروت سليمان الذى أخضع له جميع ملوك الأرض وقررت أن تسافر إلى سليمان بنفسها — وأرسلت إليه بذلك تعلن المسالمة وتبغى المفاوضة .

وكان حفل استقبال سليمان لبلقيس عجيباً فقيل أنه أمر الجن فصنعوا له قوالب من الزجاج رصفوا به ميداناً طوله ٧ فراسخ وجيء بأحسن دواب البر والبحر على جانبي الميدان ثم جلس سليمان على عرشه فى صدر الميدان وأصطفت من حوله جنوده من الجن والأنس والوحش والطير . . ولما اقترب موعد قدومها التفت سليمان إلى جنده من الأنس والجن والطير ممن حضروا مجلسه وقال « أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين . . قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك»

فقال سليمان ومن الذى يستطيع أن يأتينى به قبل ذلك : (قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) ثم رأى سليمان عرشها أمامه فحمد الله على واسع فضله عليه .

وقاد سليمان ضيفته إلى قصر بالغ الروعة والبهاء لم يسبق لها أن رأت مثله فلما قربت إلى ساحته حسبته لجة فى بحر وكشفت عن ساقيها حتى لا تبتل ثيابها فناداها سليمان أنه بناء من الزجاج فأفاضت ثوبها على ساقيها حياء منه وشعرت فى الحال بشدة الحرج وضآلة سلطانها وملكها أمام معجزات نبوته ولم تتردد لحظة فى إعلان إيمانها برب سليمان وقالت فى خشوع (رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) .

ولما دخلت بلقيس القصر قال لها سليمان مشيراً إلى عرشها أهكذا عرشك فنظرت إليه وقالت كأنه هو وتعجبت كيف نقل من قصرها إلى هذا المكان .

وروى أن سليمان تزوجها لسحر جمالها وشدة إيمانها وأنه أمر الجن فبنوا لها قصرا قصرا عظيما مماثلا لقصره ! !

قال تعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) .

..وعقب وفاة سليمان عليه السلام استشرى فيهم الفساد والعصيان وعمت الفوضى الروحية وانغمسوا فى ظلام دامس لاعاصم بينهم للخلق ولا داعى إلى الخير والصلاح ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ودب — الصراع الشديد بين المدن والريف فانقسموا على أنفسهم إلى مملكتين متعاديتين الأولى مملكة أفرايم الشمالية وعاصمتها السامرة — والأخرى مملكة يهوذا الجنوبية وعاصمتها أورشليم .

ومنذ ذلك الحين أخذ الضعف يدب بينهم نتيجة لاستمرار المنازعات التى أدت إلى إشعال نيران الحروب المدمرة حتى أصبحوا هدفا للطامعين وغزوات المتربصين ثم لم يمض وقت غير قصير حتى زحف « شيشاق » أحد فراعنة مصر على فلسطين واستولى على جميع قلاعها بجيش جرار من ستين ألف مقاتل ومائة ألف عربة حربية مسلحة ونهب كل ما فى بيت المقدس من ذهب وفضه وفرض عليهم الضرائب الباهظة أثناء فترة استعباده الطويلة لهم .

وكان من رحمة الله عليهم أن أوحى بالنبوة إلى «إشعيا بن أموص» وهو أحد أحبارهم الصالحين ومن صميم بيوتهم فقتلوه لأنه أهاب بهم أن يكرموا جباههم عن السجود لغير ذات الله فأراقوا دمه وصعدت روحه المبرورة إلى ربها تشكو له ظلم بنى إسرائيل وطغيانهم .. وكان ذلك بعد أن تقبل الله لدعائه فنصرهم على جيوش الاشوريين وأنجاهم من بطش أمبراطورهم « سنحاريب » ورده مدحورا إلى بلاده يتعثر فى ثياب الخزى وهو يشاهد جنوده يهلكون بوباء الطاعون وذلك حوالى عام ٦٢٠ ق . م .

ثم بعث الله إليهم بنبي جديد هو « أرميا » يحمل علم التوحيد ويقول : ياقومى أن الله أوحى إلى أن أدعوكم إلى الحق وأنذركم بالعذاب والعقاب أن لم تفيقوا من سكرتكم وترجعوا إلى عبادة ربكم إله العالمين وتستمسكوا بكتابكم وتحتكموا إلى آياته . . ياقومى إنى أخشى أن يبعث الله عليكم جنودا أقوياء يخربون دياركم وبلادكم وانتم عنهم عاجزون ! !

فقال له كبير منهم . . إنك تكذب علينا بهذه الفرية الآثمة ومحال أن نصدق أن الله الذى اصطفانا لتلقى كتابه يعود فيذهب

ملكنا على يد من يعبدون النار أو الأوثان !!

فرد « أرميا » قائلا « ياقومى ارفعوا عن أعينكم غشاوة الكفر والغرور إنما يرسلهم الله عليكم معذبين فقالوا له .. لقد جادلتنا فأكثرت الجدال ولابد من وضع حد لسخافاتك ثم أوثقوه وصفدوه بالأغلال والقوا به فى غياهب السجن الرهيب .

ولم ينقضى على هذه الحادثة سوى أيام قلائل حتى شاهدوا غبارا قويا فى جهة الشرق وفوجئوا بعد زواله ، أن بختنصر ملك بابل قد زحف عليهم فى حملة تأديبية وانقض على أورشليم ولم يتركها إلا خرابا يبابا بعد أن دمر هيكل سليمان وقتل الكهنة عن آخرهم وأحرق التوراة وتابوت العهد أمام عينيه ثم عاد الى بلاده وهو يجر أمامه جميع زعماء اليهود ويسوق معه عشرات الآلاف سيرا !! وكان ذلك فى عام ٥٨٦ ق . م

وكانت ساعة من أروع الساعات فى تاريخ بنى اسرائيل حين دخل قورش ملك الفرس بابل فاتحا بعد طول انتظار وأشفق على بنى اسرائيل أن يراهم أسرى فى بلاده يرسفون فى أصفاد الذل والهوان وأباح لهم العودة الى أورشليم بعد مضى مائة عام على أسرهم ـ وأعاد اليهم ما كان باقيا فى خزائن الدولة البابلية من الذهب والفضة اللذين

اغتصبهما بختنصر من الهيكل وأمر الجماعات التى كان اليهود يعيشون بينها أن تعينهم بالمال الذى يحتاجون إليه فى أثناء رحلتهم الطويلة .

ولكن شباب اليهود لم يتحمس لهذا التحرير لأن ثراء بابل وتجارتها المربحة ورغد الحياة فى حقولها الخصبة أغرتهم عن العودة إلى القفار الخربة فى فلسطين .

ولم يجد اليهود العائدين من بابل ترحيبا كبيراً فى بلادهم لأن أقواما آخرين قد تملكوا الأرض وأصلحوها واستقروا فيها — ولولا مؤازرة دارا الأول ملك الفرس لليهود لما استطاعوا العيش فى فلسطين ! !

وأمر دارا باعادة بناء الهيكل وتم البناء بعد أثنتى عشرة سنة من عودتهم — وعادت أورشليم إلى مجدها الغابر وأصبحت مدينة عامرة يتردد فى هيكلها أصداء الأناشيد التى كانت تتغنى بها بقية صالحة من اليهود آلت على نفسها أن تعيد اليهودية إلى سابق مجدها وقوتها فى عصر الأنبياء .

وبالرغم من كل ذلك فقدوجدت أورشليم نفسها أمام طبقة من

المتعطلين كانوا من عوامل الشقاق السياسى والفساد الاجتماعى فأخذت الحرب الاقتصادية تزداد شيئاً فشيئاً وأصبح استغلال الشعب والربا عادة مألوفة بين أصحاب الضياع والتجار وأهل الدين الذين أحاطوا بالهيكل ! !

حماقة اليهود

وكان بين علماء بنى إسرائيل حبر صالح اسمه عزير وقد أثنى الله عليه وجعله من أنبيائه الذين حدثنا عنهم القرآن فى قوله تعالى (أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت ؟ قال لبثت يوما أو بعض يوم ـ قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعله آية للناس ـ وأنظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما ـ فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير) .

وقد عاش عزير فى مدينة القدس وعاصر موقعة غزو بختنصر لها . . وفى ذات يوم خرج من حديقته وامتطى حماره وأخذ معه سلة مملوءة بالعنب وأخرى من التين . . وبينما هو سارح فى ملكوت الله وعظمته ضل طريق العودة الى قرية خربة تتحدث أطلالها عن

فظاعة الحرب المدمرة التى شنها بختنصر ضد بنى اسرائيل فنزل عن حماره وجلس بين الأنقاض وتناول شيئاً من طعامه ثم استلقى ليستريح قليلا فى ظلها وسرح بفكره متأملا ما أصاب القرية الخربة وهى قائمة على عروشها وقد باد أهلها وأصبحوا عظاما بالية فأخذته الرهبة وقال فى نفسه كيف يحييها الله بعد موتها ؟ .... وكان لصدق ايمانه لا يشك فى قدره الله على ذلك . . واغمضت عيناه واستسلم لنوم عميق ومرت عليه مائة عام وهو نائم فى مكانه جسدا بلا روح حتى أذن له الله ورد إليه الحياة وهو يظن أنه استيقظ من غفلة بسيطة ـ وأخذ يبحث عن حماره ويفتش عن طعامه ففوجىء بملك من السماء جاء اليه فى صورة رجل يسأله بأمر ربه كم لبثت فى رقدتك فأجابه : لبثت يوما أو بعض يوم . . قال « بل لبثت مائة عام فأنظر الى طعامك وشرابك تجده لم يتغير ـ ولكن أنظر الى حمارك تراه عظاماً نخرة والله جل شأنه سيريك كيف يحييها ويبعث الحياة فيها ليزداد إيمانك بيوم البعث والنشور وليجعلك آية للناس تخرجهم من ظلمات الشك والجهل والكفر الى طريق النور والإيمان . . وتلفت عزير فاذا حماره بسلاماته قائم تدب فيه الروح وتجرى فى شرايينه الحياة فقال عزير : « أعلم أن الله على كل شىء قدير) .

وركب عزير حماره وذهب يستدل على الطريق إلى بيته بعد أن تغيرت معالم المدينه وتبدل كل شيء فيها . . فلما بلغ منزله رأى عجوز عمياء مقعدة فسألها أين دار عزير فردت عليه قائلة هـذه داره ولـكنه قد ذهب منذ مائة عام وباد أهل عصره ونسيه الناس ولـكنني لن أنساه أبداً فإنني جاريته وأخذت في البـكاء . . . فناداها عزير باسمها وقال لا تحزنى فأنا عزير وقد ردني إليـكم الله وأحياني بعد أن أماتني مائة عام — قالت العجوز أتركني أيهـا الرجل ولا تمزح معى فإن سيدى كان صالحـا مستجاب الدعاء لا يطلب من الله أمراً إلا أجيب في الحال فإن كنت عزيراً كما تزعم فادع الله أن يرد بصرى لأراك . . وتقبل الله دعاء عزير ورد عليها بصرها وشبابها .

وأسرعت الجارية إلى قومها من شيوخ بنى إسرائيل وإلى أبنائه وأحفاده ومنهم من زاد سنة على المائة ومنهم من بلغ سن الثمانين وصاحت فيهم . . أيها الناس قوموا إلى عزير فقد رده الله إليكم — فأسرع إليه القوم ولـكنهم أنـكروه في بادئ الأمر وقال أحد أبنائه . . إن لأبى علامة يعرف بها وهى حسنة كبيرة في كتفه — فلما تحققوا من وجودها قال شيخ منهم . . أننا نريد أن نقطع الشك باليقين حتى تطمئن قلوبنا . . أننا منذ ضرب بختنصر بلادنا وأحرق توراتنا وتابوت العهد لم يكن بيننا على الأرض من يحفظ التوراة

ويلم بشريعة الدين إلا عزير — فإن كنت أنت هو فأتل علينا ما كنت تحفظه فقال عزير مهلا يا قومى فإن الله قد أبقى فى صدرى نصوص التوراة كاملة فلا خوف على دينكم وكتابكم — عند ذلك صافحوه مصدقين وأقبلوا عليه مباركين وأنهالوا عليه فى لهفه يلمسون أطراف ثوبه ويتمسحون به ويقولون — لقد عادت إلى بنى إسرائيل نعمة الرضا من ربهم بعد أن حرموا منها مئات السنين . . ولكنهم بدلا من أن يزدادوا إيمانا بربهم ويتبعوا نصائح عزير صاحوا به قائلين هذا — (عزير ابن الله) .

وبعد غزو الاسكندر للامبراطورية الفارسية أخذ النفوذ يتنازع اليهود وظلوا حتى نهاية القرن الثالث قبل المسيح تحت السيادة البطليموسية ثم من بعدها إلى الاحتلال الرومانى وفى سنة ٧٠ ق . م ثم لفاسبسيان امبراطور الروم القضاء على كل نفوذ لليهود وفتح بيت المقدس بعد تخريبه وتخليصه من اليهود وفى السنة الخامسة عشرة من الهجرة (عام ٦٣٦ ميلادية) خرج موكب النور من شبه الجزيرة العربية بقيادة البطل الفاتح عمر بن العاص متجها إلى ديار الشام وفلسطين لنشر دين الله وفضائل الإسلام والقضاء على الشرك وتخليص الناس من الظلم وتطهير الأرض من الفساد وانتصر على

جيوش روما واستلم منهم بيت المقدس فى احتفال عظيم حضره أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

ومنذ ذلك الوقت أى منذ ١٤ قرناً صارت فلسطين عربية مسلمة واندمج مسلموها ومسيحوها وأهل الكتاب فى أمة واحدة تؤدى واجبها وتثبت للعالم مدنية الإسلام وارسائه قواعد العدل والحرية والمساواة ونشر ألوية العلم والفضل ومكارم الأخلاق .

اخلاق اليهود

وقصة بنى اسرائيل مع الأنبياء والرسل كلها فصول حافلة بالخوارق والمعجزات ومع كل هذا لا تخشع قلوبهم ولا تلين ولا تجد هذه المعجزات البالغة سبيلا إلى قلوبهم وشعورهم وكم شقى بهم أنبياؤهم وذاقوا منهم مرارة العناد والكفر والطغيان .

وفى كثير من آيات القرآن الكريم ما يدلنا على أن الله سبحانه وتعالى أخذ على اليهود الميثاق بالاستقامة ووعدهم بالتكفير عن سيئاتهم ويدخلهم الجنة ولكنهم نقضوا العهد والميثاق بكفرهم وبتحريف كلام الله وبسفك دماء أنبيائهم كانت نفوسهم متعطشة إلى الدماء فحق عليهم قوله تعالى (أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة

ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) .

ولما جاء الإسلام دين الحق والكمال كان اليهود مشردين فى مختلف بقاع الأرض يعيشون فى ذله ومسكنه تحت سيطرة النصارى والرومان ولم يكن لهم ملك ولا مملكة .

وكان رسول الله قد عاهدهم عندما كانوا فى المدينة فأمنهم على أنفسهم وأموالهم وتركهم أحراراً فى دينهم يتمتعون بما يتمتع به المسلم ولكن طبيعتهم الفاسدة التى ورثوها عن آبائهم وأجدادهم أثبتت عليهم أنهم ينقضون الميثاق وأنهم يدبرون الكيد للرسول وأصحابه ظانين أنهم بأموالهم وحيلهم الخفية وطرقهم الملتوية ومحالفتهم للمشركين والوثنيين قد قويت شوكتهم — فأمر الله رسوله أن يثخنهم وأن يشرد بهم من خلفهم تطهيراً لأرض الله من رجسهم وفسادهم وقد أنزل الله فى شأنهم قوله الكريم (وأن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم) .

طرائف الحياة اليهودية

وكل ما يمكن قوله عن اليهود أنهم لا يتميزون فى حياتهم

ولا يختلفون عن غيرهم من الشعوب وأنهم لم يوجدوا تاريخهم بل إن تاريخهم هو الذى أوجدهم — وقد كانوا خليطاً من سلالات كثيرة — ولم يتزوجوا بغيرهم من الأجناس إلا كارهين .

وكانوا فى بداوتهم يرتدون جلابيب بسيطة وقلانس شبيهه بالعمائم ويحتذون أخفافاً سهلة الخلع .

ولما زادت ثرواتهم استبدلوا الاخفاف بأحذية من الجلد ثم أرتدوا فوق الجلابيب قفاطين مزركشة — أما نساؤهم — فكن يصبغن خدودهن ويتكحلن ويتحلين بكل ما يجدن من الحلى ويتخيرن أحسن الأزياء وأحدثها . وظلوا زمناً طويلا يؤلفون أثنى عشر نقيباً مستقلين استقلالا واسعاً ونظامهم وحكمهم لا يقومان على نظم الدولة — بل على أساس الحكم الأبوى فى الأسرة — فكان شيوخ العشائر يجتمعون فى مجلس الكبراء — هو الحكم الفصل فى شئون القبيلة — وهو الذى يرسم التعاون مع القبائل الأخرى وكانت الأسرة هى الوحدة الاقتصادية التى تقوم عليها زرع الأرض ، ورعى قطعان الماشية .

وكانوا أثناء إقامتهم بمصر قد تعلموا من المصريين كثيراً من الفنون والصناعات الدقيقة — منها الحياكة والنجارة وسبك المعادن واستخراجها والصباغة والتلوين وفن البناء — وقد ظلوا يتوارثون

هذه الصناعات إلى عصر سليمان عليه السلام حتى غزا بختنصر فلسطين واستولى عليها وأخذ معه إلى بابل كثيراً من أهل هـذه الحرف والصناعات ـــ أسرى الى بلاده ! !

وكان للأب على أفراد أسرته مطلق السلطات فالأرض ملك له وفى استطاعته ألا يبقى أبناءه على قيـد الحياة إلا إذا أطاعوه وفى وسعه إن كان فقيراً أن يبيع بناته ليكن جوارى .

وكانت أنظمتهم تحتم على الفتاة أن تثبت أنهـا عذراء فى يوم زواجها وإلا رجمت حتى تموت . . . وكان الفسق محرماً على المرأة غير المتزوجة ممـا أدى إلى انتشار البغى فى الطرق العامة حيث كانت العزبات تعشن فى مواخير وخيام ونجمعن بين الدعارة وبيع السلع الصغيرة للمارة .

وللرجل الثرى حق الزواج بأكثر من واحدة — وإذا كانت الزوجة عاقراً أشارت على زوجها بأن يتخذ له خليلة خاصة لتنجب له أولاداً — وكان يتحتم على الأخ أن يتزوج أرملة أخيه مهما كان عدد زوجاته فإذا لم يكن للميت أخ فرض هـذا الواجب على أقرب الأحياء من أسرته .

أما الغالبية العظمى من الشعب فـكانت منصرفه إلى أعمال

فلاحة الأرض ورعى الأغنام وتربية الماشية وزراعة الكروم والنخيل وشجر الزيتون والتين وكانت أغلب معيشتهم فى الخيام بدلا من البيوت المبنية حتى لا يجدوا صعوبة فى الوصول على مراع جديدة .

وبدأت الضحية عندهم فى بادىء الأمر لاتقاء الخطيئة وكانوا يقدمونها من البشر ثم حل الحيوان محل الإنسان ثم صاروا يضحون بأول ثمرات القطعان ـ وباكورة الطعام من المنتجات الزراعية ثم انتهى الأمر فى عهد الأنبياء إلى الاكتفاء بالتسبيح والثناء على الله .

وكان الاعتقاد السائد أن لا يأكلوا لحم حيوان إلا إذا ذبحه كاهن وباركه وعرضه وقتاً ما على الآلهة ومن الغريب أن الحيض والولادة كانت كالخطيئة فى نظر اليهود يدنسان المرأة ويتطلبان تطهيراً ذا مراسم وتقاليد وتضحية وصلاة خاصة على يد الكهنة ! !

وكانوا يطلقون على أيام الصوم والعبادة عندهم اسم الأيام الحرم وفضلا عن عطلتهم الأسبوعية فى يوم السبت من كل أسبوع للعبادة كانت لهم أيام مواسم دينية أخرى فيها عيد بداية حصاد الشعير وعيد ختام حصاد القمح وعيد الكروم وعيد الفصح وهو عيد رأس السنة ومن تقاليدهم أنهم فى يوم الفصح

يذبحون حملا أو جديا ويأكلون لحومها ويرشون دمها على الأبواب إشارة إلى أنه نصيب الآلهة ولاختيارهم يوم السبت عطلة لهم قصة تتلخص فى أنه كان من تعاليم موسى عليه السلام أن ينقطعوا عن أعمالهم يوم الجمعة من كل أسبوع ويفردوه لطاعة الله وتطهير قلوبهم بتسبيحه وحمده على نعمه وآلائه — ولكنهم سرعان ما فضلوا عليه يوم السبت . . وقبل الله من لطفه هذا الاختيار .

ولم يكن القضاة وهم أصحاب الكلمة النافذة والسلطان الكامل على القبائل موظفين عموميين بل كانوا زعماء للعشائر أو أبطال الحروب — ولم يكن لهم ملوك فى ذلك الوقت لأنهم فى أول ظهورهم على مسرح التاريخ كانوا بدوا رحلا يخافون الشياطين والأرواح ويسجدون للأشجار والماشية ويقدسون الموتى ويركعون للنار ويعظمون الكواكب ولم يتخلوا قط عن عبادة العجل أبيس وغيره من الحيوان لأن هذه العبادات كانت لا تزال حية فى ذاكرتهم منذ كانوا يعيشون فى مصر — وظلوا زمناً طويلا يتخذون من هذا العجل القوى أكل الشعب رمزاً لآلهتهم ويصنعون له تماثيل صغيرة يتخذونها آلهة يعبدونها فى بيوتهم ؟!

وقد قاوم الأنبياء هذه العبادات التى كانت سبباً فى انتشار فوضى الشرك التى كانت تسود أرض الجزيرة والشام فى هذه الحقبة من

الزمن ـ ودعوا الناس ألا يعتمدوا فى عبادتهم إلا على الله وإقامة الصلوات وتقديم القرابين له وعلموهم مكارم الأخلاق ـ وسموا بعقولهم عن الخرافات والأساطير إلى تعظيم الله والاستغراق فى تقديسه .

قصة التلمود

وعجز اليهود عن أن يقيموا لهم له دولة وحكماً وطنياً لفقدانهم مقومات الحياة والوحدة والنظام وظل هذا حالهم حتى سنة ٤٤٥ قبل ميلاد المسيح فقام من بينهم أحد علمائهم وكهنتهم ويدعى « عزراً » ودعاهم إلى اجتماع عام خطير ـ استغرق سبعة أيام وانتهوا فيه إلى وضع قواعد حكم دينى سموه « التلمود » وأكثر ما يتضمنه شروح وأدب الحاخاميين على هامش التوراة وملخص الديانة اليهودية فى الإيمان بإله واحد « يهوه » وأن اليهود هم الشعب المختار !! وأقسموا على أن يتخذوه دستورهم ويسيرون على هدى مبادئه أبد الآبدين ؟

والتلمود يتضمن أساطير الأولين وقصص وأبحاث عقلية والنظام والاقتصادى والاجتماعى وضع بعد تجارب ألف سنة من حياة بنى إسرائيل .

ملل ونحل ! !

ثم ظهرت فى اليهود بعـد ذلك ملل ونحل مختلفة لـكل منها مذهبها الدينى فى انتظار المسيح المخلص الذى أشارت إليه كتبهم بأنه الذى سيتولى استرداد مملـكة اليهود إليهم — ويخضع لهم الملوك وتدين الأمم بسلطانه ؟!

وكانت كل فرقة من هـذه الأجناس تـكره الأخرى وتسفه عقائدها وسلوكها الدينى . . ولـكن مقتهم للأجانب والرومانيين وحقدهم ضد سائر سكان فلسطين من غير اليهود — كان يؤلف بين قلوبهم ويجمع بينهم وهذه الطوائف هى .

أولا — الصديقيوم — وهم طبقة الارستقراطيين وسدته .

المعبد وكهنته ويدعون أنهم يتوارثون مهنة الـكهانة منذ عهد داود وسليمان عليهما السلام وكانوا بحكم هذا الإمتياز الرسمى لهم الوجاهة والثراء ويعيشون فى حياتهم الخاصة كالحـكام الإغريق والرومان . . وأصحاب هذه الطائفة لا يؤمنون إلا بشريعة موسى عليه السلام ويرفضون ما عداها من الأديان وينكرون البعث واليوم الآخر .

ثانياً — الفريسيون — ومعناها — «المفضلون» أوطائفة المميزين

بتمسكهم بالروح الدينية وبالبعد عن مظاهر الحياة وترفها وتعد طائفتهم أقوى من الطائفة الصدوقية كما تفوقها عددا واتباعها من سواد الشعب حسنوا السمعة شديدوا الحرص على تفهم كتب أنبيائهم السابقين واتباع تعاليمها ولذلك كانوا يشعرون بكبرياء عن غيرهم من اليهود وينكرون على خصومهم الصدوقين تغالبهم المادى وانكارهم للبعث والحياة الروحية والتجارة بالدين ولم يكن بين أفرادها كثير فى مرتبة الرؤساء والوجهاء ولكنها كانت أسبق الطوائف اليهودية انتظاراً للمسيح .

ثالثاً — طائفة الآسيين ـ أو الأطباء الروحانيين وهى وان كانت أقل عددا من طائفتى الصديقين والفريسيين الا أنها أقوى منها عقيدة وصاحبة فلسفة روحية استقلت بطرق عبادتها وأسرارها وآرائها ولولا أنها تعترف بتقديم القرابين إلى الهيكل لما حسبت من الطوائف اليهودية واتباع هذه الطائفة يحبون التطهر والإغتسال ويسلكون فى الحياة مسلك التقشف والقناعة ويحرمون على أنفسهم الإمتلاك بأكثر مما يحتاجون إليه ـ وكانوا يؤمنون بالبعث وحساب الآخرة ويعتقدون بأن خلاص العالم سيتم على يد رسول منتظر اسمه المسيح !

رابعاً — والطائفة الرابعة هى السامرية ـ وأتباعها خليط من

القبائل اليهودية المنحدرة من أصل أشورى أو بابلى ولهم تقاليد خاصة منها عدم الإعتراف بكتاب غير التوراة والتهكم على كل من يقدس أورشليم أو يتعبد فيه لذلك استحكم العداء بينهم وبين الطوائف اليهودية الأخرى كما تعرضوا للاهانة والنكال وكانوا ينكرون مايؤمن به الصدبقيون من أن المسيح سيكون من سلالة داود وسيرد إليهم مجدهم ويجعل أورشليم عاصمة مملكة اليهود .

خامساً — وكان بين اليهود طائفة خامسة ـ تعيش فى وداعة وهدوء فى مدينه الخليل يقال لها جماعة « النذارين » وهم أصحاب فلسفة دينية وثقافة روحية عالية تربطهم بإله السماء لذلك كانت الطوائف اليهودية الأخرى تحقد عليها نظراً لما يتمتع أصحابها من تسامح فى الدين وحسن المعاملة والعزوف عن مظاهر الترف الدنيوى .

ومذهب هذه الجماعة يتلخص فى أن ينذر المرء نفسه أو ينذر إبنه بعد الولادة أو قبلها للدين ولخدمة الهيكل كراهية فى الدنيا وإبتغاء نيل ثواب الآخرة عند الحساب

وكان من صفاتهم الإيمان بالبعث والروح ولذلك برعوا فى الطب الروحانى وعدم شرب الخمر أو ملامسة النجاسات أو أجساد الموتى ويرون أن التقرب إلى الله بالعبادة خير من التقرب إليه بالذبح

ويحاربون البدع اليهودية ويتهكمون على كهان اليهود الذين كانوا لا هم لهم إلا المتاجرة بالدين .

وقد كان أنصار هذه الطائفة أشد الناس إيماناً بظهور المسيح ورسالته الروحية ويتوقعون أن المسيح سيكون من بينهم . ولذلك اتهمهم الرومان بالتعصب وصاروا موضع الكراهية من الحكام الرومانيين والكهنة اليهوديين .

الفلاسفة الثلاثة

وبينما كان (أرميا) أحد أنبياء بنى إسرائيل يعلن لقومه مبادئ التوحيد بأقوى الكلمات ويعرض عليهم شروط الإيمان بالله والإخلاص لذاته تعالى لنيل رضاه ورحمته التي وسعت كل شيء . كان بوذا فى الهند ينادى بقمع الشهوات ووقف « زارادشت » فى فارس يشرح مبادئه الفلسفية التي تدعو الإنسان إلى البساطة فى الحياة وإلى توثيق صلاته بالكون والطبيعة وقام « كنفوشيوس » فيلسوف الصين يصوغ الحكمة لأهله .

وما كادت مبادىء هؤلاء الفلاسفة الثلاثة ـ تنتشر فى بلدها حتى اعتقدهم الناس أنبياء أو آلهة ! !

بـوذا

وقد ولد بوذا قبل المسيح بستة قرون فى شمال الهند بالمنطقة المعروفة باسم مقاطعة «بهار» وكان والده من المحاربين الأثرياء ويتولى زعامة القبيلة . . وعاش بوذا حتى بلغ الرجولة فى عيشة راضية مترفة ناعمة . . ولـكنه كان يؤثر العزلة عن الناس والإستغراق فى تأمل الحياة الإنسانية التى كانت آلامها وأحزانها تعكر عليه صفو هنائه وتطيل تفكيره فى بحث أسباب قسوة الدهر وظلمة الأيام وفى لغز الحياة ومشكلة الوجود ! !

وقيل عنه أنه كان يخرج يومياً من قصره الفخم الـكبير ويسير وحده فى الطرقات يختلط بعامة الناس ويقف منهم على آلامهم المعيشية ويستمع إلى متاعبهم ـ ويشاهد الشيخوخة التى تسلب الإنسان قوته وتحرمه من متعة الشباب ـ ويفكر فى الموت المخيف وفى أسبابه الغامضة التى تجعل من الإنسان النشيط الحركة رمة بالية وعظاما نخرة ! ! ثم يعود فى المساء مغموماً سابحاً بأفكاره فى مأساة الحياة وما تطويها من نوازل وكوارث وظلم قاس .

وأقنع بوذا نفسه بأن هذه الحياة قوامها الآلام وليس فيها سوى

الشقاء وأن الواجب عليه أن يعمل للوصول إلى طريق للخلاص منها والنجاة من متاعبها .

زرادشت

وفى منطقة «أذربيجان» بالشمال الشرقى من إيران ظهر «زرادشت» وصوره الرواة بأنه كان رجلا روحانياً كرس حياته لإصلاح أمته وإنقاذ بلاده . . شرع يتأمل حياة الناس بغية الوصول إلى ديانة جديدة تلائم حياتهم وتسد حاجاتهم فتأمل الصراع المستمر بين الخير والشر وأعتقد أن الخير ليس سوى الله ـ وأن الشر هو الشيطان ـ فأهاب بالناس أن يختاروا أحد الطرقين . . إما أن يملأوا قلوبهم بالخير والنور ـ أو ينغمسوا فى الشر والظلمة .

ومن تعاليم زرادشت أن الروح لا تفنى وأنها تنعم وتشقى بلذائذ الحياة وأنها بعد الموت تحملها الرياح لتصل إلى الصراط وهناك ترى محا كمتها أمام ثلاثة قضاة فتوزن أعمالها من خير وشر .

وتنهى تعاليمه عن الفحشاء وتأمر الزوج وزوجته بالإستقامة والعفة وجعلت المرأة ـ الصالحة تقارن بالملائكة والزوجة المطيعة مثل ملاك التقوى ـ أما المرأة الخبيثة فهى أسوأ من الحية الرقطاء ـ وعلى هذا النحو حمل زرادشت أتباعه إلى إتخاذ آرائه الفلسفية رسالة دينية مقدسة .

ولما لم يستطع زرادشت أن يؤثر فى قومه بدعوته الجديدة ـ هاجر إلى بلاد فارس واستطاع أن يجعل أحد ملوكها الأقوياء وهو قورش ـ يؤمن به عندما شفى له جوادا كسيحا كان الملك يعتز ويتفاءل به !!

ولم يحل عام ٥٠٠ ق . م حتى كانت العقيدة الزرادشتية هى الديانة الأولى بين الإيرانيين وتولى الملك دارا تشييد مقبرة عظيمة لهذا الفيلسوف الذى مات مقتولا فى سبيل دعوته .

كنفوشيوش

وبينما كان « بوذا » فى الهند ينادى بقمع الشهوات ـــ كان كنفوشيوس مصلح وفيلسوف الصين يصوغ الحكمة لإنقاذ أمته من حروب المقاطعات بعضها على البعض ـــ ومن التحلل المريب وبعث الحياة من جديد على أساس التعاون البعيد عن الطمع الجشع وحب الذات .

ظهور المسيح

موطن المسيح

فلسطين . . هى أرض الأنبياء والصديقين والبقعة المقدسة التى بارك الله فيها وطلب إلى نبيه موسى عليه السلام أن يخلع نعليه عند دخولها . وهى موطن المسيحية ومكان مولد المسيح ومهد رسالته الروحيه ، والقبلة الأولى للمسلمين ومسرى الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام ومنها عرج إلى السماء .

فى شمالها توجد مدينه « عكا » التى اشتهرت فى عهد اليونان والرومان والصليبيون ونابليون واتخذها العرب فى الفتح الإسلامى مركزا لبناء سفنهم الحربية لغزواتهم البحرية إلى جزر البحر الأبيض المتوسط . . ثم مدينة « طبرية » على شاطىء بحيرة طبرية التى ترجع إلى عهد الرومان لأن تيبريوس قيصر بناها فأطلق عليها اسمه وكانت من قبل تسمى بحيرة الخليل ولها فى العالم المسيحى قيمة دينية كبيرة فحول قراها سار المسيح وبشر بدينه وجاءها حواريوه من بعده فاتصلت سيرتهم بالقرى والروابى التى تقوم على شواطئها .

وفى الشمال مدينة « الناصرة » التى انتسب إليها المسيح وهى مملوءة بالأديرة والكنائس المختلفة لجميع الطوائف المسيحية . . ومدينة الرملة المشهورة فى تاريخ الأمويين وفيها للآن منارة وقصر أثرى منذ عهد بنى أمية . . ثم مدينة اللدوهى من أقدم مدن فلسطين ويعزى — انشاؤها إلى قبائل بنى كنعان أول من سكنوا فلسطين.

وتأتى بعد ذلك مدينة القدس وهى المدينة التاريخية المقدسة المعروفة فى التاريخ القديم باسم (أورشليم) وقد أمضى فيها إبراهيم الخليل وأبنه اسحاق ثم يعقوب (إسرائيل) وداود وسليمان ثم المسيح شطرا يسيرا من حياتهم يبثون الدعوة إلى الإسلام وينهون عن الشرك . . ولا يكاد يخلو مكان فيها من أثر من آثارهم وذكرياتهم المجيدة . .

وعلى مقربة من القدس نجد مدينة « بيت لحم » التى ولد فيها المسيح عليه السلام .

ويلى القدس جنوبا مدينة « الخليل » وهى المنسوبة إلى سيدنا إبراهيم الخليل جد الأنبياء وعاش فيها آل عمران وزكريا ويحيى عليهما السلام ومكان مولد مريم البتول عليها السلام . . وعلى الساحل الجنوبى تقع مدينة «غزة» وهى من المدن القديمة التى بناها الكنعانيون،

وفيها مثوى جد الرسول ولذا سميت « غزة هاشم » .

أما صحراء النقب فليس فيها من المدن التاريخية ما يستحق الذكر وكذلك الحال بالنسبة إلي البحر الميت الذى كان يسمى من قبل ببحيرة « لوط » ثم سمى بالبحر الميت لأن الأسماك — والحيوانات المائيه لا تستطيع أن تعيش فيه لإرتفاع نسبة أملاحه عن مياه سائر البحار والمحيطات وإن كانت مياهه غنية عن غيرها بما تحويه عن معادن كثيرة .

وكان يسكن هذه البلاد نحو مليون نسمه يكونون قبائل عديدة متنافرة ينحدر بعضها من سلالة قوم إبراهيم واسحق وموسى وشعيب عليهم السلام ومنهم بابليون وثنيون وأشريون ومصريون يعبدون ملوكهم ويسخرون من العقيدة اليهودية ورومانيون يؤمنون بربوبيه الأمبراطور ويعبدونه لإعتقادهم أنه نسل الآلهة . استوطنوها جميعا منذ فجر التاريخ واستقروا فيها وعاشوا مع من وفدوا عليها من بلاد فارس واليمن ويهود مصر (العبرانيون نسبة إلى دخولهم فلسطين عن طريق عبورهم نهر الأردن) . ولهذا كانت فلسطين مقرا لمواطنين من مختلف الجنس

واللغة والتقاليد والعادات ، يتكلمون العربية والفارسية والأشورية واليونانية .

ولعل من حسن حظها أو من سوء حظها أن تقع بين مفترق الطرق بين شرق آسيا وأفريقيا والشمال والجنوب وبين عواصم النيل والفرات ودجلة وقد جر هذا الموقع إليها الرخاء الاقتصادى والربح الوفير لنشاط تجارتها ووفرة الحركة فى موانيها وازدياد السفن الوافدة عليها من مختلف الأقطار وهى فى طريق سيرها إلى أقصى الشرق أو فى عودتها الى بلاد الغرب كما جر إليها الغزوات التى انتهت الى دفع الجزية للمغتصب الدخيل ، وإلى شن الحرب دفاعا عن التوراة والزامير .

ويحدثنا التاريخ أن هذه البلاد الضيقة الرقعة الى الحد الذى لاتزيد فيه عن عشرة آلاف ميل ما كان يتوقع إنسان لها هذا الشأن الجليل أن تخلف وراءها أثرا يعد أعظم مما خلفته بلاد بابل وأشور وفارس واليونان والرومان فى التاريخ ، فقد كان اعداء فلسطين من الهمج يترصدونها دائما للقضاء عليها لأنها كانت الأرض التى تفيض لبنا وتنتج القمح والذرة والشعير وتجود فيها الكروم وتثمر أشجارها التين والزيتون والبلح اللذيذ .

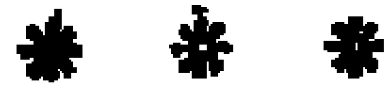
اسم فلسطين

وقد يكون من الطريف ، قبل أن نلم بتاريخ فلسطين ، أن نذكر كيف نشأ هذا الإسم وأطلق على هذا القطر . . إن كلمة فلسطين أصل معناها السامي القديم « الغرباء » أو « المحتلون » وقد عرفت به في زمن دخول العبرانيين الذين هاجروا إليها مع موسى عليه السلام فراراً من اضطهاد فرعون مصر ، وعبروا « نهر الأردن » إليها ، وقد كانت فلسطين تعرف قبل ذلك بأرض كنعان نسبة إلى قبائل الكنعانيين الذين نزحوا إليها من جزيرة العرب طلباً للكلاء والمرعى واستوطنوها في أحقاب التاريخ القديم أي منذ ألفين سنة وخمسمائة عام تقريباً قبل مولد المسيح . . ومنذ ذلك التاريخ صارت فلسطين عربية واندمج مسلموها ومسيحيوها وأهل الكتاب من سكانها في أمة واحدة تؤدي واجبها في نشر ألوية العلم والفضل وتثبت للعالم مدنية العرب وحضارتهم . .

فلسطين قبل المسيح

ويتضح مما تقدم أن الشعب الذي سكن فلسطين منذ القدم هم الكنعانيون وأحفادهم من بعدهم من العرب بوصفهم الشعب الأصيل الذي استمرت حياته القديمة متصلة بتلك البلاد بضعة آلاف من السنين

غير أن اليهود من العبرانيين الذين استوطنوها بعد ذلك لم يستطيعوا أن يحتفظوا بوحدتهم زمناً طويلا فقد أنقسموا على أنفسهم بعد وفاة سيدنا سليمان عليه السلام وقامت أثر ذلك دويلتان فى فلسطين أحدهما فى مدينة نابلس وعرفت بإسرائيل والثانية فى مدينة القدس وعرفت باليهودية .



ظهور المسيح

ولم يكن نفوذ هاتين الدولتين شاملا لفلسطين بل اقتصر عليهما وعلى ما جاورهما من قرى . . ولم يقتصر الأمر بين اليهود على ذلك بل نشب القتال بين دولتيهما وبين الكنعانيين تارة ومع غيرهم من الأجناس الآخرى التي كانت تعيش في فلسطين وبهذا كانت فلسطين مسرحاً للفوضى والاضطرابات والقتال زمناً طويلا من أجل السيطرة على البلاد .

واجتاحت فلسطين بعد ذلك موجات من الغزوات إستمرت حتى الفتح العربي الإسلامي ووقعت البلاد خلال تلك الفترة في قبضة البابليين والأشوريين والمصريين والفرس واليونان والرومان . وقام بختنصر ملك بابل بغزوها والاستيلاء على القدس وبتدمير بيت المقدس الذي بناه سليمان عليه السلام بعد أن استولى على كل ما فيه وما يحتويه من مجوهرات وأحجار كريمة ، سبي اليهود إلى بابل .

ثم خضعت فلسطين للنفوذ الفارسي وأمتدت هذه الفترة زمناً طويلا وبدأت فارس أثناء ذلك تتهيأ لاجتياح مصر والسيطرة عليها فرأت أن تستعين بيهود السبي في بابل على تحقيق هذه الغاية ، فأعادوهم إلى فلسطين ليكونوا مطية لهم في غزو مصر .

ثم جاءت بعد ذلك غزوة مصر لفلسطين فى عهد الملك شيشاق أول ملوك الأسرة الثانية والعشرين واستيلائه على بيت المقدس وسرقة ما تبقى فيه من حلى ومتاع ثم تبعهـا غزوة اليونان فالرومان واستمر الشعب الفلسطينى يتعاقب عليه الغزاة والفاتحون الذين تركوا وراءهم أسوأ الأثر فى حياة المجتمع وتقاليده وحضارته وعقائده .

ويتبين من هذا أن فلسطين البلد الشهيد كان يعيش على أرضها المباركة شعب متعدد العقائد والأجناس يزاحم أهلهـا أحفاد كنعان ويعانى حقداً بالغاً ضد الغزاة ويضرع إلى الله أن يخلصه منهم ومن تقاليد روما الباغية وقيصرها المتأله الطاغية ، ومن اليهود الذين يمنحون لأنفسهم من الامتياز ما يجعلهم سادة القوم لأنهم الشعب المختار وأن الله وعد أباهم « إبراهيم الخليل » ملـكا عظيما ليحكموا من خلاله جميع الأرض وجميع من عليها .

وقد كان يعانى أيضاً بجانب غطرسة الحـكام وخاصة أيام الحـكم الرومانى ، نزاعاً عنصرياً ذلك أن اليهود احتـكروا الدين وأقاموه على طقوس خالية من الروح متجاهلين كتب الشريعة وأحـكام التوراة .

وكان المتنقل فى أرجاء فلسطين (عام ٣٠ ق . م) يشعر

بالعداوات القائمة بين الشعب وملكه هيرودس الأكبر ، ويرى المشاجرات المستمرة التى كانت بين أهله بسبب نفاق أهل الدين وطغيان الرومان والإسراف الزائد فى الملاذ والمظاهر وحب الشهوات والإقبال على الماديات والربا الفاحش والتنافس العنيد بين الطوائف اليهودية من أجل أغراض دنيوية وفى الاتجار باسم الدين ببيت المقدس نفسه الذى حولوا أفنيته الخارجية إلى « بورصة » للتجار والمرابين تحت سمع وبصر الكهان اليهود الذين كانوا يكتمون بعض ما فى كتبهم بعدم ذكر نصوصها للناس عند الحاجة إليها كالبشارات بالأنبياء وصفاتهم ، وكحكم رجم الزانى ، وذلك بتحريف الكلم عن مواضعه بالترجمة أو النطق به على غير معانيه اتباعاً لأهوائهم أو لما يقدم إليهم من ثمن أو رشوة . . .

ويسمع الشكوى المستمرة من إرهاق الناس بالضرائب الفادحة التى كانت تجبى منهم بطريق الإلتزام ويتعهد بها من الجباة من يقومون بدفع أكبر قدر ممكن من المال فوق ما كانوا يدفعونه من ضرائب بيت الدين .

وقد رأى الشعب أنه أصبح يعيش فى عالم كله فجور وآثام وغطرسة ثراة القوم ونفاق من رجال الدين واضطهاد مستمر من

الموظفين ! وإنحراف ظاهر عن تعاليم موسى وشريعة داود وسليمان

وكان هذا الإنهيار الإجتماعى قد جعل الناس يحلمون بتغيير الحالة وتحسن الأيام وكان بعضهم يؤمن بأن عصراً جديداً سيبدأ نوره وتشرق شمسه عندما يتولى الأمر جيل جديد من المصلحين أو من الموظفين العادلين ذوى الأمانة والكرامة والعزة الإنسانية . .

ويؤمن فريق آخر بأن هذا العصر المنتظر يمكن أن يجىء بعد غروب الحكم الرومانى وزوال آثاره من الدنيا بأسرها بظهور ملك عادل منتظر يخلص الناس والشعوب ويأخذ بيدهم وينتشلهم من هاوية الظلمات إلى النور ويعيد تنظيم المجتمع على أساس من العدالة والإخاء والمحبة والتسامح ومحو العبودية وإستعباد الإنسان لأخيه الإنسان .

وفريق ثالث يرى أن علاج هذه الحالة يمكن أن يتم باللجوء إلى قيصر روما وأمبراطورها المعبود « أوغسطس » أو تطبيق المبادىء الإجتماعية فى الحياة اليومية التى تعيش فى ظلها روما

ولكن « أوغسطس » الذى كان معقد آمالهم ، وجنة أحلامهم وهو الملقب (بسيد العالم) لكثرة فتوحاته حتى حقق لبلاده أعظم إمبراطورية فى التاريخ كانت قد تبدلت حاله وأخذ يقاسى وهو فى سن الشيخوخة إنهيار كل آماله واندثار شرف أسرته أمام فساد ابنته

الباغية اللعوب التى ألهبتها شهوة الجسد ، فانطلقت الألسن ضدها تتهمها بالفساد والزنا وخيانة زوجها . .

ويشهد بعينه ــ إنهيار شعب الإمبراطورية المعبودة ، لانغماسه فى الترف والملذات وحب الشهوات حتى لم يعد أحد يرغب فى الإنضمام إلى الجيش . . ويرى العلاقات الجنسية الطليقة تحل محل الأبوة والأمومة . . ويقف مكتوف الحيلة أمام إنتحار روما نفسها التى وطد دعائمها طوال مدة حكمه ــ التى تزيد على نصف قرن ــ وهى تسير بسرعة فى طريق الفناء وهى منهوكة مضمحلة .

مريم وآل عمران

ولد المسيح فى أسرة فقيرة كريمة ، اذ اجمعت ثروتها كلها فإنها لا تكفى لإنشاء بيت متواضع من بيوت هذا العصر ، ولكنها كانت أسرة ممتازة فى قومها معروفة بالنسك والعبادة والإخلاص لله خالق الكون ومبدعه ، متصفة بالطهارة وقوة الإيمان والرزق الحلال الذى يأتيها عن طريق كد اليمين وعرق الجبين . .

ولم يكن أحد فى ذلك الزمان ، يتوقع أن هـذه الأسرة التى اصطفاها الله كما اصطفى نوحا وإبراهيم من قبل ، سيكون لها هـذا الفضل العظيم الذى ظهر للناس من بعد . . ففى هذه الأسرة توالت

خوارق العادات تعلن أن الله جلت قدرته وعظمت حكمته يخلق الأسباب كما يريد وأنه إذا قال لشيء كن فيكون . . فقد أنجبت نبى الله زكريا وعمران بن ماثان جدالمسيح لأمه وفيها ولدت مريم البتول بعد أن نذرت لتكون خادمة لبيت الله ثم ولادة امرأة زكريا وهى العجوز العاقر . نبى الله يحيي (يوحنا المعمدان) . . ثم كانت الحادثة الكبرى ومعجزته تبارك وتعالى وهى ولادة المسيح من غير أب ومن أم عذراء طاهرة .

كانت تقيم هذه الأسرة المكرمة (آل عمران) فى بلدة « الخليل » فى بيوت متواضعه خلت من كل معالم الترف ، تحوطها المزارع التى جادت على سكانها بالبساتين والحب والزيتون وكان من أكبر شبابها زكريا بن يوحنا ، وعمران بن ماثان وهما من حفدة نبى الله سليمان بن داود عليهما السلام .

واشتهر زكريا وعمران بين أهل القرية وأقرانهما الشباب بالتقوى والصلاح ووصفا بالعبادة الحقة والإخلاص لله فى خدمة بيت المقدس فى وقت كان فيه كل اليهود وكهانهم لا يؤمنون بالبعث ولا بالجزاء فى يوم الحشر ، بل وكانوا يلقنون فى الناس ما تقوله الأساطير من أن الآلهة خلقت الإنسان منعما سعيدا لكنه أذنب وارتكب الخطايا

فأرسل عليه الطوفان عقابا له على فعله فأهلك كافة الناس ولم ينجو منه إلا رجل واحدهو يهوذا اله بنى إسرائيل . . ولم يكونوا يتقدمون بالصلاة والقربان إلى الهيكل طمعاً فى جزاء الآخرة بل كانوا يتقدمون بها طمعاً فى الحصول على النعم المادية فى الحياة الدنيا . .

وكان زكريا وعمران يخرجان فى كل صباح إلى بيت المقدس للصلاة والعبادة وحث الناس بالوعظ والإرشاد وتعليمهم الهداية وقواعد الدين وأحكام التوراة والمزامير ونهضا يندان بالرشوة وإسراف اليهود فى ابتزاز أموال الناس باسم الدين وباتخاذهم الضرائب وسيلة يبتزون بها من الزراع والصناع والعاملين ثمرة كدهم وأفلحا فى تطهير المحاكات من الموظفين المرتشين، وحماية الضعفاء والفقراء من ضروب الإبتزاز والفاسدين . .

ولما بلغ كل منهما الثلاثين ، اتفقا على الزواج من أختين شقيقتين هما : ــ

ــ إيشاع بنت قانوز زوجة لزكريا .

ــ وحنة قانوذ زوجة لعمران .

وعاش كل منهما سنين طويلة ينعم بالقرب من زوجته الوفية وسارت أمامهم الحياة هنية ، ورغم معاشهما الضئيل من مهنة النجارة

التى حذقاها فى الصغر، كان يخرجان منه جزء صدقة للفقراء والمحتاجين.. وفؤادهما مملوء بالشكر والحمد لله .

ولما بلغ زكريا التسعين وخلعت الشيخوخة الشيب على رأسه بياضاً ، كما قوست ظهره ، انقطع للعبادة فى محراب جده داود حتى وافاه الوحى من عند الله وهبط عليه بالنبوة . . أما عمران فقد وقع الاختيار عليه ليكون إماما لأحبار اليهود فى بيت الله لما كان يتصف به عند الناس من حزم وعدل ودماثة فى الأخلاق ولأنه من المفكرين المتطهرين ذوى العقائد السليمة والإيمان القوى الراسخ والروح الطاهرة فى عدائه لبدع الرومان والوثنين من ذوى الروح العدائية للدين .

وكانت امرأة عمران تمنى نفسها بالولد الذى يبهج عليها حياتها ويؤنس وحدتها ويدخل عليها السرور فى وحشتها ويكون السمير الجميل ، وكانت كلما رأت الأطفال يلعبون أو يصيحون تحركت فى نفسها الرغبة إلى الأمومة التى حرمت منها طوال السنين فتبتهل إلى الله أن ينعم عليها بالذرية وأن تجد بجوارها من تغمره بعطفها وتسعده بحنانها . . وكلما نظرت أما تحمل طفلها أو طائرا يطعم فراخه إزداد شوقها إلى الذرية وتوسلت إلى ربها إن وهبها بالولد فتستصدق به على بيته محرراً لخدمته .

واستجاب الله دعاء امرأة عمران وشعرت بالجنين يتحرك بين أحشائها فارتاح فؤادها وهدأت نفسها وشعرت بالبهجة تفيض عليها وبالأمل والسعادة يملآن كل حياتها . . وفاضت عيون عمران من الفرح سروراً وخر ساجداً لله تعالى على واسع فضله وتوسلت امرأة عمران إلى ربها بالضراعة أن يتقبل نذرها فسألها عمران وقال لها: ياحنة إنك قد نذرت الآن مافى بطنك محرراً لخدمة بيت الله . . ولوحدث وكان المولود انثى فكيف يكون محررا لخدمة البيت لما يصيبها من الحيض والنفاس وهو ما يتنافى مع شريعة النذر الذى لا يصلح له إلا الغلمان ؟

ومرت الأيام وتوالت الأشهر ولكن المنية قد وافت عمران بن ماثان ؟ فاشتد حزن زوجته عليه وبكته طويلا ، ولكنه قضاء الله ولا راد لقضائه . . وانقضت مدة الحمل ووضعتها أنثى فداخلها الغم وازدادت حسرتها ولكنها عادت فاستغفرت ربها معتذرة قائلة : رب إنى وضعتها أنثى يتيمه وكان أبوها يتمنى أن يسعد برؤية فلذة كبده ويمتع به قلبه ، وأنت يارب أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى فى خدمة بيتك المطهر وإنى سميتها مريم) أى العابدة (وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) حتى تكون حياتها

وأفعالها مطابقة لإسمها وإنى رضيت بما وهبتنى به فتقبلها منى إنك أنت السميع العليم .

تلك كانت ضراعات (حنة) أم مريم عند ولادتها وقد تقبل الله نذرها وأجاب دعاءها كما جاء فى قوله تعالى : (فتقبلها ربها بقبول حسن) .

ثم حملتها وهى طفل رضيع وذهبت بها إلى بيت المقدس ووضعتها عند الأحبار - وهم يومئذ ثلاثون - وفاء لنذرها فتنافس الأحبار فى كفالتها لأنها ابنه إمامهم وولدت يتيمه ، وكل منهم يرجو خيراً لنفسه من وراء كفالتها لأنه يرى فى ذلك قربى منه وزلفى إلى الله . . فقال لهم زكريا عليه السلام . . وكان رأس الاخبار ونبيهم : إنى أحق منكم بكفالتها لأنى زوج - خالتها ووالدها أخ لى وصديق كما تعلمون ؟ فقالت له الأحبار : إننا لا نوافق على هذا الرأى لأن الأمر لو كان متعلقاً بأن يكون الكافل لها أحد أقربائها لتركناها لأمها لأنها أحق بها وأقرب الناس إليها منا أجمعين . . فلما اشتد الخصام والتنافس بينهم اقترح عليهم زكريا اجراء القرعة تحكم بينهم فتكون مريم عند من خرج سهمه . . ثم انطلقوا إلى عين ماء قريبة ، وقيل إلى نهر الأردن ، فألقوا أقلامهم فى الماء فرسبت جميعا وطفا قلم زكريا

وكان هو الكافل لها وذلك بارادة الله لتكون فى رعايته .

وأحضر زكريا لمريم المراضع من نساء بنى اسرائيل وأخذ يرعاها ويشرف على تنشئتها وتعليمها وهدايتها وتوفير أسباب سعادتها وتوجيهها الى العبادة الصحية حتى بلغت السن الذى تقوى فيه على خدمة المسجد ، فبنى لها محراباً (غرفه) فى المسجد وجعل بابه الى وسطه حتى لا يتمكن أحد من الصعود اليه إلا بسلم (مثل باب الكعبة) ولا يصعد اليها أحد غيره . . وكان يزورها كل يوم ويحضر إليها ما تشتهيه من الطعام والملبس وفاء بحقوق الكفالة وحقوق القرابة وحقوق الله وذلك تصديقاً لما جاء فى قوله تعالى . (وأنبتها نباتاً حسنا) أى أنشأها الله برعايته ونماها بتوفيقه ومحبته تنمية حسنة صالحة شاملة للروح والجسد وحصنها بأن نشأت فى بيت العبادة بكفالة نبى من أنبياء الله وجعل لها رزقاً مستمراً يأتيها من حيث لا تدرى ولا يدرى كافلها . فقد كان كلما ذهب اليها زكريا كعادته وجدها مشغولة بعبادتها مستغرقة فى صلاتها ولكن شيئاً قد استلفت نظره فإنه يجد عندها فاكهة الصيف فى وقت الشتاء وفاكهة الشتاء فى زمن الصيف فيسأل نفسه ؟ يا ترى من أين لها كل ذلك وهى الحبيسة فى محرابها المحبوسة عن أترابها ؟ ؟

ولما لم يهتد إلى ذلك السر العجيب سألها ذات يوم فقال لها .

من أين لك هذا يا مريم . . فأجابته العذراء : إنه من عند ربى يوافيني به من غير سؤال ومن غير جهد ولا عناء .. فأثار ذلك عجب نبي الله كما جاء في قوله تعالى : (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ، قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) .

وأيقن زكريا أن الله قد اختص مريم بمنزلة كبرى واصطفاها لخدمة البيت دون نساء العالمين وعمر قلبها بالتقوى والصلاح فصارت مضرب الأمثال وحديث الطهارة والعبادة بين الجميع .. ولكن تلك الكرامات التي خص الله بها مريم اليتيمة الفقيرة وإخلاصها في عبادة الله وتنشئتها على الإيمان ومحبة الله حركت في قلب كافلها نبي الله زكريا الشوق إلى الولد الذي يرثه ويرث مجد آل يعقوب ، ويكون الراعي الأمين من بعده والرادع لقومه لأنه يخشى بعد وفته أن ينغمسوا في الملذات ثم يعودوا إلى الفساد . . وتذكر أنه بلغ في الكبر وأصبح شيخاً فانياً وامرأته عجوز مثله عاقر ليس في نفسها للنسل رجاء .

وتوسل إلى ربه وهو عاكف على عبادته في المحراب أن يمن عليه بالذرية الطيبة الحسنة وكبر لديه الرجاء في استجابة الله لدعائه

بعد أن رأى بنفسه مبلغ رعايته تبارك وتعالى لمريم البتول كما جاء فى قوله تعالى : « هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء » .

وقد أجاب الله دعاءه فور طلبه وألقى إليه بالبشرى عن طريق الملائكة فنادته وهو قائم يصلى فى المحراب فى نفس المكان المقدس الذى كان يلتقى فيه بمريم .. ألقت إليه الملائكة بالبشرى مقرونة بالتسمية للاشارة إلى أن ذلك المولود سيحيي اسمه وذكره فى حياته وبعد مماته وبذلك تتحقق له الإجابة الكاملة للدعاء : « يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيي لم نجعل له من قبل سميا » .

فلما استمع زكريا إلى هذه البشارة الإلهية اعتراه العجب لما كان يتنازعه من عامل الرجاء وعامل اليأس ، وتاقت نفسه إلى أن تستزيد من لذاتها بما تسمع فى صدور هذه البشرى الحبيبة إليه والتى ساقها إليه الله فى المرحلة الأخيرة من حياته فقال : « رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتيا » . فأجابته الملائكة أليس الله الذى خلقك من قبل ولم تك شيئاً بقادر على أن يرزقك الولد .. مصداقاً لقوله تعالى : « قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً » .

وعاد زكريا يسأل ربه فى شوق وشكر ، أن يجعل له علامة تتقدم تحقيق هذه الأمنية ويعرف منها موعد الحمل بيحيى فقال : « رب اجعل لى آية » أى علامة فأجابه ربه . إن آيتك أن تعجز عن تكليم الناس ثلاثة أيام وأن أردت الكلام فلا تستطيعه إلا إشارة أو رمزاً مع ابقاء قدرتك على الدعاء والصلاة والتسبيح فى أيام عجزك عن تكليم الناس .

وتمت الكرامة السماوية لزكريا وتحقق له وعد الله ورزق على الكبر بيحيى ورآه بعينى رأسه غلاماً زكيا أحكم الله عقله واستنبأه صبياً ، وكانت ولادته قبل مولد المسيح بنحو ستة أشهر على وجه التقريب .

وأقبل يحيى منذ صباه على العبادة وخدمة محراب جده ووهب عقله للعلم والدين والعكوف على دراسة كتب أجداده الأنبياء فسدد الله خطاه حتى استجلى غوامضها وأصبح المحيط بأصول التوراة وأسرارها والقاضى الفاصل فى أحكامها وشرائعها ، وكان يتهجد وينفر من التجمعات ويعيش فى زهد وتقشف ظاهر احتقاراً لمتاع الدنيا الرخيص .

ولما بعثه الله نبياً وظهرت دعوته أخذ يتحدى ما كان عليه

بنو إسرائيل وغيرهم من سكان فلسطين من خطيئات وفساد ويدعوهم إلى الإيمان بربهم ويحذرهم من عقابه .. وإلى التطهر من نجاساتهم بالماء والإغتسال لذلك سموه بيحيي المغتسل أو يوحنا المعمدان كما جاء فى الأناجيل .

وأبى يحيي أن يتزوج وعاش فى نفسه هيئة الزهد وإنكار الذات وفعل الخير حتى مات وحدث أن ذهب يحيي فى صباه لزيارة بيت المقدس لأول مرة فى حياته ، فشاهد المجتهدين من الأحبار والرهبان واليهود يعبدون الله داخل الهيكل وقد انقطعوا عن مشاغل الدنيا وملاذها وأنصرفوا إلى العبادة مختارين وليس عليهم من الملابس إلا مدارع من الشعر وبرانس من الصوف تستر أجسادهم . فراقه منظرهم وهم يعبدون الله على هذه الصورة الجميلة الخالية من كل زينـة .

ثم رأى والده زكريا عليه السلام جالساً وسط فريق كبير من الرهبان والأحبار والعلماء اليهود يلقى عليهم أحاديثه الدينية المعتادة ، وكان المحور الذى يدور عليه حديثه هذا اليوم هو خوف العقاب من الله ورجاء الثواب فى الحياة الآخرة لأن من اليهود طوائف تعتقد أن كل شيء ينتهي عند الموت ويسخرون من عقيدة الدار الآخرة ويقولون

عنها إنها من أساطير الأولين فجاس يحيي مع الأحبار واستمع معهم إلى والده وهو يؤكد لهم أن هذا البعث لن يكون بعد الموت مباشرة بل إن الموتى سينامون إلى يوم القيامة الذى لا يعلمه إلا الله وحده، ولكنه تسبقه علامات تنبيء به ، منها كسوف الشمس فتهوى النجوم وتزول السموات وتدك الجبال والمبانى وتجف مياه البحار وتتطاير لهبا وتهلك جميع المخلوقات ثم ينفخ فى الصور فتعود الأرواح وتلبس أجسادها فتبعث الناس من قبورها ، ثم يتجلى الخالق لعباده والملائكة تحمل الكتب التى دونت فيها أقوال وأفكار وأعمال كل فرد من الناس منذ بدء الخليقة حتى يوم البعث . . ثم توزن الأمور ويحاسب كل انسان على ما قدمت يداه فمن كثرت سيئاتهم فهم مع الأشرار والكفرة المرتدون فى جهنم وبئس المصير . . ومن زادت حسناته فهو بجوار ربه فى جنات النعيم مع الأنبياء والمرسلين والصالحين والمجاهدين فى سبيل الله .

ويتقدم الأنبياء فيشهدون على من رفضوا رسالتهم ويشفعون لمن آمنوا بربهم وصدقوا بكتبه ورسله .

وأخذ زكريا يصف لهم الجنة مأوى الصالحين ومقر الأنبياء والصديقين . فقال أنها حدائق واسعة تظللها الأشجار المثمرة وفيها

فاكهة وأنهار من لبن وعسل وسكانها يحلون فيها بأساور من الجوهر ويلبسون ثياباً من سندس واستبرق ويتكئون على الأرائك متقابلين ويتزوجون بحور العين ويطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق من ذهب ، وفيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين جزاء من عند ربهم لأنهم عبدوه وأطاعوه .

وقد كانت تجيش فى صدور الناس فى ذلك الوقت آمال غامضة بدخول الجنة ولكنهم كانوا يخافون النار دون أن يعلموا بأهوالها أو تتمثل لهم ضروب التعذيب التى يلقاها الكافرون والعاصون فوصفها لهم زكريا وصور لهم وسائل العذاب فيها وأنواعه لأن درجات العذاب فى جهنم تختلف لذلك جعلت سبع طبقات فى كل طبقة من العذاب ما يتناسب مع الذنوب التى ارتكبها أصحابها . . وقال لهم : إنه لا يستطيع أحد من الناس أن يستريح أو يفر من النار إلى أبد الدهر إلا بالإيمان والعمل الصالح ومحاربة الشيطان . .

ورأى زكريا أن الشيطان لم يكن فى خيال العامة إلا رمزاً أو خيالا فأخذ يصوره لهم بأنه مخلوق حقيقياً مغضوب عليه وملعون هو ومن اتبعه ، وأن الشيطان يغشى كل مكان فى العالم يغوى الناس ويدفعهم إلى الكفر بالله وإلى ارتكاب المعصية بضروب شتى من

المغريات ، ويزين لهم كل الرذائل وأنواع الشر . . وأن من طباع الشيطان إعجابه الشديد بالنساء لذلك يتخذ من إغرائهن وبسماتهن ومفاتنهن أدوات قوية يغوى بها ضحاياه ، وأنه لولا رحمة الله لما نجا أحد منه . . لذلك فإن كل معصية أو ذنب يرتكبه إنسان هو من عمل الشيطان . وإجرام فى حق الله وأنه لهذا يعد إثما ويكون من أصحاب النار إذا لم يتب إلى الله ويكفر عن سيئاته ويعمل صالحاً .

استمع يحيى إلى كل هذا وخرج من المسجد مسرعاً وقد انتوى فى نفسه شيئاً لم يبح به ولما عاد إلى بيته طلب من أمه أن تصنع له لباساً كالذى يرتديه الأحبار لأنه قرر الذهاب إلى بيت المقدس والعكوف على عبادة ربه فى محراب جده داود مع الصالحين والأحبار والكهان واليهود ... فانتظرت أم يحيى عودة زكريا من بيت المقدس وروت له ما حدث بالتفصيل فابتهج زكريا مما سمعه وأحس لأول مرة بالسعادة تفيض حواليه ، ولكنه أراد أن يقوى عزيمة ابنه ووحيده ويتأكد من قوة إرادته وإخلاصه لله فى الطاعة والعبادة . . فناداه : يا يحيى تعال يابنى فلما حضر لديه قال له : يابنى ما الذى يدعوك إلى الرهبنة منذ الآن وهل لديك المقدرة على ذلك .

فأجابه يحيي قائلا : يا أبتى لقد دعانى الحق لعبادته اتقاء غضبه ورغبة فى نيل رضاه .. ياأبتى ألم تقل لنا بالأمس : إن الجنة هى المأوى للزاهدين والمتقين والعابدين الله كثيراً . وأن جهنم أعدت للكافرين والمنافقين . . وأن من اتبع هواه وأخذته زينة الحياة الدنيا كان من الضالين المعذبين فى النار .

فقال له زكريا : نعم يا بنى ، وما قلت إلا الحق ، ولكنى خفت عليك كثرة الإنقطاع لأنك ضعيف البنية لصغر سنك ولست فى قوة احتمال الرهبان والأحبار .

فبكى يحيي وزرقت عيناه الدموع.. فأخذ زكريا برأسه ووضعها بين يدية وأخذ يقبله ويضمه إلى صدره فى حنان . . ثم نادى زكريا امرأته وكلفها أن تصنع لأبنها اللباس الذى طلبه .

وقد كان يحيي عليه السلام ، حسن الوجه جميل الصورة ، لطيف المعشر ، لين الجانب حلو الحديث رقيق الصوت قوى الحجة والإيمان مخلصاً لله زاهداً فى الحياة متفانياً فى طاعته شديد الغيرة على دينه قوى البأس على المرائين شديد القوى ضد المنافقين .

وقد أنبىء صغيراً كما جاء فى قوله تعالى : « وآتيناه الحكم صبيا »

٢:٥٣

ولما بعثه الله وأمره تعالى أن يأمر قومه من بنى إسرائيل ، بخمس من الخصال .. قام يحيى يدعوهم بالحسنى إلى طاعته عز وجل، وتنفيذ أحكامه السماوية والمحافظة عليها وكان ينتهز كل فرصة لإجتماعاتهم وأعيادهم فيذهب أو يسبح إليهم ليعظهم ويخطب فيهم قائلا :

يا قومى : إن الله خالق السموات والأرض يأمركم أن تعبدوه حق العبادة ولا تشركوا به شيئاً وأن تذكروا نعمته عليكم فتسبحوه وتسجدوا له ، وأن تقيموا له الصلاة ولا تفرطوا فيها وأن يكون صيامكم لله وأن تقولوا الصدق وتنشدوا الحق ولا تكذبوا على الله . . فمن اتبع منكم هذه الأحكام نال الرضا من الله ونجا من غضبه ومن عذابه فى النار .. ومن رغب عنها واتبع الشيطان أضله وكان من المغضوب عليهم .. فاتقوا الله فى أنفسكم يرحمكم ويرزقكم ، وانصروه ، ينصركم ويثبت أقدامكم ويتت عليكم ويجعلكم من الفائزين بجنات عرضها السموات والأرض .. يا قومى لا تغرنكم الحياة الدنيا إن هى إلا حياة اللهو ومتاع الغرور .

بداية الحمل

فى المسيح

أخلصت مريم فى خدمة البيت المقدس وفى عبادتها لربها ورزقها يأتيها من عنده تبارك وتعالى . . وبينما هى تتعبد كعادتها فى المحراب مستغرقة فى الذكر والطاعة ــ وكانت قد جاوزت الخامسة عشرة من عمرها وبلغت مبلغ النساء ــ اضطربت فجأة وانتبهت على صوت الملائكة تخاطبها وتبشرها ــ قبل أن يكون المسيح فى بطنها أو حملت فيه يامريم : إن الله إختارك وطهرك وقبلك محررة لخدمة بيته دون نساء العالمين رغم أن ذلك كان مقصوراً على الغلمان . . فالزمى طاعته وأخلصى لربك بمزيد عبادته والإستغراق فى تعظيمه وشكره.. وصل له مع سائر المصلين .

يا مريم : إن الله يبشرك بالولد الصالح وسيكون من المقربين إليه وله المنزلة الرفيعة فى الدارين والمكانة السامية والإحترام الثابت فى النفوس ويعلمه ربه الكتابة والدين الصحيح وأسرار الشرائع التى نزلت على موسى وسائر الأنبياء السابقين . . ويكلم الناس فى الطفولة

وكهلا - أى سيعيش إلى أن يكون رجلا - ويؤيده برسالة جديدة (الإنجيل) تهدى إلى الحق والإيمان السليم وترشد الناس إلى العمل الصالح وتنجيهم من عذاب ربهم الأليم ، ويبعثه رسولا إلى قومه بنى إسرائيل كما جاء فى قوله تعالى : (يا مريم . إن الله اصطفاك وطهرك . واصطفاك على نساء العالمين . يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين) « إن الله يبشرك بكلمة منه أسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ، ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين » ، « ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولا إلى بنى إسرائيل » .

فلما سمعت مريم هذا الكلام . . طابت نفسها واستأنست بفضل ربها عليها بهذا الرضاء والاصطفاء والاختيار وهدأ خاطرها أنها ستكون آية تنير السبيل أمام المؤمنين .

كيف حلمت مريم

وفى اليوم الموعود الذى إجتباها ربها له خرجت مريم لتملأ قلتها . . وانطلقت بها بعيدة عن محرابها وعن زملائها فى خدمة المسجد ، إلى أن دخلت المغارة التى فيها بئر الماء . . ففوجئت بملك من عند الله (جبريل) تمثل لها فى صورة بشر ، فلما فزعت منه

واستعاذت بالله منه لأنها ظنته فاجراً لعوباً أو معتدياً أثيماً ، فقالت: « إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ! »

فخاطبها جبريل بعد أن سكن من روعها وطمأنها قائلا : يا مريم لا تخافى منى فأنا رسول من عبد ربك ، بعثنى لأبشرك بأن إرادته قد تمت وستحملين الآن بأمره وبكلمة منه ، غلاماً زكياً ونبياً فتساءلت مريم متعجبة : وكيف يكون لى غلام ولم يمسنى بشر أى ولم أتزوج بعد ولم أرتكب أية معصية ! !

فأجابها جبريل : يا مريم هذه إرادة الله قد تمت الآن . . ولله أن يخلق ما يشاء وسيجعل من إبنك الذى تحملين فيه منذ الآن ، آية للناس وهادياً لهم إلى إتباع الحق والإيمان . . ثم مضى جبريل واختفى عنها بعد أن نفخ فيها . . وذلك مصداقاً لقوله تعالى فى سورة مريم: « واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً فاتخذت من من دونهم حجاباً فأرسلنا اليها روحنا (جبريل) فتمثل لها بشراً سوياً .قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً قال إنما أنا رسول ربك لأهبك غلاماً زكياً قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغياً قال كذلك . قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيا » .

وهذه الآيات الكريمة تؤكد أن المسيح عيسى بن مريم كلمة ألقاها الله إلى مريم العذراء « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » . . وولادة عيسى من غير أب ومن أم طاهرة ناسكة كرست حياتها كلها للنسك والعبادة والإخلاص لله وحده ، أقصى ما يمكن من تكريم بشرى ، وإعلان لعالم الروح وإحياء لها بين قوم أنكروها وزعموا أن الإنسان جسد لا روح فيه ! !

* * *

وحملت مريم . . وحدث تغير ملحوظ فى حياتها فقد أصبحت تميل إلى الإعتكاف فى محرابها وتحب العزلة والإنفراد عن زملائها فى خدمة بيت الله وذلك خشية شكوكهم فيها أو رميها بالاثم والفساد ! وهى تقاسى من جزاء ذلك الآلام النفسية الشديدة .

ولما ظهر الحمل وأحست بالجنين يتحرك بين أحشائها داخلها الغم وازدادت حزناً على نفسها لما تنتظر من كلام الناس فيها وتطاول ألسنتهم عليها ، ولكنها كانت تستسلم للبكاء وأصبحت لا يطيب لها طعام أو شراب ولا يهنأ لها نوم . . شاردة البال مشغولة الفكر لما تعلمه من أن بنى إسرائيل لن يكفوا عن رميها بالمنكر والخطيئة !!

وكان أول من رأى دلائل الحمل عليها إن عم لها يدعى يوسف النجار وهو زميل لها فى خدمة المسجد ومن الشبان الصالحين للنذورين فاستعظم الأمر .. ولم يدر كيف يفاتحها فيه ، فكان كلما أراد أن يرميها بالمنكر تذكر فى الحال تقواها وصلاحها وطهارتها وإخلاصها فى عبادة ربها . . ولما اشتد به الهاجس فاتح زوج خالتها فى الأمر زكريا عليه السلام) .. ولم يصدق زكريا النبأ فى بادىء الأمر لأنه يعلم براءتها .

وأنها لم تغب عنه ساعة واحدة وذهبا إلى مريم فروت لهما قصتها مع جبريل . . فأكبراها وهنآها على اصطفاء ربها واختيارها لأن تكون أم لنبي كريم . .

فلما ثقلت مريم ودنا نفاسها أوحى الله تعالى اليها أن مسجد بيت المقدس بيت من بيوت الله الذى طهر ورفع ليذكر فيه اسمه فاذهبى إلى مكان تأوين فيه حتى تضعى وليدك . . فتركت مريم محرابها وذهبت للاقامة فى بيت خالتها زوجة زكريا عليه السلام . .

وقد كانت مريم فتاة رائعة الجمال مشيقة القوام ناهدة الصدر ، ذات يدين دقيقتين وقدمين صغيرين رشيقة فى مشيتها ، عيناها واسعتان متألقتان بوهج الشباب ، وشعرها ناعم طويل يصل الى

عجزها ، وأهابها ناعم رقيق وشفتاها كأوراق الورد الأحمر ، وإذا ابتسمت أو ضحكت افتر ثغرها عن أسنان نضدة بيضاء .

ولما أحست مريم بعلامات الولادة وبألم المخاض (الطلق) أوحى الله إليها أن تترك بيت أهلها وتذهب إلى مكان بعيد حتى لا تلد بين قومها فيرجموها أو يقتلوها هى وطفلها . . وخرجت فى جوف الليل حتى لا يشعر بها أحد وسارت بعيداً عن قريتها فلما أخذ منها التعب مأخذه وأحست بشدة الألم جلست تستريح وأسندت ظهرها إلى جذع نخلة يابسة ليس لها سعف وكانت النخلة فى موضع يقال له « بيت لحم » وتذكرت نفسها وحيدة فى هذا المكان ليس معها من يساعدها أو يؤنسها . . فاستسلمت للبكاء وقالت : ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً » فناداها جبريل وكلمها بإذن ربه : يامريم أن الله الذى أصطفاك وشملك برحمته وأسبغ عليك من نعمته لن ينساك . . فأنظرى بجوارك تجدى جدول ماء عذب لتشربى منه . . وأنظرى خلفك تجدى النخلة اليابسة دبت فيها الحياة وتدلى سعفها وأثمرت وأرطبت فى الحال وذلك من فضل الله عليك فإذا شعرت بالجوع حركى جذعها تساقط عليك رطباً طرياً فكلى منه لتستعيدى بعض ما فقدت من قوة أثناء الوضع وقرى عينا واطمئنى قلباً بفضل الله عليك . . . وإنى أوصيك بأمر ربى أنك إن رأيت من البشر

أحداً وسألك عن ولدك أو لامك عليه، أن تقولى له : « إنى نذرت للرحمن صوماً (أى صمتاً) فلن أكلم اليوم أنسياً » .

الله يحجب عيسى عن ابليس

ولما ولد المسيح عليه السلام إنكفأت جميع الأصنام ، التى اتخذها الناس أرباباً يعبدونها من دون الله على رءوسها ، وتحطمت بعضها ، ففزعت الشياطين التى كانت تسكنها وتقيم فيها لتخاطب وتضلل من يعبدونها وتزيد فى كفرهم ، ولجأوا إلى رئيسهم إبليس عليه لعنة الله وغضبه ، فلما رآهم إبليس على هـذه الصورة فزع من اجتماعهم وسألهم عن سر مجيئهم إليه دون دعوته ! !

فقالت له الشياطين . يارئيسنا أن حادثاً عظيما قد وقع فى الأرض فاهتزت له الأصنام وانكفأت على رءوسها مما قد يؤدى إلى تحقيرها عند الناس أو ينصرفون عن عبادتها فلهذا جئناك ! !

فاغتاظ إبليس من هذه المفاجأة وشعر بالحرج البالغ أمام مرؤسيه الشياطين فكظم غيظه وأمرهم بالعودة إلى أماكنهم وأصنامهم حتى يتولى بنفسه استجلاء الحقيقة ومعرفة ما حدث ثم يبلغهم به ! !

واختفى عنهم أبليس مدة ثلاثة ساعات ثم عاد ذليلا حقيراً إلى

أتباعه الشياطين وأبلغهم أن هذا الحادث العظيم هو بسبب ولادة المسيح عليه السلام وأنه مر بالمكان الذى ولد فيه فرأى الملائكة من حوله يحرسونه وأمه ويسبحون لله ، فلما أراد الوصول إليه منعته الملائكة وسدت أمامه كل الطرق والمنافذ فلم يتمكن منه .

وهذا يؤيد حديث الرسول عليه الصلاة والسلام الذى قال فيه كل ابن آدم يطعن الشيطان فى جنبه بأصبعه حين يولد إلا عيسى بن مريم حجبه الله تعالى عنه فذهب يطعن فطعن فى الحجاب .

وقد قال الله تعالى محذراً أبليس بعد أن عصى أمره واستكبر لأن يسجد لآدم مع الملائكة فطرد من الجنة : « ان عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين »

الملائكة تحرس المسيح

وفى ليلة ميلاده عليه السلام كان جماعة من الرعاة يحرسون قطعانهم فى الحقول المجاورة لبيت لحم ، فشاهدوا نوراً قوياً من السماء يضىء المكان القريب منهم . . فذهبوا فرأوا جمهور من الملائكة تتولى العناية بالمسيح وأمه ، ويسبحون بحمد الله قائلين « المجد لله فى

الأعالى وعلى الأرض السلام وبالناس المسره » فعاد الرعاة وهم يمجدون الله ويسبحونه كما سمعوا من الملائكة .

وبعد مضى بضعة أيام وفد على أورشليم « القدس » جماعة من علماء وفلاسفة المجوس فلاح لهم فى الطريق نجم فى السماء عرفوا من مطلعه أن المخلص المنتظر المنبأ به فى كتبهم قد ظهر ، فعزموا على الرحيل إليه لرؤيته وحملوا معهم هدايا من الذهب والمر واللبان .

وعلم هيرودس الأكبر ملك اليهود بنبأ هذه الجماعة فاستدعاهم إليه ليقف على حقيقة الأمر . . فلما حضروا بين يديه أبلغوه أن المولود الجديد هو ملك اليهود المنبأ به ! !

وعاد هيردوس وسألهم عن الهدايا التى يحملونها للمسيح وسر إختيارها من الذهب والمر واللبان فأجابوه بأن الذهب سيد المتاع كله وهذا النبي سيكون سيد أهل زمانه . .

والمر يستعمله الناس فى التئام الجروح وتجبير الكسور وهذا النبي يشفى الله على يديه كل سقيم ويبرئ كل مريض . .

أما اللبان فان دخانه هو الوحيد الذى يأخذ فى الارتفا إلى عنان السماء لأن هذا النبي يرفعه الله إلى السماء ولا يرفع فى زمانه أحد سواه ! !

ففزع هيرودس مما سمع وتملكه الخوف واستولى عليه الرعب وخشي على نفسه وملكه من مستقبل هذا الوليد . . ودعا إليه كهنته اليهود وعلمائهم وسألهم أين يولد المسيح فأجابوه بأن النبوءات تقول أنه يولد في بيت لحم . . فتصنع البشاشة وأظهر الفرح أمام جماعة المجوس ورجاهم أن يذهبوا إلى بيت لحم حتى إذا رأوا المولود أسرعوا في العودة إليه حتى يذهب معهم ويسجد للمسيح ! !

قال لهم هذا ولكنه قد انتوى في نفسه أمراً لم يبده وهو التخلص من المولود بقتله . .

وذهب العلماء المجوس إلى مكان مولد المسيح وقدموا هداياهم إلى مريم العذراء ولكنهم في طريق العودة سلكوا طريقاً آخر إلى بلادهم دون أن يعرجوا على هيرودس أو يبلغوه بمكان المسيح .

عودة مريم الى اهلها

وبعد أن يسر الله لمريم أسباب ولادتها وإستعادت قوتها بعد الضعف الذي أصابها عقب الولادة عادت إلى بيت خالتها أم يحيي ومعها طفلها المسيح النبي الكريم . . ولكن سرعان ما شاع أمرها بين أهل قريتها وطار خبرها في الحال . . فأتى إليها الأهل والجيران مسرعين ومتسابقين والتفوا حولها سائلين ومستجوبين ! !

قالوا : يا مريم لقد جئت لنا شيئاً فظيعاً من أين هذا الطفل ومن أبوه يا أخت هارون أى شبهوها بمريم أخت هارون وموسى فى التقوى والطهر ، ما كان أبوك رجل سيء الخلق ولا كانت أمك زانية ! !

ولكن مريم التزمت الصمت ولم ترد على اتهاماتهم الباطلة وقالت لهم : يا قومى إنى نذرت لربى صوماً فلن أكلم أحد فى هذا الموضوع أو أرد على مفترياتكم واتهاماتكم الآثمة وإذا أصريتم على معرفة الحقيقة فاسألوا إبنى هذا وأشارت إليه ! !

فنظر الجمع من أهل القرية واحبار اليهود إلى بعضهم مندهشين متعجبين من كلام مريم ظانين أنها أرادت أن تهزأ بهم وتسخر منهم !! وقالوا لها فى تهكم ظاهر « يا مريم كيف نكلم من كان فى المهد صبياً » وهم بعضهم أن يقذفها بالحجارة .

وفى غمرة حماسهم وهياجهم على مريم المسكينة المظلومة البريئة الطاهرة فوجئوا بما أزهلهم وأخرس لسانهم . . فقد أنطق الله سبحانه جلت قدرته ابنها الطفل الرضيع بالحكمة يدافع عن أمه فقال : « إنى عبد الله آتنى الكتاب وجعلنى نبياً . وجعلنى مباركاً أينما كنت . وأوصانى بالصلاة والذكاة ما دمت حياً وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً

شقياً والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً » .

فلما سمعوا هـذا الـكلام بهتوا منه وأخذتهم الرجفة والرهبة وانعقدت ألسنتهم أمام هـذه المعجزة الـكبرى والبرهان الساطع والحجة القوية ليوقنوا أن مريم بريئة من كل ظن آثم أو فرية ظالمة اتهموها بها .

وأنفرجت شفاه آل عمران وأسرعوا بالدعاء والحمد لله على جزيل فضله ورحمته ورفع زكريا يد الضراعة والشكر إلى ربه الرحمن الرحيم الذى أظهر براءة وطهارة ربيبته مريم .

وقال زكريا لمن حوله : يا قومى أنـكم ظننتم بالطاهرة العذراء كل السوء وطاوعتم شيطانـكم بأن دليل اتهامـكن لها قائم أمامـكم وهو طفلها .. وهل لا تعلمون أن الله خالق هذا الـكون ومبدعه لقادر على أن يحيى الموت وهى رميم . . فأنطق ابنها الرضيع بما يؤكد لـكم ما عرفتموه فى مريم من نسك وعبادة وليثبت لـكم أنه ولد من غير أب وأنه نبى من عند الله إلى بنى إسرائيل . .

فقال بعض الأحبار : يا زكريا ، هل نبت زرع من غير بذر .

قال زكريا : نعم .

فقالوا له : وهل تنبت الشجرة بغير غيث .

قال زكريا : نعم .

فعادوا وسألوه : وهل يولد الطفل من غير أن يكون له أب .

فابتسم زكريا وقال : يا قومي . ألم تعلمون أن الله عز وجل أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر . . . وأنه سبحانه وبقدرته الآلهية أنبت الشجر من غير غيث . . ثم خلق آدم وامرأته من غير ذكر وأنثى ! !

فأجابوا بصوت واحد : هذا ما نعلمه حق العلم . . ثم عادوا وسألوه قائلين ! ! ولكن العادة جرت وكذلك العلم الذي درسناه يؤكدا لنا أنه لا يمكن أن تحمل أنثى بدون ذكر فهل لك من جواب على ذلك ! ! .

قال زكريا : يا قومي ... اتقوا الله وخافوه بعد الذي سمعتوه : « أن مثل المسيح عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » ولله أن يخالف العادة بالمعجزة التي يجريها في وجود رسول أو على يد رسول . . . ثم أين دليلكم المنطقي على صحة ما زعمتموه . فارحموا أنفسكم ولا تكونوا مخالفين للعقل السليم . . وأعلموا أن الله اصطفى مريم وأختارها من صفوة آل عمران ودون نساء العالمين

لتكون موضع آيته الكبرى فى هذا الوجود . . أبعد كل ذلك لا تصدقون ؟ ؟ « أن الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين » .

وذهبت مريم بطفلها إلى بيت خالتها لتقيم فيه — لأن والدتها كانت قد انتقلت إلى جوار ربها منذ سنين — وهى قريرة العين منشرحة الصدر مثلوجة الفؤاد لتعيش مع ابنها الذى تعهدته يد الله بالعناية والرعاية .

وصارت مريم حديث الناس فى دورهم وفى أنديتهم وذاع أمر ابنهما فى كل القرى والبلاد المجاورة لها وانتشر خبر ما نطق به من حكمة وبلاغة أكدت للناس أنه النبي المنتظر صاحب الشأن الخطير فأكبروا شأنه وتوافدوا من كل صوب على دار زكريا لرؤيته والتبرك به وللتأكد مما يروى عنه أنه ليس بحديث خرافة ابتدعه آل عمران لستر فعلة مريم أو لاظهار براءتها . .

وقد كانت ولادة المسيح من آل عمران وظهوره من بلدة « الخليل » مفاجأة مزهلة لهيرودس الأكبر ملك اليهود فى ذلك الوقت . . فأصد أمره بقتل جميع الأطفال الذين يولدون فى بيت لحم أو الخليل والبلاد المجاورة لهما ممن لا تتجاوز أعمارهم السنتين متوهما أن المسيح لا بد أن يكون أحدهم ! !

أما شعب فلسطين فقد قابل بشرى مولد المسيح بالفرح والغبطة والأمل الكبير المعقود على حياته لأن مجتمعهم كان يؤمن بالمسيح المنتظر وبموعده في تلك الحقبة من الزمن ليخلصهم من الحياة المتنوعة الضلال التي يعيشونها ومن ألوان الرق والاستعباد وتسلط الكهنة عليهم ومن الفوارق الطبيعية التي بدأت تنتج بينهم حياة حديثة . . فالدعة والنعيم للأغنياء والأجانب وأهل الرومان والكهان ، والكدح المتواصل والحياة الشاقة المضنية للغالبية ، ومن حياة الضنك والعذاب الموقوفة على الفلاحين والضعفاء بينما الرجال والنساء من ذوى اليسار والأجانب، سواء في الشغف بالحلى والزينة والترف وحياة اللهو والاستهتار ومفاسد الحياة ! !

ونما إلى علم الشعب ما قرره هيرودس الطاغية من قتل الأطفال الأبرياء بغية التخلص من المسيح ، فأعلن سخطه واحتجاجه ضد هذا الملك الفاجر المنافق عدو السماء ، ونادى بسقوط هيرودس خادم الاستعمار وذنب الرومان :

وأقامت الناس الصلوات في كل مكان وأرغمت الكهان على التضرع إلى الله أن يحفظ المسيح بعنايته حتى يؤدى رسالته وينقذهم مما هم فيه من بؤس وخطايا .

ورأى زكريا أن حياة مريم والمسيح أصبحتا فى خطر كبير وخاف عليهما من غدر هيرودس وبطش رجاله فطلب من مريم أن تهاجر وابنها إلى مصر بلد الخـــيرات والكرم وملجأ الأنبياء والصالحين .

قال زكريا : يا مريم إنى وجميع المؤمنين والصـالحين نخشى عليك وعلى حياة ابنك المبارك من بطش هـذا الملك الظالم عدو الله وعـدو الناس أجمعين ورأينا لا نجاة من بطشه إلا أن ترحلى عن فلسطين إلى مصر المباركة لتكونا فى مأمن من غدره ولأنه قرر التخلص منك ومن ابنك بالقتل . . وسأبعث معك بأن عمك يوسف النجار ليكون عونك وأنيسك فى الطريق .

هجرة مريم والمسيح الى مصر

تسللت مريم مقنعة لتغادر المدينة فى جنح الظلام حتى لا يراها أحد ، والألم يملأ قلبها الطاهر ، والأرض تميد تحت قدميها وهى ترى نفسها وحيدة مسلوبة الأمر بعد أن كانت تحلم منذ ساعات بالحياة الهنية وسط أهلها .

وضمت الطفل إلى صدرها ثم قبلت فمه الباسم وهى تغمغم : كلا

إن الله لن ينسانى وسيكلأنى برعايته ويحفظنى وابنى . . وجاءتها الشجاعة فركبت حمارها يرافقها ابن عمها يوسف النجار ابن يعقوب بن ماثان. كان ذلك فى فبراير عام ٣ قبل الميلاد !! وفى اليوم التالى ، وقبل أن ترسل شمس الشروق أشعتها فتملأ الكون بضيائها . . كان خبر رحيلها قد انتشر فى المدينة وروع الأهالى النبأ وهم لا يكادون يصدقون وتناثروا كالنهر الذى حطم سده القوى . . وساد الهرج والمرج كل مكان وأغلقت الحوانيت فأدرك الناس أن كارثة قد هبطت على فلسطين .

وعرف هيرودس مصدر هذه الثورة وخيل إليه أن هوة عميقة سوداء قد فتحت تحت قدميه لتبتلعه فى أعماقها . . وأن العالم قد غدا فى نظره صحراء جدباء موحشة وأن الظلام يحوطه من كل مكان .

وانبثت جنوده المدججة بالسلاح تلوح بهراوات غليظة فى وجه الجماهير الثائرة الملتهبة وكانت قد حاصرت قصر هيرودس وتجمعت تحت نوافذه وهى تصرخ بكل قواها : "ليسقط الملك . . اقتلوا هيرودس عدالله اقتلوه . . اقتلوه ! ! وتجمعت الحاشية للدفاع عنه وهى لفرط ذعرها من غضبة الجماهير ، أصبحت مشلولة الفكر لا تدرى ماذا

تقترحه لهذا الدفاع وضد تيار العداء .. بينما الهتافات العاتية ترتفع مزمجرة :

— نريد رأس هيرودس وحاشيته ! !

ولم يكن من طبيعة هيرودس الفاسدة أن يخضع للحق أو لنداء الضمير . . فأمر قواته المسلحة أن تواجه العاصفة .. ووقعت الطامة.. وتحول الموقف إلى معركة رهيبة وإنقلب إلى ساحة قتال بين المؤمنين بالمسيح المنتظر وأنصار هيرودس الطاغية ودوت الشوارع بصرخات مروعة من فرقعة الأسلحة التى كانت تحصد الأرواح . . وغرقت تلك الصيحات وسط صرخات القتلى وارتطام أجسادهم بالأرض..

وخفتت جلبة الشوارع تدريجياً ليسودها الصمت الرهيب كأنما الدنيا أصبحت خرساء أو كأن الهواء قد فقد كل قوته على حمل الأصوات . . ولبست المدينة ثوب الحـــداد على الضحايا البررة . الأوفياء . . وبات العمل الوحيد لمن يحيا فيها من الناس أن يدفنوا موتاهم الشهداء .

وراح الساخطون على الشعب ، من أهل الرومان ، يقلقون مضاجع الناس تارة بالتفتيش وتارة بالقائهم فى غياهب السجون الموحشة جزاء دفاعهم عن مريم والمسيح ! !

حياة الأسرة فى مصر

وصلت الأسرة المقدسة إلى مصر ، عن طريق صحراء سيناء ودخلوها من العريش ثم إتجهوا غرباً إلى الزقازيق حتى عبروا النيل الخالد الذى يفيض بالخير والبركة،وظلوا سائرين إلى وادى النطرون. وأخذت تنتقل من بلد إلى بلد وحظيت فيها بضروب الحفاوة والتكريم من المصريين ، ولكن ذلك لم يقض على ما حل بها من آلام الوحدة والحنين إلى الأهل والوطن ..

وحلت بمدينة أسيوط القديمة التى كانت تقع عند سفوح الجبال بجوار الضفة الغربية للنيل وكانت مدينة عظيمة البناء لكثرة ما فيها من المعابد التى بلغت مساحتها ألف فدان ، غنية بخيراتها وبمباهجها ، حافلة بالحدائق الواسعة والقصور الضخمة الرحيبة التى يمتلكها كبار التجار والموسرين والوجهاء الذين ينعمون وحدهم بالخيرات ورغد الحياة . . وهبطت فى قرية « مير » وأقامت فيها بدار للضيافة يمتلكها أحد أبناء الصعيد الأثرياء واسمه « دهقان » وهى الدار التى أقيم مكانها الدير المحرق .

وقيل فى الآثار : أنه لما نزلت مريم والمسيح أرض مصر انكفأت أصنامها وتحطمت كما جاء فى نبوءة أشعياء القائلة :

« هوذا الرب راكب على سحابة سريعة وقادم إلى مصر فترتجف أوثان مصر من وجهه ويذوب قلب مصر داخلها »

* * *

عاشت مريم فى مدينة أسيوط يرهق أعصابها مناخها القاس وسماؤها التى لا تعرف السحب وبأرضها التى لا تكاد يرتسم عليها ظلها وشمسها الملهبة وقيظها الخانق ولم تجد تسلية تشغيل وقتها سوى غزل الكتان لتأكل من ربحه وتنفق منه على إبنها .

أما يوسف فكان يقيم مع الرجال من نزلاء الدار ويكتسب قوته مما تصنعه يداه لأهل القرية من مهنة النجارة التى برع فيها منذ صباه .

تعهدت مريم ابنها المبارك بالعناية والرعاية ونشأته على التقوى والمعرفه فظهرت منه فى صباه من الأعمال ، ما دل على نبوته وروحانيته . . وأنارت الطريق أمام رسالته الجديدة لينقذ بها قومه الذين سيطرت عليهم المادة فأعمت أبصارهم وغلقت قلوبهم عن الهدى والحق وغلبت عليهم نزعات الحياة الدنيا دون الآخرة .

وكانت الأسرة خلال فترة مقامها التى تبلغ نحو عشر سنوات ، قد إختلطت بأهلها وإندمجت معهم فى الحياة وشاهدت كثيراً من

من تصرفاتهم وتقاليدهم فى الحياة ولمست منهم العادات والعقائد التى سمعتها عنهم فى التوراة !

وكانت كلما خرجت الأسرة إلى السوق ، أمتلأت على سعتها بالناس وهم فى لهفة لمشاهدة الطفل الجميل الذى كلم الناس فى المهد ولرؤية أمة العذراء التى طبقت شهرة جمالها وتقواها البلدان .

وكان المسيح كثيراً ما يحادث والدته عن حياة الرفاهية التى يعيشها ثراة القوم من المصريين ويقارنها بحياة البؤس والقسوة التى يحياها ارقاؤهم . . وإن كنا لا نستطيع أن نؤكد فى معرفة تامة المؤثرات التى أثرت فى نفسه ، إلا أنه مما لا شك فيه أنه كان يتساءل عن اللطف والرقة والمجاملة التى يتحلى بهـا هؤلاء القوم وانحطاط همجية نفوسهم نحو الأخذ بيد عامة الشعب والتخفيف عنهم بالتخلى عن بعض أنانيتهم فى سبيل إدخال البهجة ولين الحيـاة أمامهم ! ! وهو فى ذلك إنمـا يعطف على حال أولئك الفلاحين الأرقاء الذين يعملون فى حقول أصحاب الملكيات وليس بينهم من يملك شبراً واحداً فى هذه الأرض . . والعمال الحفاة الأقدام العراة إلا من سترة بالية ، وهم يخوضون المياه الراكدة لجمع حزمات كبيرة من أعواد البردى التى تنمو فى المستنقعات المختلفة . . والصناع الذين يقومون

بصنع الأثاث الفخم لبيوت السادة الوجهاء والأرائك يصنعونها للملوك بصفائح من الذهب ويطعمونها بالأبنوس والعاج ثم هم يعيشون في بيوت حقيرة رطبة لا تزورها الشمس ولا يعرفها هواء ، وليس لهم من الطعام إلا الخبز الجاف وقطع الجبن المخلل القديم !! بينما السادة الوجهاء ينعمون داخل مساكن غاية فى الفخامة والأبهة ولها مظهر لطيف ترتاح إليه النفوس ، فالقاعات الفسيحة التى يجلسون فيها ملونة باللون الأزرق كالسماء تسبح فيهـا النجوم وتحمل أسقفها أعمدة من المرمر أو الجرانيت على هيئة ساق زهرة اللوتس ليكون شبيهاً بالطبيعة وكذلك زينوا أرضها بمناظر شديدة الخضرة تمثل نباتات متعددة يتخللها الماء ويسبح فى جداولها السمك بين أعواد من القصب والزهور المتمايلة .

وكانت الأسرة تقارن ذلك البذخ والترف بحياة المثالين والفنانين الذين يعملون الساعات الطوال تحت الشمس المحرقة والجو الخانق القاسى ، فى نحت تماثيلهم من الحجر الضخم الصلب أو من الخشب النادر ويلونونها لتصبح مطابقة لصور أصحابها العظام !!

وتتعجب لحرص المصريين ومهارتهم فى بناء مقابرهم ومعابدهم وتأثيثها بنقش مناظر من الحياة اليومية على جدرانها وتفننهم فى اتقان

رسمها وتلوينها ، ومما كان يتركه أقارب الميت من القرابين والمأكل والمشرب لتجدها الروح عند عودتها !! لاعتقادهم بأن روح الميت تعود إليه لتزوره فلا بد أن تجد معها بعض مما كانت تتمتع به في الحياة الدنيا !!

ولعلها أيضاً كانت تتساءل عن تلك الاحتياطات المادية لخلود النفس وراءها ما علمته عن المصريين من أنه لاهم للأحياء منهم إلا الإحتفاظ بالموتى بالتحنيط البارع العجيب ، وأن كل جيل يمضى يترك خلفه سكاناً من الأجساد المحنطة !!

وكان المسيح كلما خرج مع رفاقه الصغار ليلهو معهم خارج الدار . . وتطلع إلى اليمين أو اليسار لا يرى غير معابد رهيبة موحشة مظلمة مزدحمة بالأصنام القائمة والتماثيل الضخمة المزعجة وهي جالسة وأيديها فوق ركبها ، ورجال برءوس كلاب أو حيوانات مفترسة . وتماثيل أخرى لمعبودات وآلهة مختلفة وكلها تحكى بلغة هيروغليفية غير مفهومة . . أشياء لم تعد معروفة من تاريخ حياتهم .

وكانت حياة مريم ونظام عبادتها وصيامها ، مجال تساؤل ومحل استغراب جميع المحيطين بها أو المقربين إليها ، لأنها تخالف في طقوسها وتقديسها لذات الله تبارك وتعالى ، ما تفاهم عليه أهل

مصر ، وما اعتقدوه فى إثنين من الآلهة أحدهما (رع) الذى كان عندهم أعظم الآلهة ولم يكن هذا الإله سوى رمز مقدس للشمس التى تبهر البصر بضيائها فى السماء الصافية وتمدهم بالحياة الدائمة ، وقد كان من الطبيعى أن يدخل ذلك فى روعهم الاعتقاد بأن هذا الكوكب الحى الذى لا يموت، يجب أن يكون إلها فعبدوها وأقاموا لها أفخم المعابد!!

وآلها آخر هو (أوزيريس) الذى يمنحهم الغوث وييسر لهم حياة مباركة إذ المعروف أن للمصريين منذ بدء الحياة كانوا يعتمدون على الزراعة فكان كل كفاحهم لأجل البقاء يدور حول الزراعة وما تجود به من حاصلات ونعم . . وقد بث فيهم هذا الاحساس روح الاعتراف بالجميل فأدخلوا على ديانتهم لوناً جديداً هو عبادة (أوزيريس) الذى لم يقهره الموت . . ذلك أنهم رأوا أن الحبة عند زرعها تنبت وتخضر وتأتى ثمارها بحبات كثيرة فتكررت بذلك — فى اعتقادهم — معجزة الحياة المتجددة التى لا يمكن أن تموت وأدخل ذلك فى روعهم أن هذه النباتات المخضرة تذوى كل عام وتتراءى لنا ظهرها كأنها ماتت وفارقت الحياة ولكنها لا تلبث أن تعود مرة أخرى إلى حياتها ونضرتها فلا بد أن تكون إلها وسموه (أوزيريس) رمزاً للموت ثم الحياة الأخرى . . وقد كانوا فى أعيادهم يرمزون إلى (أوزيريس) بشجرة تدلى منها سنابل

القمح دلالة على أن الحياة التى لا تفنى تخرج من جسده فتفيض على الناس بالبركة والخيرات والنعم الجزيلة .

وفى ذات يوم ذهبت مريم والمسيح ومعهما التقى الورع يوسف النجار إلى أحد المعابد القريبة لزيارتها ، فقوبلت من كهنتها بالإجلال والإكبار ، لأنهم يعلمون قدرها ومنزلتها وما اشتهرت به من تقوى وصلاح ، من المصريين المسافرين أو العائدين من « أورشليم » .

وتحدثت مريم إلى الكهنة عن كثرة أصنامهم وتماثيلهم المختلفة الأشكال والألوان وأفرادها بالعبادة والتقرب إليهما بالشفاعة من دون الله خالق الكون ومبدعة والرزاق الوهاب ؟

وسمعت من الكهنة أنهم يعبدون الله إله السموات رب كل شىء المالك لكل الخلائق لم يخلق ولم يتجزء ولا تراه الأعين ويعلم ما تكنه الضمائر وما تخفيه الصدور . وأما هذه الأصنام والآلهة فما هى إلا رموز تدل على ذاته العليا وصفاته الأزلية !!

وكانت مريم كثيراً ما تتزاور مع نساء المدينة وتعاونهم فى نسج الأقمشة الكتانية التى كانت كثيراً ما تستخدم فى لف المومياءات المحنطة وتتعجب لبراعتهم الفائقة فى نسج الأقمشة الحريرية الموشاة لتستعمل ستائر للقصور أو سقف تظلل حدائق السطح فى بيوت الفراعنة والوجهاء .

وراءها عناية المرأة بزينتها فكن يلبسن كالرجال تماماً ويخرجن حاسرات الوجوه بلا نقاب ويعتصبن بالعصائب ويتطيبن ويضفرن شعورهن أو يرسلنها على أكتافهن ويتقلدن بالحلى المصنوعة من الفضة أو الذهب ويلبسن الأقراط والخواتم المحلاة بالأحجار الكريمة ويزججن الحواجب ويكتحلن وكانت مرآتهم من المعدن النقى الجيد الصقل كالذهب والفضة ، وكن يعتنين بتربية أولادهن وتعليمهم حب الوطن والتمسك بالديانة والمثابرة على العمل وتحمل المشاق . .

وانطبعت فى ذاكرتها صورة لن تنساها عن حزن المصريين لوفاة أحد ملوكهم . . كانوا يلبسون ملابس الحداد ويبطلون الولائم والحفلات مدة إثنين وسبعين يوماً متوالية ويقيمون لروحه الصلاة رجالا ونساء ويحثون التراب على رءوسهم ويمتنعون عن أكل اللحم والعنب وخبز القمح إمعاناً منهم فى الحزن . . ومتى جهز المحنطون جثمان الملك بعد مضى أربعين يوماً على وفاته حولها فى تابوت إلى القبر . . وتولى أحد الكهنة ذكر محاسنه ومناقبه وعد للناس فضائله وما كان له من خدمات وطنية جليلة وانتصارات حربية . . ولما لم يجد الكاهن من يعارضه فيما قاله . . أصدر إثنان وأربعون قاضياً حكمهم فى الحال بدفنه مع الاحترام اللائق بالملوك العظماء . . لأن بعض الملوك كان يحرم من هذا الاحترام فى الدفن لسوء سلوكه وقبح

تصرفاته فكانت الملوك على جلالة قدرها تخشى هذا اليوم وتسلك في حياتها سبيل العدل والانصاف وتتحلى بالرأفة والرفق بالرعية خوفاً من محو اسمائهم من آثارهم التى شيدوها مدة حكمهم وبذلوا فيها النفس والنفيس .

وفى ذات يوم . وكان المسيح فى نحو الثامنة من عمره ، خرجت به مريم فى نزهة إلى المزارع القريبة المجاورة ، وبينما كانت مريم جالسة فى ظل شجرة كبيرة وارفه لتمتع نفسها بمنظر الثيران تجر المحاريث والجمال وهى تنقل الأحمال والبقر والغنم والماعز قد تجمعت من رقعة واسعة من الأرض لترتوى وتستريح من حر الطريق . . إذا بالمسيح يسرى إليها نبأ سرعان ما فزعت له مريم وظهر على وجهها دلائل الألم لما أصاب صاحب ضيافتها . . لقد أخبرها أن بعض المساكين الذين يأويهم « الدهقان » فى دار ضيافته ، قد تآمروا عليه البارحة فسطوا على خزانة ماله واستولوا على كل ما كان مودعاً فيها .

وعند عودتها . . عرفت مريم أن صاحب الدار ، قد اكتشف المكيدة ولكنه لم يهتد بعد إلى معرفة الحقيقة أو شخص السارق .. ولاحظ المسيح حيرة الرجل وحزنه الظاهر على سرقة أمواله . . فمال المسيح على أمه مستأذنها فى كشف الحقيقة ولما وافقته مريم تقدم المسيح

إلى « الدهقان » وقال له :

— لا تحزن على ما أصابك وهدىء من روعك ، فإن مالك المسروق سيرد إليك بإذن الله لو أجبتنى إلى ما أطلبه .

فقال الدهقان فى دهشة ولهفة : مرنى بما شئت أيها الملاك الصغير .

قال المسيح — أريد أن تجمع لى الآن كل نزلاء الدار .

وأسرع الرجل فى تنفيذ الطلب ، وهو لا يكاد يصدق ما سمعه ، ولما اكتمل عقد جميع من فى الدار طاف عليهم المسيح ثم أشار إلى رجلين من بينهم أحدهما أعمى والآخر مقعد ثم طلب إلى الأعمى أن يحمل على عاتقه زميله الكسيح وكان ذلك على مرأى من الجميع الذين كانوا ينتظرون معرفة النتيجة لأنهم فى لهفه وحيرة من قصد المسيح .. غير أن الأعمى تلكأ فى الأمر وقال المسيح بصوت كله مسكنه :

— إنى لا أقوى على حمله نظراً لمرضى وضعفى .

فقال له المسيح — كيف ضعفت اليوم عن حمله وقد قويت على ذلك البارحة .

فلما سمع الأعمى هذا الكلام خارت قواه واصطكت أسنانه وهوى على الأرض وأخذ يبكى كالأطفال ويهذى بعبارات غير واضحة ،

والناس من حوله يضحكون ويسخرون منه .

ولم يتمالك الأعمى زمام نفسه بعد أن انهارت أعصابه فطلب الصفح عنه مقابل إعترافه بما حدث ثم قص عليهم كيف اتفق مع زميله الكسيح على سرقة الخزانة وكيف حمله البارحة واستعان ببصره على الاهتداء إلى الكون المخبأ فيها المال وسرقاه فى غفلة من الجميع..

وبعد أن أرشدهم إلى المكان الذى خبأ فيه المال المسروق وتسلمه صاحبه فتقدم الدهقان بنصف هذا المال إلى مريم مجاملة لها على حسن صنيعها ولكنها رفضت كل رجاء من قبوله .

فعاد الرجل ورجاها فى أن تقبله كهدية منه لابنها المسيح . . فقالت له فى لطف كريم : إننى أشكرك على كريم عواطفك وكيف يقبله ابنى وهو أفضل منى وأعظم شأناً ، بعد أن رفضته أمه ؟ ! وعفا صاحب الدار عن السارقين واكتفى بطردهما من داره . وما أصابهما من لكمات وضربات الحاضرين .

العودة الى فلسطين

وبينما كانت الأسرة المقدسة فى مصر تعيش وحيدة بعيداً عن الوطن ومحرومة من رؤية الأهل تنتظر وعد الله ومكتوبة . . كان

هيرودس الأكبر قد أصيب بمرض عضال استمر معه نحو ثلاثة أشهر ذاق خلالها مر العذاب وألواناً من الآلام والأوجاع وهو طريح فراشه الفاخر ، لا يقوى على الحركة أو على النطق والكلام وفقد كل سيطرة على نفسه . . فتصدر منه حركات بهلوانية ويهذى بكلمات وألفاظ هستريه ، كأنه مجنون . وأخذ جسمه فى الهزال حتى صار كالليمونة الجافة .

وفى أيامه الأخيرة عانى شدة وعذاباً كبيراً من سكرات الموت والناس من حول جسده ، الذى لم يعرف إلا الخطايا والشهوات ، يتظاهرون بالحزن والألم والاكتئاب وهم فى سرائرهم يتضرعون إلى الله أن يعجل عليه لتهدأ نفوسهم من طغيانه وتتطهر الأرض التى دنسها بفساده ومجونه وتجف منها الدماء التى كان يسفكها إرضاء لغريزته وإشباعاً لنفسه الشريرة . .

وعندما تأكد الناس أنه لفظ الانفاس الأخيرة ، وذهبت عنه روحه الشريرة وأحرقوا جثته الحقيرة ، إعتراهم الفرح والسرور وتبادلوا النبأ بالقبل والتهانى وتقديم القرابين إلى الله راجين منه سبحانه وتعالى أن يعيد عليهم حياة الوئام والعيش فى سلام وإن يحقق لهم الأحلام بظهور المخلص الموعود وأن يقر أعينهم برؤية عودته إلى وطنه . .

وفى نفس الليلة التى مات فيها هيرودس ، رأت مريم رؤيا جميلة اسكنت نفسها وملأت فؤادها نوراً ويقيناً . . فقد رأت فى منامها أن ملاكاً كريماً يطلب منها أن يعجلوا فى العودة إلى أرض الوطن التى أخرجوا منها مهاجرين لأن هيرودس عدوهم الأكبر قد مات .

وهبت مريم من نومها فرحة طروبة وقلبها مشغول بالفكر ولسانها يكثر من آيات الحمد والشكر لله حتى لاح نور الصباح . .

وكان يوسف قد استيقظ من نومه على صياح الديكة وتسبيحها لله بصوتها الجميل وتأهب للصلاة وإذا بصوت مريم تناديه : يايوسف أبشر واشكر الله فقد هدانا من فضله وآتانا فرجة ثم أقبلت عليه وفى عينها دموع الفرح وروت له ما رأته فى المنام .

وسجدت مريم شكراً لله على واسع رحمته ورضوانه ثم نهضت مسرعة إلى ابنها المسيح وأيقظته وأخذت تقص عليه الرؤيا وهى منشرحة الصدر مقرورة العين مثلوجة الفؤاد ، وتضمه فى عطف وحنان وتمطره بقبلاتها على جبينه المشرق .

تهلل المسيح فرحاً وغمره شعور بالسعادة أحس به لأول مرة لأنه سيعود إلى أرض وطنه وموطن أجداده وينعم بالحياة بالقرب من أهله الذين عرفهم بخياله عندما كانت أمه تحدثه عنهم ، ويشاهد بيت

المقدس الشريف الذى طالما تاقت نفسه الصافية وقلبه الطاهر إلى رؤيته والتمتع بعبادة ربه فيه كما كانت تفعل أمه وجده عمران .

واستعدت الأسرة للرحيل وتجهزت للسفر ، وانتشر النبأ فى كل مكان ، فخرج إليهم أهالى المدينة جميعهم الكبير فيهم والصغير والعظيم منهم والحقير لتوديعهم حتى آخر حدود المدينة . . والدموع تملأ عيونهم حزناً على فراق مريم ويوسف والمسيح الملاك الصغير .

وانطلق الركب الصغير معتمداً على الله ، وقد أمسك يوسف بلجام حماره بعد أن وضع عليه الأحمال ، وركبت مريم حمارها واحتضنت أمامها المسيح . . وظلوا فى سيرهم ليلهم ونهارهم بجوار نهر النيل ، يستمتعون بخرير مياهه كأنها الموسيقى الحالمة ويتمتعون بالطبيعة الساحرة والمروج الخضراء ويطالعها النضيد وظلوا سائرين متتبعين مجرى النيل حتى جاءوا « بابليون » مصر القديمة وأقاموا بضعة أيام فى المكان المقام عليه الآن كنيسه أبى سرجه . . ثم استأنفوا الرحلة إلى مدينة عين شمس بالمطرية ، وقد كانت أشهر وأقدم المدن المصرية وتمتاز بمكانتها .

وأقامت الأسرة عدة أيام عند شجرة جميز كبيرة تعرف بشجرة العذراء ، ومن هناك انطلقوا عائدين إلى فلسطين سالكين نفس

الطريق الذى ساروا فيه عند هجرتهم إلى مصر ، وكان يتعاقب على ذاكرة مريم طوال الطريق ، صور من حياتها وفرارها إلى مصر وبعدها عن أهلها وسط قوم غرباء عنها فى كل شىء وتتذكر الليالى المضطربه التى قضتها وهى راضية بما تأتى به الحياة والأقدار قانعة بالرزق اليسير .. كانت تتذكر كل هذا فتتقد فى صدرها ثورة ويقوم فى خاطرها عراك شديد ، حتى إذا انقضى الليل وبدأ الشروق ببهجته وروائه وهى ترى تحور ألوانه وتبدل مرائيه ، استدلت على أفكار الأمس ستائر النسيان وكأن لم يكن منها شىء .

فى بلدة الناصرة

واتخذت الأسرة من بلدة « الناصرة » بفلسطين مقاماً لها ، ولم يعرف إلا القليل عن نشأة المسيح فيها وليس لدينا من الوثائق التى تشير إلى لون حياته أو نوع التعليم الذى تلقاه فى سن الثانية عشرة وهى السن التى عاد فيها مع والدته من مصر ، والغالب أنه تفقه على أيدى علماء الخليل وتلقى عنهم أحكام الشريعة اليهودية وفقه التوراة ودراسة كتب النبيين وتاريخ الشعوب .

ويقول عنه إنجيل لوقا ، إنه كان يتردد على المجمع الدينى فى بيت المقدس ويجلس وسط الأحبار والعلماء يستمع إلى تلاوة الكتاب

المقدس ويبدو عليه السرور حين يسمعه وقـد أنطبعت فى ذاكرته الأقوال الواردة فى أسفار الأنبياء والمزامير بنوع خاص .

وعندما بلغ الخامسة عشر جاء إلى نهر الأردن ليمعمد على يد يوحنا المعمدان وهو نبى الله يحيى بن زكريا عليهما السلام وكان يأتى من البيداء إلى نهر الأردن يدعو الناس إلى التوبة والتطهر من النجاسات . ولم ينقض على هذا اللقاء بين عيسى ويحيى إلا قليل من الوقت حتى أمر هيرودس بسجن يحيى وتقول الأناجيل الأربعة : أن سبب هذا الاعتقال هو خوف هيرودس الثانى أن يكون يحيى يستتر بستار الصلاح الدينى ليثير القلاقل السياسية فى البلاد .

ويروى إنجيل مرقس ومتى فى هذا المجال قصة غرام هيرودس بابنه أخيه المشهورة باسم « سالومى » وفتنتها له برقصها أمامه فى حفل عام وهى شبه عارية فقام وعرض عليها أن يقدم لها أية مكافأة تطلبها ويقولان : أنها طلبت رأس يحيى وقد أجابها فى الحال .

وتتلخص القصة فى أنه نمى إلى علم يحيى أن هيرودس الثانى ملك اليهود أحب إبنه أخيه وكانت شابة ذات وسامة وجمال ولها رقة ودلال ، وأنه اعتزم الزواج بها وقد اتفق مع أمها على ذلك رغم أن الفتاة لا تزال فى عصمه رجل آخر . فأخذ يحيى يندد بهذه الخطيئة

فى مجالسه ويعلن على الملأ بطلان هذا الزواج وفساده لمخالفته للشريعة وتعاليمها وتناقل الناس هذا الرأى الجرىء بالتعقيب والسخط .

وانتهزت « سالومى » فرصة إقامة عمها لإحدى حفلات اللهو الكبرى فأخذت زينتها ودخلت على عمها وهى فى أبهى حلة وأكمل زينـــــــة ورقصت أمامه واستعانت بأنوثتها وخستها فى التأثير عليه بشكل لفت الأنظار . . وقام العم المتيم وعرض عليها أن يقدم لها آية مكافأة تطلبها . . ولم تمض أكثر من ساعة حتى كانت رأس النبي المظلوم أمامه فى طبق كبير إرضاء لهذه الفتاة اللعوب . .

ولما عرف نبأ مقتل يحيى أخذ أتباعه يبحثون عن زعيم لهم حتى اهتدوا إلى المسيح والتفوا حوله لأنه كان أعظم جرأة فى الدعوة إلى الإيمان وطلب النجاة من حياة لوثن حتى ظنه بعض الأتباع أنه يوحنا قام من بين الموتى ثم أخذوا يعتقدون شيئاً فشيئاً أنه هو المنقذ الذى سيرفع نير الرومان عن بنى إسرائيل ويبسط حكم الله على الأرض .

نبوة المسيح

ويرى المؤرخون أن المسيح كان فى سن الثلاثين أو نحوها حين أوحى الله إليه بالنبوة وأنزل عليه الإنجيل ، وروى أنه كان عليه

السلام ، منهمكا فى تفقهه مستغرقاً فى تأملاته بمفرده حين هبط عليه الوحى .

ويثبت القرآن أن الله أنزل عليه كتاب الإنجيل مصدقاً لما بين يديه وهو التوراة ومؤيداً لأحكامه ومحيياً لشريعتها ومبشراً برسول يأتى من بعده اسمه أحمد ، وأمر قومه أن يحكموا بما أنزل الله فيه كما جاء فى قوله تعالى : « وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » .

والإنجيل معناه البشارة أو العهد الجديد وهو يطلق عند المسيحيين على أربعة كتب فى سيرة المسيح وشىء من تاريخه وتعاليمه وقد كتبها أربعة من تلاميذه وهم متى وبولس ويوحنا ولوقا وليس لهذه الكتب سند متصل عند أهلها وهم مختلفون فى تاريخ كتابتها . . . أما الإنجيل فى عرف القران فهو الذى أوحاه تعالى مرة واحدة إلى رسوله المسيح ورفع معه .

وكان المسيح حين يتلو على قومه بعض نصوص من الإنجيل يتولى شرحها لهم بالبساطة التى تتطلبها حالة مستمعيه من عامة الناس ويمزج الشرح بالأمثال القوية والحكم الطريفة التى تجعل دروسه نافعة تنفذ إلى الأذهان وتعيش فى واقع الحياة ومنها قوله : لا تنظروا

فى أعمال الناس كأنكم أرباب — وأنظروا فى أعمالكم كأنكم عبيد . فإنما الناس رجلان : مبتلى ومعافى فارحموا أهل البلاء وأحمدوا الله على العافية . .

.. عجباً لكم تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بلا عمل ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بعمل . اتخذوا المساجد بيوتاً والبيوت منازل وكلوا بقل البرية وشربوا الماء القراح وانجوا من الدنيا سالمين إن الوقت الذى يجب أن يتوب فيه الإنسان من ذنوبه يمر مسرعاً فأما من تاب وسلك سبيل العدالة وأحب الله وآمن برسوله فإنه يسمو إلى عالم ملكوت السموات ويكون قد تحرر من جميع الشرور والأوزار ..

وكان يجلس وسط الحواريين جمع من الأطفال حين سألوه : هل سيدخلون الجنة فأجابهم قائلا : . لن تدخلوها حتى تكونوا مثل هؤلاء الأطفال نقاء سريرة وطيب قلب . .

بداية الدعوة

ولم يكن ظهور دعوة المسيح مفاجأة للمجتمع لأن عالم اليهود كان يؤمن بموعدها فى تلك الحقبة من الزمن وإن كانت قد قوبلت مع المسيح بالاستنكار ولقيت أشد ما يلقاه دين من مقاومة ولكنها رغم ذلك شاعت فى العالم الإنسانى فأقبل عليه الأنصار طائعين مستسلمين لأنهم وجدوه يدعوهم إلى سبيل الله والمؤاخاة والرضا

والوفاء ، ويقتلع جذور البغضاء والحقد من النفوس ويقضى على أسباب الصدام والانقسام . .

وحين بدأ رسالته تدعو إلى التوحيد وعبادة الله ، بدأها بدعوة عشيرته من أهل الخليل الذين رأوا فيه من التقوى والصلاح والهداية فأخذوا يتساءلون : أليس هو ابن العذراء ! ! فلما أحسوا من رسالته قوة الإيمان والعقيدة السليمة المقترنة بالعمل الصالح أقبلوا عليه يريدون التلمذة على يديه وآمنوا به رسولا من عند الله .

وكان عيسى يخرج فى صحبة حوارييه الأبرار — وهم صفوة الرجال أخلصوا له ولازموه وكانوا عونه فى الدعاية إلى دين الله والتبشير برسالته السماوية — يجوب القرى والبلدان وينتقل من مكان إلى مكان فى أرض فلسطين وجبالها وآكامها وكانوا فى طوافهم ورحلاتهم التبشيرية يعيشون على ما يقدمه لهم القرويون ويأخذون طعامهم من نبات الأرض ويقبلون ضيافة أصدقائهم ومن يهتاون بهديهم . . . .

وقد أضاف المسيح إلى الإثنى عشر من حوارييه ، إثنين وسبعين من الأتباع وبعث بإثنين منهم إلى كل بلدة يريد أن يزورها وانضمت بعض النساء الصالحات الرحيمات إلى أولئك الرسل والأتباع

وقدمن لهم المعونة . . وعلى يد هـــذه الفئة القليلة من الناس نشر المسيح إنجيل الله على العالم .

هدم الوثنية اليهودية

وقام المسيح بهدم الوثنية اليهودية التى قسمت النـاس إلى ارستقراطية وسوقة وأرقاء ، وينادى بإله واحـد ليس لديه شعب مختار ولا حظوة عنـده فى السماء لفريق من الناس دون فريق آخر ، إلا بالإيمان والتقوى وإطاعة أوامره وكان المسيح يهدف بذلك إلى تحقيق مبدأ الإخاء والمساواة بين الجميع لا فضل لأحدهم على الآخر بالصلاح والإيمان .

ثم أخذ يقاوم الرياء والنفاق والاتجار باسم الدين ويبين للناس أن دعوته قوامهـا الإخلاص لله خالقهم ورازقهم فأقبل عليه ذوو الفطرة السليمة والفقراء المضطهدون وتبعـوه وأخلصوا له ، أما المنافقون من رجال الدين والأغنياء والحـكام فقـد خافوا منه على سلطانهم وأموالهم أن تزول فقاوموه وهزئوا به .. وبشرهم بالروح لأنه وجـد اليهود الذين بعث على ظهرانيهم قـد سادهم إنـكار الروح . . وبعالم الآخرة لأن فريقاً كبيراً منهم كانوا ينـكرون

البعث والحساب ويعتقدون أن الحياة الدنيا هى التى يجازى فيها الإنسان . .

وأخذ يعلمهم إن الله تبارك وتعالى هو خالق السموات والأرض وما بينهما وأن ذاته وصفاته ليست بمركبة وإنما هى منزهة عن مشابهة الحوادث ، ولا يشبهه تعالى شيء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله . وأن على كل فرد منهم أن يتوجه إلى الله بنفسه فى عبادته ، دون حاجة إلى وساطة كاهن أو قسيس لأنه ليس لأى شخص مهما تكون منزلته أو قداسته أو تقواه أن يكون وسيطاً بينه وبين الله .

معجزات المسيح

قال تعالى : « وآتينا عيسى البينات وأيدناه بروح القدس » والبينات هى الحجج القوية والمعجزات السماوية الباهرة ، وأما روح القدس فهو الوحى الذى يؤيد الله به أنبياءه والمراد بالروح القدس هو جبريل عليه السلام الذى ينزل على الملائكة ويستمدون منه الشرائع والأحكام لأن ما يحمله مقدس . . . .

وقد عرف الله المسيح بثلاث صفات هى : —

الاسم : عيسى ، ومعناه الصفى وهو ينبىء عن صفاء رسالته وكمال دعوته وجمال تكوينه .

اللقب : المسيح ، ومعناه المخلص والمبارك وهذا يؤكده ما جاء في قوله « وجعلني مباركا أينما كنت » .

الكنيه : أو الصفه . . ابن مريم وذلك إشارة إلى أن نسبة ثابت لأمه لا لأحد سواها وأنه ليس إبناً لأحد من الأحياء سواها وليس إله أو إبناً لله كما يتوهمون .

* * *

ولما كان السحر والتنجيم والاطلاع على الغيب وحلول الشياطين في أجسام الآدميين وإخراجها كلها عقائد مسلماً بها في كل مكان ، فقد أيد الله المسيح بخمس معجزات باهرة لتخرس الألسنة وتقطع الطريق على منكريه من اليهود الذين قست قلوبهم وكانت نفوسهم شاردة متمردة لا يؤمنون إلا بالمرئيات والماديات التي استولت على مشاعرهم وأهوائهم فجاءت معجزاته من جنس ما يعرفون ليكون عجزهم عنها حجة عليهم ، والمعجزة الأولى أنه كان يصور من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها بأمر الله فيكون طيراً . . والثانية إحياؤه الموتى بإذن الله فالميت الذي أكله البلى كان يناديه باسمه فإذا هو حي يجيب نداءه ، ليكون ذلك برهان قاطع أمامهم على وجود الروح وإعلان صادق لإحيائها ودليل على قوة رسالته لأن اليهود كانوا

لا يعترفون بوجود الآخرة ولا يؤمنون بيوم الحساب فكان إحياؤه الموتى صرقاً قوياً يحملهم على الإيمان بها ولكنهم كانوا بآيات الله يجحدون والمعجزة الثالثة إبراؤه الأكمه والابرص وهما مرضان تعذر على الطب قديماً وحديثاً العثور على دواء لهما والتمكن من أسباب الشفاء منهما ولكن للمسيح بقدرة الله شفاهما وبرىء المريضان فكان ذلك دليلا قائماً على قدرة من أرسله ودليلا على صدقه والرابعة أنه كان ينبىء صحابته وتلاميذه بما يأكلونه وما يدخرون فى بيوتهم والخامسة إنزال المائدة من السماء بطلب الحواريين لتطمئن قلوبهم وليعلموا أنه قد صدقهم كما جاء فى قوله تعالى على لسان الحواريين « نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين » . هنالك رفع عيسى يديه إلى السماء وأخذ لسانه يترجم عن قلبه مأثور الدعاء : « اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وأرزقنا وأنت خير الرازقين » . . « قال الله إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين » .

وقد استفاض حديث الناس عن هذه المعجزات بما أيقظ العقول من رقدتها وأذاب القلوب بعد قسوتها فشع نور الإيمان وأزداد اتباع المسيح عليه السلام .

كان أحبار اليهود يشترون بآيات الله ثمناً قليلا من المال فهم إذا قل المال امتنعوا عن الفتيا بالحق وإذا كثر مالوا مع المال إلى الباطل ولم يقصروا هذا على أمور الدنيا بل تعدوها إلى أمور الدين فكانوا يمنحون الغفران للمذنبين من الأحياء والمذنبين من الأموات على قدر ما يأخذون من المال لأن المال عندهم هو كل شيء فى الحياة .

وقد راعهم أن يجدوا سلطانهم هذا قد أخذ يتقلص أمام دعوة المسيح وأن يجتذب إليه فريقاً كبيراً ممن كانوا ينحنون أمام جبروتهم فتشاوروا غير مرة فى إطفاء ذلك النور الجديد واستقر بهم الرأى فى بادىء الأمر على الاستهزاء به وبأصحابه وتطوع فريق من سفهائهم وجند نفسه لإيذائهم كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا فكان إذا مر بهم المسيح يقولون فى سخرية واستهزاء هذا ابن الباغية . . ومن الغريب أن كبراء اليهود وسادتهم اتخذوا من التنكيل بالحواريين والأتباع تسلية لهم وجعلوا من سخريتهم بالمسيح ودعوته فكاهة وترفيها . . ثم أخذوا يحيكون الدسائس ضده ويعملون على مناوأته وعلى منع الناس من سماع دعوته واتباع هدايته فلما أعيتهم الحيلة ورأوا جموع الضعاف والفقراء يسرعون إليه ويلتفون حوله أخذوا يوشون به

ويوسوسون لحكامهم ضده ويحرضون الرومانيين عليه ولكن مسعاهم قد خاب عند الرومانيين لأنهم ما كانوا يلتفتون إلى المسائل الدينية لأنهم وجدوا أن المسيح ما كان يدعو إلا إلى إصلاح الجانب النفسي والخلق ولم يكن قد اتجه إلى إصلاح الحكومة فلما ضاقت بهم الحيل كذبوا عليه واتهموه لدى حاكمهم الروماني بلاطس بأنه ثائر على الأوضاع السياسية ويحاول إقامة مملكة روحية ضد قيصر روما وطالبوه بمحاكمته بتهمة الخيانة العظمى وهى الاعدام صلباً ...

المسيح فى القدس

وبعد مضى ثلاثة أعوام على دعوته هبط أورشليم وحير استقباله الحماسي زعماء اليهود وخافوا أن تلتهب حماسه الناس التى اجتمعت له فتدفعها عواطفها الثائرة ونزعتها الدينية إلى عمل انقلاب .

وفى اليوم الثانى لدخوله المدينة ذهب إلى بيت المقدس فهاله ما رآه فى ساحة المعبد تحت المظلات من ضجيج أصوات البائعين ينادون على حيوانات الضحايا التى ستقدم قرابين للهيكل بمناسبة عيد الفصح ، ومظهر الصيارفة يقرضون الناس بالربا الفاحش ويستبدلون العملات الأجنبية بالعملة المتداولة فاشتد غضبه وطرد تجار الحيوانات وقلب مناضد الصيارفة وبعثر نقود المرابين على الأرض .

وكان أعوان الحكومة الرومانية من اليهود يراقبونه فأسرعوا بإبلاغ النبأ إلى الحاكم الروماني وإلى قيافا الحاخام الأكبر لليهود الذي دعا مجلس الأحبار إلى الاجتماع وقرروا إلقاء القبض على المسيح وقتله صلباً زاعمين أنهم اتخذوا قرارهم هذا لتجنيب أورشليم خطر ثورة جامحة يشعلها المسيح ضد السلطة الرومانية فتكون عاقبتها القضاء على كل ما تستمتع به أورشليم من حكم ذاتي وحريه .

وبينما كانت هيئة محاكمة المسيح ، وكلهم من اليهود أعداء الأديان والفضائل والأخلاق منعقدة للتآمر على حياته ، جاءهم أحد التلاميذ وهو الخائن اليهودي المعروف .. يهوذا الأسخريوطي وقال: أنا أرشدكم إلى مكانه ليلا .. فسألوه وكم تطلب على ذلك من الأجر قال ثلاثون من الفضه .

وأصدرت المحكمة قرارها غيابياً ويقضي بالحكم على المسيح بالإعدام صلباً لأن الصلب كان من أشد طرق العقاب الرومانية واليهودية وقد صدر هذا الحكم في اليوم الثالث من إبريل عام ٣٣ ميلادية الموافق ١٤ نيسان العبرى .

وفي الموعد المحدد لتنفيذ خطة اعتقال المسيح كان عليه السلام يتناول عشاء الفصح بدار صديق له في إحدى القرى القريبة من

المقدس وقد أنبأ تلاميذه بما سيحدث بعد قليل ثم أوصاهم أن يخلص ويحب بعضهم بعضاً كما أحبوه واخلصوا له وأن يتجملوا بالصبر على كل شيء سيحل بهم فلما سألوه عن السبب أجابهم قائلا لأننى سأفارقكم إلى ملكوت السموات .

ولم تمض سوى لحظات قصيرة شاهدوا بعدها جمعاً غفيراً من الجنود يحملون السلاح والمشاعل التى أضاء أنوارها الظلمة الحالكة ، يحاصرون الدار ، ورأوا يهوذا الاسخريوطى الذى كان أحد التلاميذ النجباء ، يطلب منهم الانتظار حتى يتولى هو إلقاء القبض على المسيح . . ولكن الله لم يمكنهم من المسيح وأنجاه من أيديهم بأن تمت إرادته فراح التلاميذ فى سبات النوم ورفع المسيح ومعه أنجيل الله .

وقد جاء وصف هذا الحادث فى أنجيل برنابا فقال (. . ولما دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذى كان فيه يسوع سمع يسوع دنو جمع غفير فلذلك انسحب إلى البيت خائفاً وكان الأحد عشر نياما ، فلما رأى الله الخطر على عبده أمر جبريل وإسرافيل وعزرائيل سفراءه أن يأخذوا المسيح من العالم ، فجاء الملائكة الأطهار وأخذوا يسوع من النافذة وصعدوا إلى السماء الثالثة ووضعوه مع الملائكة

التى تسبح الله إلى الأبد .. ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التى أصعد منها يسوع وكان التلاميذ كلهم نياماً ، فأتى الله بأمر عجيب فتغير يهوذا فى النطق وفى الوجه فصار شبيهاً بيسوع حتى إننا اعتقدنا أنه يسوع .. وبعد أن أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم لذلك تعجبنا واجبنا أنت ياسيدى معلمنا أنسيتنا الآن) .

وألقى الجنود القبض على يهوذا الأسخريوطى الذى ألقى الله عليه شبه المسيح وصوته جزاء خيانته وساقوه إلى بيت قيافا رئيس الكهنة والحاخام الأكبر وكان منزله محكمة العدل الخاصة بمجلس اليهود الأعلى .

وفى الصباح سيق إلى قصر بلاطس النبطى حاكم أورشليم الرومانى الذى أخذ يتفرس فى وجهه وقال له فى حدة .. أأنت ملك اليهود فأجابه قائلا كلا كلا بل أنا يهوذا .

فأمر بيلاطس بإطلاق سراحه قائلا للمتآمرين أنه ليس المسيح . فهاج القوم وتعالت صرخاتهم على بيلاطس باللعنات .. وقال أحدهم أنه من الخليل التى يحكمها هيرودس فاعتهدوا بمحاكمته إليه فذهبوا إلى هيرودس ذلك الثعلب المراوغ والوحش الضارى الذى قطع رأس

نبي الله يوحنا المعمدان فأمر هيرودس بإعادته إلى بيلاطس لينفذ فيه حكم الإعدام صلباً .

وأمام بيلاطس جرد يهوذا من ثيابه ثم دنامنه جندى قوى مفتول العضلات وانهال يلهب ظهره العارى بالجلد حتى تفجرت دماؤه سحبوه إلى ربوة مرتفعة فى ساحة الصلب وقد وضعوا فوق رأسه تاج من الأشواك الصلبة وفى يده عصا صغيره دلالة على صولجان ملكه ثم خلوا يبصقون على وجهه ويصفعونه .

وفى ساحة الصلب كانت هناك كومة من المشانق الخشبية صنعت على شكل صلبان القى بعضها فوق بعض فتناول الجنود إحداها ودقوا يد يهوذا وقدماه إلى الصليب وطعنه أحدهم فى قلبه ثم رفع الصليب فى نحو الساعة التاسعة صباح الجمعة بين تهليل اليهود وغناء شيوخهم وزغاريد نسائهم .. وظل يهوذا على هذه الحال ستة ساعات حتى خارت قواه ببطء وتوقف القلب عن الحركة وقد أتيحت الفرصة لكل من يريد أن يشاهد منظر صلبه وهو على هذه الصورة البشعة والطيور الجارحة تحوم فوقه تحاول أن تنهش جسده العارى .

وتحت جنح ظلام الليل حمل اليهود الجثة وواروها التراب . . ثم أشاعوا فى الناس أن « يسوع » الناصرى بعد أن قتل وصلب

عادت إليه الروح بعد ثلاثة أيام على دفنه فخرج من قبره ومكث أربعين يوما صعد بعدها إلى السماء بعد أن أوصى تلاميذه أن يرحلوا إلى العالم لنشر ديانته ويعمدوا الناس باسم الأب والابن والروح القدس .. ولكن الله العليم بكل شيء يفضح هذه الأكاذيب بقوله تعالى : « وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً ، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيما » .

ومن ذلك تتضح الحقيقة للناس وهى أن المسيح عليه السلام لم يقتل ولم يصلب وإنه رفع بأمر الله إلى السماء بجسمه وروحه حيا دون موت وأنه لا يزال فى السماء حتى يأذن الله بما يأذن به .. وأن الله كف عنه بنى إسرائيل حين دبروا قتله وأحبط كيدهم بإلقاء شبهه على ذلك المنافق الذى دلهم عليه فكان جزاؤه القتل وجزاء المسيح الرفع مصداقاً لقوله تعالى : وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » .. ولا غرابة فى ذلك لأنها من معجزات الله وسبحانه إذا قضى امراً فإنما يقول له كن فيكون كمعجزة تحويل النار المحرقة برداً وسلاما على إبراهيم وتحويل جبريل من صورة ملاك إلى صورة

بشر فى أقل من لمح البصر حين كان يلقى الرسول ويبلغه الوحى، ويدراسة القرآن .

ويعتقد المسيحيون أن الله تعالى ، أوصى آدم بألا يأكل من الشجرة ويسمونها شجرة التفاح ويصفونها بشجرة الخير والشر . فلما أكل منها بإغواء إبليس استحق هو وذريته الفناء ولكن الله رحمة منه بعباده جسد كلمته وهى إبنه الأزلى تجسداً ظاهراً ورضى بموته على الصليب ليكون ذلك فداء للخطيئة الأولى وعدلها ، ولم يكن فى استطاعة أحد أن يقوم بهذا الفداء سوى ابن الله وابن الإنسان معاً وهو المسيح ولد مريم العذراء لذلك عبده بعضهم وحده، وبعضهم عبده وأمه واتخذوهما إلهين من دون الله .. ولكن سبحان الله عما يشركون فليس المسيح إلاها ولا إبناً لله كما يزعمون مصداقاً لقوله تعالى : « وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له مافى السموات والأرض كل له قانتون » . وقوله : « الذى له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديراً » . ويقيم الله الحجة على كفر وضلال اتباع المسيح من بعده بقوله تعالى : « وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس إتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول

ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمت تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك إنك أنت علام الغيوب ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن أعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد »

صدق الله العظيم .

بلاد العرب

تشغل الجزيرة العربية مكاناً وسطاً من نصف الكرة الأرضية الذى يشمل أفريقيا وآسيا وأوربا ويحدها جنوباً المحيط الهندى وغربا البحرين الأحمر والأبيض وشرقا الخليج الفارسى ونهر دجلة والفرات ويتغلغلان فى أرضها شمالا .

وهى عبارة عن هضبة صحراوية واسعة أغلب سكانها من قبائل البدو الرحل ويشتغلون برعى الأغنام وينتقلون بقطعانهم من مرعى إلى مرعى حسب فصول السنة وأمطار الشتاء . . ويبلغ أكبر أطوالها ١٤٠٠ ميلا وعرضها ١٢٥٠ ميلا وترتفع عن البحر الأحمر وتأخذ فى الارتفاع إلى ١٢ ألف قدم ثم تنحدر نحو الشرق انحداراً سهلا فى أرض جبلية جدباء حتى تصل إلى الخليج الفارسى .

وتنقسم إلى عدة ولايات أشهرها المدينة المنورة ، ومكة المكرمة التى تعد بمثابة القلب منها حيث أقيم بيت الله الحرام وهو أول مسجد بنى للناس لتوحيد الله وموضع الاحترام والإحرام والتبجيل ومحرم وقوع أى لون من العدوان فيه .

ولم يكن بناء البيت المقدس فى موضعه بمكة هو جودة مناخها ذلك أن الجبال الجرداء تكاد تطبق عليها من جميع الجهات ولا يكاد يوجد فى المدينة كلها حديقة واحدة ، ولكن موضعه جعلها محطة صالحة فى طريق القوافل التى كانت تحمل المتاجر بين جنوبى بلاد العرب والهند وأفريقيا وبين فلسطين ومصر والشام وبلا الشام .

وتنخفض درجة الحرارة فيها بالليل إلى ٣ درجات ويسقط الثلج مرة كل أربعين عاماً أما شمس النهار فهى محرقة تلفح الوجوه وتغلى الدم فى العروق وهواؤها محمل بالرمال مما اضطر سكانها إلى لبس الجلاليب الطويلة وشد غطاء الرأس بالعقال لوقاية الجسم والرأس من حرارة الشمس .

وكان النظام السائد فيها قبل الإسلام هو النظام العشائرى الذى يقوم على رابطة القرابة والتصاهر بين شعبها من قبائل بنى عدنان وقحطان .

وتنحدر قبائل بنى عدنان من اسماعيل بن ابراهيم الخليل الذى قال الله عنه فى القرآن (واذكر فى الكتاب اسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا) وعدنان هو الإبن الأكبر لإسماعيل والأب الحادى

والعشرون للرسول المصطفى وعنه تفرعت قبائل عديدة منها أسد ، وربيعة ، وتميم ، وهزيل وأشهرها النضر بن كنانة ، الذى سميت قريش فيما بعد باسمه ، وعنه حفظت العرب أنسابها وظلت تتوارث الإمارة والسيادة على مكة إلى أن وفد عليهم عمرو بن لحى مهاجراً من اليمن ، على رأس قبيلة من بنى خذاعه عقب حادثة سيل العرم المشهورة وانتزع منهم الإمارة وأورثها لبنيه فترة من الزمن إلى أن ظهر سيد قريش وبطلها قصى بن كلاب فاستمادها منهم واحتفظ بها لذراريه وبذلك عادت الإمارة والسيادة وقيادة الحرب وحماية الكعبة إلى آل الرسول حتى ورثها عنهم عبد المطلب بن هاشم الجد الأول للرسول وتتلخص قصة ذلك فى أنه لما ولى شعب قحطان أمر مكة هاجر منها بنو عدنان وانتشروا فى نجد وأطراف العراق والبحرين ولم يبق منهم فى مكة سوى قبيلة النضر بن كنانة بزعامة حفيده فهر بن مالك الذى سمى قريشاً . . ولما بلغ قصى بن كلاب وهو الجد الرابع للرسول وحفيد فهر بن مالك جمع شتات أسرته ووحد كلمتهم وتمكن بهم من أن يسترد ولاية البيت الحرم من قبائل بنى قحطان وخزاعه وبذلك أصبحت له السيادة الكاملة على أهل مكة والكلمة النافذة ومظاهر التشريف والرياسة الدينية للكعبة .

وكان من مآثر قصى تأسيس دار الندوة بمكة التى كانت مجمع

قريش وفيها تفصل مهام الأمور بالحسنى ودار اللواء التي كانت مجمعاً لرؤساء القبائل في فض المنازعات وعقد لواء الحروب .

وكانت قريش في بداية القرن السادس الميلادي منقسمة إلى فئتين متنافستين أحدها يتزعمها البطل هاشم بن عبد مناف بن قصي والأخرى يتزعمها ابن عمه أمية بن عبد الدار بن قصي وكان لهذا التنافس الشديد بين أبناء العم حول السيادة على مكة ورياسة الكعبة أثره الشديد في نفوس العرب وكاد يؤدي إلى إشعال نيران الحرب لولا أن وفقوا إلى الصلح على أساس اقتسام هذه المصالح فجعلوا مفتاح الكعبة ورياسة اللواء والندوة من نصيب بني عبد الدار ، والسقاية والرفادة من نصيب بني عبد مناف ثم أجريت القرعة بينهم على الإمارة والزعامة فكانت من نصيب هاشم أبي عبد المطلب جد الرسول . .

والسقاية معناها سقاية الحجاج بالماء العذب الذي كان يجلب من خارج الكعبة لأن بئر زمزم كانت مطمورة منذ عهد مضاض بن عمرو الجرهمي في فترة اضطراب قبيلته فأعاد عبد المطلب بن هاشم حفرها بعد أن نسي الناس موضعها نحو خسمائة سنة تقريباً وكانوا يملأون للحجيج حياضا من هذا الماء ويحلونها بشيء من تمر البلح والزبيب

فيشرب الناس منها إذا وفدوا على مكة .. أما الرفادة فهى الطعام الذى كان يصنع للحجيج على سبيل الضيافة .

ويرجع السر فى تسمية قبيلة النضر بقريش إلى أن فهر بن مالك كان وهو فى طريق عودته من رحلته التجارية قد فوجىء بسمكة ضخمة من نوع القرش المعروف بشراسته وحبه لإفتراس بنى الإنسان تهاجم سفينته وتحاول أن تفتك بمن معه فتغلب عليها « فهر » وقتلها بحربته ثم حملها معه إلى قبيلته فسمى قريشاً وقد اتخذ الاسم من بعده شعاراً لقبيلته ورمزاً إلى شجاعة وبطولة زعيمها .

وكانت قبيلة قريش تسكن فى مكان بالقرب من بئر زمزم فى طريق مكة ، وقد ساعدها موقعها الجغرافى على بلوغ منزلتها السامية بين العرب وتمتع أهلها بشرف خدمة الكعبة والإشراف على مواردها وضيافة الحجيج وسقايتهم وهى وظائف ظلت وراثيـــة فيهم وبلغ احترامها فى النفوس مكانة عظمى .

وقد كافأ الله قريشاً على ذلك بأن أمن أهلها غائلة الدهر وكفاهم شر الجوع وحماهم من كل عــدوان على أموالهم وأرواحهم أثناء رحلاتهم التجارية إلى اليمن شتاء وإلى الشام صيفاً مصداقاً لقوله

تعالى : « لإيلاف قريش إيلافهم ، رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » .

أما شعب قحطان فأصله من قبائل كثيرة أشهرها كهلان، وطيء، وهمدان ومذحج وحمير وقد نزحت هذه القبائل إلى مكة مهاجرة مع عمرو بن لحى أثر حادثة سيل العرم التى تتلخص فى أن ملوك اليمن كانوا قد أنشأوا خزاناً ضخماً لحجز مياه الأمطار وحصرها بين ثلاثة جبال للاستفادة بها فى أعمال الرى والزراعة . . وبمضى الزمن قلت عناية أهل اليمن بأمر الخزان وأهملوا شأنه وانصرفوا إلى حياة اللهو والترف وغرتهم الدنيا فأعرضوا عن طاعة الله فانتقم الله منهم فجأة وسلط عليهم سيلا شديد هدم السد فى الحال وأغرقت المياه مدينة سبأ أو مأرب وما حولها من القرى والبلدان مصداقاً لقوله تعالى : « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم » .

بعض عادات العرب

وكان العرب بطبيعتهم يعشقون الاتجار ويحبون الاتجار ولهم أسواق شهيرة يجتمعون فيها من كل صوب لشراء ما يحتاجون وبيع

ما ينتجون ولم تعرف لهم عملة خاصة يتعاملون بها وإنما كان تعاملهم بالنقد الفارسي أو الروماني أما الصناعات فكانوا أبعد الأمم عنها بل وكانوا يحتقرونها ويعيبون على من يحترفها .

اسواق الأدب

وكان الشعر والأدب له عظيم الأثر في قلب العربي يحركه كما يحرك الهواء ريشة فى الجو . وكانت تقام بالقرب من مكة منذ أول ذى القعدة إلي عشرين منه سوق عكاظ المشهور ثم ينتقلون منها إلى سوق مجنة بالظهران فيقيمون فيها إلى غاية من ذي القعدة . . ومنها إلى سوق ذى مجاز خلف عرفة يقيمون فيها إلى ثمانية من ذي الحجة . وكان الشعراء يقدمون إليها من كل صوب ومن كل قبيلة ينشدون ما جادت به أفكارهم وهناك ينال الشعر ما يستحقه من التشريف والتكريم وكان أكبر الشعراء الممتازين من بنى عدنان ويليهم الأوس والخزرج وقبائل طيء وكلب المقيمين فى شمال الجزيرة .

واشتهر العربي بسرعة الإنفعال والإقدام على المكاره وعقيدته بأن التعصب لأبناء القبيلة من مقومات حياته ولم يكن فيه شيء من بلادة الطبع التى تجعل من صاحبها يألف سماع ما يهين شرفه .

ومن عاداتهم المتأصلة أنهم كانوا يمتدحون الميسر ويرون أنه من سبل الكرم لأنهم كانوا يتصدقون بالربح منه على الفقراء وقد حرم الإسلام الميسر لأنه يوقع العداوة والبغضاء بين اللاعبين ويصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة ويجعل المقامر غافلا عن كل شيء .

وكانوا يحبون الخمر ويمتدحونها فى أشعارهم ويرون أنها من أكبر وسائل الترويح عن النفس . . وقد حرم الإسلام الخمر بقوله تعالى للرسول : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » . ثم بين تعالى هذا الإثم مرة أخرى بقوله « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » .

وأد البنات

وعرف عن العرب أنهم يئدون البنات عقب ولادتهم بدفنهم أحياء كما جاء فى قوله تعالى « وإذا المؤدة سئلت بأى ذنب قتلت ؟» . وكان إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به .

ولا يمكننا أن نعد هذا الوأد من الأخلاق المنتشرة التى تحسب على الأمة العربية إلا فى الطبقة الفقيرة كما أشار القرآن إلى ذلك بقوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ».

الكرم

وكان الكرم من أخلاقهم المتأصلة فيهم وقد استنفدوا فيه نصف أشعارهم فقد كان الواحد منهم يأتيه الضيف فى شدة البرد والجوع وليس عنده من المال أو من الطعام شىء إلا ناقته التى هى كل حياته وكل ما يملكه ولكن هزة الكرم تأخذه فيقوم ويذبحها لضيفه خشية مذمات الأحاديث وليشتهر اسمه على ألسنة الشعراء .

اديان العرب

كانت النبوة من بعد إبراهيم عليه السلام فى فرعين من ولديه : الأول اسماعيل داعية العرب إلى التوحيد. ثم كان محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين والفرع الثانى إسحاق ومنه كان جميع أنبياء بنى إسرائيل وأعظمهم وأبقاهم أثرا موسى والمسيح عيسى بن مريم عليهم السلام .

وكانت قبائل العرب من عدنان وقحطان يتعبدون بشريعة

إبراهيم التى تلقوها عن ولده اسماعيل ويؤمنون أن الله واحد لا شريك له موصوف بأوصاف الكمال منزه عن كل مالا يليق به من الصفات.. وكانوا يصلون ويصومون ويزكون وظلوا على عقيدتهم وإيمانهم بملة إبراهيم زمناً طويلا ، فلما طال عليهم الأمد وبعدوا عن زمن النبوة ، وكثر فيهم الجهل ، قلت معرفتهم بالدين ونسوا ما جاءت به شريعتهم من الهدى والإيمان وراجت بينهم الآراء الفاسدة والمعتقدات الوثنية التى زينها لهم الشيطان فعادوا إلى تقديس الأوثان وعبادة الأصنام وانقسموا إلى طوائف كثيرة فمنهم من عبد الأصنام ورئيسهم فى ذلك عمرو بن لحى الخزاعى الذى كان أول من نقلها إليهم من بلاد الشام أثناء زيارته لها بقصد الاستشفاء وعند عودته إلى مكة المكرمة أستورد معه مجموعة من الأصنام ونصبها حول الكعبة ودعا العرب إلى تعظيمها وإتباع طقوسها فأطاعوه ، ومما فعله أيضاً أنه غير التلبية التى أوحى الله بها إلى خليله إبراهيم فجعلها . . لبيك اللهم لبيك .. لبيك لاشريك لك إلا شريك هو لك تملكه وماملك.. فلما جاء الإسلام ردها إلى أصلها وهى تلبية سيدنا إبراهيم المتواترة من بعده :

لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك . .

ثم خطرت للعرب فكرة تقديس العظماء وذوى المكانة والأثر الصالح منهم فصنعوا تماثيلهم وتقربوا إليها مثال ذلك أن صنم « ود » كان أشبه ما يكون بتمثال إله الحرب التى تعظمها العرب وكان على شكل رجل من عظمائهم يرتدى زى الحروب ومتقلداً سيفا وبين يديه حربة مخيفة !

وكانوا يسمون التماثيل التى تصنع على صورة إنسان أو حيوان من حجر أو فضة أو ذهب صنما ويسمون الحجر الغفل من الصنعة وثنا .

وعبدت طائفة النجوم والكواكب وأقامت لكل كوكب منها بيتاً خاصاً للعبادة والصلاة ومنهم من عبد الأرواح والشياطين أو كانوا ثنوية وهم الذين يعتقدون أن النور آله الخير والظلمة آلة الشر .

وفريق منهم دهريون يقولون كما روى القرآن عنهم : «إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » .

وبسبب انتشار هذه العبادات الوثنية بينهم ، تفننوا فى صنع أصنامهم وتزيينها بكل نادر ونفيس ، واتخذوا من مكة مركزاً لهذه العبادة وقد بلغ ما كان معلقاً من الأصنام على الكعبة يوم الفتح

الإسلامى نحو ثلثمائة وستين صنما كسرها الرسول عن آخرها وهو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل » .

وكان لكل قبيلة صنم تعبده فإذا سافرت حملته معها ومتى ألقت عصا الترحال نصبته وطافت به كما كانت تطوف حول الكعبة . . فكانت قريش تعبد صنم « هبل » وهو أكبر الأصنام قيمة لتأنقهم فى صنعه من حجر العقيق الأحمر على شكل إنسان مكسور اليد . . وعبدت قبيلة عذرة صنم « ود » وكان على صورة رجل . . وقبيلة هزيل كانت تعبد « سواع » وهو صنم لامرأة .. وقبيلة مذحج تعبد « يغوث » وهو صنم على شكل أسد . . وقبيلة همذان تعبد صنم « يعوق » على شكل حصان . . وقبيلة حمير تعبد « نسرا » وهو الطائر المعروف . .

وقد أطلقوا هذه الأسماء على أصنامهم تيمناً بأسماء أصنام قوم نوح التى ورد ذكرها فى قوله تعالى . « وقالوا لاتذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا » وكانوا تعظيما لهذه الأصنام يسمون أولادهم بعبد يغوث وعبد يعوق وعبد أسد . . ألخ .

** وكانت لهم أوثان أخرى منها « اللات » وهو عبارة عن

صخرة مربعة الشكل كانت بالطائف و «العزى» وكانت منصوبة بمكة و « مناة » وكانت منصوبة على البحر الأحمر بين المدينة ومكة وكانت قبائل الأوس والخزرج تتفانى فى تقديسها وتعظيمها .. ويعتقدان أن هذه الأوثان الثلاثة والملائكة بنات الله فلما كسرها الرسول فى يوم فتح مكة وبخ الله عبدتها بقوله تعالى : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذن قسمة ضيزى ، أن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » .

وكانت هذه الطوائف لشدة تمسكها بأوثانها ويضحون بكل ما يملكون فى سبيل نصرتها والمحافظة عليها والتمسك بها ويتحملون من أجلها المكاره والحروب . . وقد أجابت طوائف العرب على أسباب تمسكها وتقديسها للوثنية .. قالت طائفة . اننا رأينا أن الملائكة هم أصحاب جاه ونفوذ عند الله فأتخذنا أصنامها على هيئتهم ليقربونا إلى الله . .

وقالت طائفة أخرى . . أننا لشدة تعظيمنا للكعبة أخذنا قطعاً من حجارتها للتبرك بها ثم صنعنا منها أصناما وجعلناها قبلة لنا فى عبادة الله كما جعل الله الكعبة قبلة له فى عبادته .. ورغم أن هذه الطوائف

والقبائل كانت غارقة فى جهالة الشرك وظلام الوثنية فإنهم كانوا يعتقدون أن الله هو الذى خلقهم وهو الذى يرزقهم وأن عباداتهم لأصنامهم ما هى إلا واسطة تقربهم إلى الله .. وكانوا يعظمون الكعبة ويجلونها فوق أجلالهم لأى معبود آخر لأنها أثر أبيهم إسماعيل عليه السلام وكانوا يحجونها ويرون لأهل قريش الفضل عليهم لما أوتوه من شرف القيام بخدمتها ورعايتها .

فلما أرسل الله إليهم رسوله المصطفى بدين الحق والكمال وهداهم إلى السبيل وذاقوا حلاوة الإيمان ودخلوا فى دين الله قالوا . « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » .

أنبياء العرب

وخلال الفترة بين نبوة إسماعيل عليه السلام حتى مبعث الرسول الكريم قام فى العرب أنبياء كثيرون يدعونهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأوثان وكانوا من هؤلاء الأنبياء هود عليه السلام الذي أرسلة الله إلى أهل عاد وكانت قبائلهم تعيش فى شمال حضرموت .. وصالح عليه السلام الذى أرسل إلى أهل ثمود وكانوا يعيشون بين الحجاز والشام .. وشعيب عليه السلام الذى بعث إلى أهل مدين ..

فكذبوهم أجمعين ولم يسمعوا لهم وسخروا منهم فأهلكهم الله وأنزل بهم العذاب لاستكبارهم وتماديهم فى كفرهم بالله .

انتشار اليهودية والمسيحية

ثم انتشرت اليهودية بين قبائل العرب وخاصة فى يثرب « المدينة » ثم نشرت المسيحية تعاليمها بينهم عن طريق الوافدين إليهم فرار من الاضطهادات الدينية الرومانية وأوجدت فيهم من يميل إلى الرهبنة وإقامة الأديرة .

وكان القسيسون والرهبان وأحبار اليهود ينتهزون فرصة إقامة أسواق الأدب والتجارة فيخرجون لتبشير الناس بعقيدتهم ! ! ويحدثونهم عن نبي المستقبل الذى وردت صفته فى كتبهم ويؤكدون لهم أن زمانه قد أوشك وعلامته أنه يقبل الهدية ولا يأكل الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبوة واسمه أحمد .

انتظار مجيء الرسول

وكان المجتمع فى حاجة إلى دين جديد يؤلف بين جماعاته المتباغضة والمتباعدة ويخلق منهم أمة قوية سليمة ، ويسمو بأخلاقهم عما ألفه البدو من شريعة العنف والانتقام ويقوم على أوامر منزلة

لا ينازع فيها إنسان ، وكان ينتظر بفارغ الصبر مجىء الرسول الذى ورد اسمه فى التوراة والإنجيل .

وكانت فى البلاد شيعة من العرب تدعى بالحنيفيه ويتزعمها التاجر الثرى الخير هاشم بن عبد مناف ، أبت أن تقر بالألوهية لأصنام الكعبة وقامت تنادى بإلاه واحد يجب أن يكون البشر جميعاً عبيداً له وأن يعبدوه راضين . .

وكانت أسرة هاشم من أبر العرب بأبنائها وأيتامها وأشدهم عناية بصلة الرحم والعطف على ذوى القربى وخاصة الضعفاء منهم !

ومن لطيف العناية بهم أن الله أسبغ عليهم منذ القدم ، من الخير والمجد والمحامد واختار أحد أفرع هذه الدوحة الكريمة لرسالته التى أضاءت الدنيا بأسرها واصطفى منهم محمداً مبعوثاً بالرحمة للأمم ومصباحاً للضياء .

نسب الرسول

نسب الرسول صلى الله عليه وسلم ، أشرف الأنساب وأطهرها وأسماها وأظهرها فى قبيلة قريش فهو محمد بن الله بن عبد المطاب ابن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كليم الملقب بكلاب وينتهى هذا النسب الجليل بعدنان بن إسماعيل عليه السلام .

وكان جده هاشم من أشرف أهـــل الجزيرة وأعرقهم أصلا وأحسنهم منبتاً ومن أبرز فتيانها لا يدانيه أحد منهم فى الفتوة والمروءة . غنى كريم لا يكترث بالمال كيف أنفقه يرحل فى سبيل التجارة ويغامر فى سبيل السعى على الرزق وقد انتقلت صفاته الحميدة التى يتحلى بها إلى الأبناء والأحفاد بحكم الوراثة . . ولما بلغ الثلاثين من عمره اتخذ ما شاء من الإبل ، وشد الرحال بتجارته إلى الشام وغزة لأنها أقرب من اليمن وطريقها مأمون وأهله بقبائل متقاربة متعارفه ، فلما بلغ يثرب نزل على بنى عدى بن النجار وكانوا من أشراف أهل المدينة وأعرقهم أصلا وأطيبهم منبتاً فرأى سلمى بنت عمرو بن زيد النجارى ، وكانت امرأة زكية حسناء تتجر فى السوق ، فأحبهـــا وخطبها ولـكنها اشترطت أن تبقى عصمتها بيدها وأن تلد فى بيت أبيها فقبل شروطها ، ولـكنه لم يكن متعجلا فى زواجه بها فأنه بعد الخطبة ترك العروس فى دارها قبل أن يدخل بها وراح يتم رحلته ويقضى واجبه فى التجارة ونذر جزءاً من ربحه لزفافها أى جعل لحظ عروسه نصيباً فى نجاحه . . ولمـا عاد زف بها ثم سافرت معه إلى مكة وطن الزوج فلما دنا موعد ولادتهـا خرج بهـا إلى يثرب وتركها عند أهلها حتى تلد . . ومضى هو إلى الشام بتجارته ورجا أن يعود فيجدها قـد وضعت ، ولـكنه توفى فى غزة ودفن بها . . . وولدت سلمى « شيبة الحمد » الذى سمى بعد ذلك عبد المطلب .

ويرجع زواج هاشم ومولد إبنه عبد المطلب جـد الرسول إلى مائة وسبعين عاماً قبل الإسلام فقد عاش عبد المطلب مائة وأربعين عاماً وتوفى والرسول فى الثامنة وبين وفاة الجد وبين النبوة إثنتان وثلاثون سنة . . وبذلك يكون زواج هاشم قـد تم فى عصر غارق فى الجاهلية ولا يعرف شيئاً عن شريعة الزواج ، والطلاق والمعاشرة والمتعة والهجر التى نظمها الإسلام .

. . عاش عبد المطلب فى المدينة مع والدته حتى الثامنة من عمره ثم انتقل إلى بيت عمه عبد الدار بمكة .. وفى مكة عاش يتيما كما عاش حفيده الرسول العظيم ولـكن الله قد بسط له فى الرزق وأنشأه على المحبة والفضيلة وكان جميلا قوياً فصيحاً مقداماً كريماً سمح النفس رضى الخلق حسن المعاشرة محباً للأسفارلين العريكة دمث الأخلاق فلم يكن بالشديد الحب للمال ولا المستهتر بالحياة يعتمد عليه فى المواقف ، كله نجدة ومروءة وشهامة وتضحية .

ولما شب خلف والده فى زعامة البيت والرياسة الدينية والرفادة والسقاية ومع ذلك كان يشاهد وهو يهشم التزيد بنفسه للجائعين فى مكة ! !

ولم يكن عبد المطلب وثنياً كأهله وأبناء قبيلته ولـكنه كان

حر الفكر بحكم نشأته وتعليمه وكان الإلهام يخضعه للدين الذى يشعر به فى حنايا ضلوعه ولم يهتد إلى معرفة حقيقته !

وكانت لمكة فى ذلك العهد حكومة فطرية لها مجلس عام ينعقد فى فناء المسجد ومجلس خاص فى إدارة الندوة فأقتسم اشرافها السلطة وجعلوا لكل سيد منهم نصيبه من النفوذ والمناصب التى لم تصل قط فى سموها إلى ما وصلت إليه مكانة عبد المطلب .

وعندما استكمل عبد المطلب رجولته تزوج من سمراء بنت عامر من أشراف وكانت تجمع بين جمال الأنوثة البدوية الطاهرة ولين العريكة ورقة الأخلاق ، فوجد فيها عشرة حسنة ونعم بجوارها بالمودة والرحمة .. وأقسم إن وهبه الله عشرة من الذكور يشدون أزره ويغنونه عن الناس ليضحين بواحد منهم فرزقه الله منها ومن غيرها ما شاء من الأولاد ومنهم عبد الله أبو الرسول فكبرت أسرته وصار له من الأولاد . . الحارث ، والزبير ، وحجل ، وضرار ، والمقدم ، أبو لهب والعباس ، وحمزة ، وأبو طالب ، وعبد الله .. ومن البنات صفية وبركة وعاتكة وأم حكيم وأميمة وأروى .. وكانوا جميعاً أقوياء البنية طوال القامة كأبيهم .

أما عبد الله فكان أصغر الأبناء وأحسن فتيان قومه وعلى

نصيب كبير من مكارم الأخلاق جميل الصورة حلو الملامح والتقاطيع وكان منذ صباه يرى الأصنام منصوبة حول الكعبة ويشاهد طرق عبادة النصارى واليهود ويعرف الفرق بين دينهم وشريعته الحنفية على دين إبراهيم وكان يستمع لأحاديث الرواة وقصائد الشعراء وأخبار القصاصين عن مشاهداتهم في بلاد فارس وسلطان ملوكها ومعابدهم وعن نار المجوس التي لا تنطفىء . . وعن بابل وعظمتها . . ومصر ومعابدها ونيلها وعجائب آثارها ورقة أهلها .. ويتفكه بأنباء اليمن وملوكها وقصور صنعاء الشامخة وكنوزها عن كنائس الحبشة ونجاشيها وعن قوة الرومان وبطشهم وجمال نسائهم ! !

... ودعا عبد المطلب أولاده الذكور ليختار من بينهم من ينحره لله عند الكعبة وفاء لنذره فأطاعوه وأجرى القرعة بينهم فكانت من نصيب عبد الله فأخذه من يديه وذهب به ينحره عند بئر زمزم تقرباً لله فهبت قريش كلها إلى الكعبة وفدت عبد الله بمائة من الإبل نحرت كلها لله .

ولما بلغ عبد الله الرابعة والعشرين من عمره رأى والده أن يزوجه فأختار له آمنة بنت وهب وهي فتاة جميلة ماهرة من أشرف بنات مكة ، حسباً ومنبتاً وكان زواجها عن إيجاب وقبول وكان عقداً معروفاً عند العرب . . وانتقلت آمنة من خيام قبيلتها إلى بيت

زوجها راضية بحبه الذى لا تشاركها فيه زوجة أخرى ولا ينازعها حب محظية ولا سرية على شيوع هذه العادة عند العرب .

وبعد مضى عشرة أيام على الزواج خرج عبد الله مسافراً إلى الشام مع القوافل التجارية فودعته عروسه وهى تدعو له بالتوفيق وقيل : إنها أبلغته أن هاتفاً قد بشرها بأنها حملت بسيد البشر . . ومرت الأيام والليالى وهى وحيدة وطيف زوجها الغائب لا يفارقها ومضى شهر وأهل الثانى وبدأت تحس بالجنين بين أحشائها فكادت تطير فرحاً . . ومضى شهر ثالث ورابع وجاءت الأخبار بأن القافلة التى خرجت منذ شهور على أبواب مكة فخرج الشبان على عادتهم لاستقبالها وذهبت النسوة إلى بيت من كان لهـا زوج فى القافلة ليشاركنها فرحة العودة وكانت آمنة الشابة الجميلة أكثرهن فرحا وسروا بعودة حبيبها عبد الله ودخلت القافلة العائدة ونزل الرجال منها إلى بيوتهم ولكن عبد الله لم يعد إلى بيته فحسبت آمنة أنه قد لقى أحداً فى طريقه ثم علمت فى بادىء الأمر أنه تخلف فى المدينة عند أخوال والده لمرض منعه من السفر ثم لم تلبث حتى عرفت أن زوجها قد مات فى طريق عودته ودفن فى « الأبواء » قرب المدينة .

عاشت آمنة الأرملة الحزينة تترحم على زوجها الذى لم يترك وراءه سوى ذكراه وتركة قليلة عبارة عن خمس من الإبل وقطيع صغير من الماعز ودار صغيرة متواضعة وجارية حبشية اسمها « بركة » وتفكر فى وحدتها وتنتظر مولد قرة عينها « محمد » أعظم شخصية فى التاريخ . ولما قرب موعد الولادة جاءها هاتف كريم وقال : قولى إذا ولدتيه . أعيذه بالواحد من شر كل حاسد ثم سميه محمداً فإن اسمه فى التوراة والإنجيل أحمد . .

وأتمت آمنة سيدة الأمهات أشهر الحمل وقلبها مفعم بالغبطة ووضعت سيدى الرسول المصطفى الذى كان مولده بداية هداية ورحمة عمت الدنيا بأسرها وكانت ولادته فى ليلة الثانى عشر من شهر ربيع الأول المعروف عند العرب بعام الفيل الموافق ٢٠ ابريل سنة ٥٧٠ ميلادية .

ولما ظهر نور الصباح أرسلت الأم إلى جده عبد المطلب وكان يطوف بالكعبة تبشره بمولد حفيده فأقبل الشيخ متهللا مسرعاً ليمتع عينه برؤية حفيده وانحنى على الأم مباركا وحمله منها وانطلق به إلى بيت الله الحرام وأخذ يطوف به الكعبة منشداً :

الحمــد لله الذى أعطـــانى
هذا الغلام الطيب الأردانى
قد ســاد فى المهد على الغلمان
عيذه بالبيت ذى الأركان
حتى أراه بــالغ البنيان
أعيــذه من شر ذى شنآن
من حاســد مضطرب العنان

ثم رده إلى أمه وعاد لينحر فى فناء البيت الذبائح قربانا لله أن وهبه من ابنه العزيز الغالى « محمداً » الذى درج وشب فى ظلال هذا البيت وساحاته ثم بعثه الله إلى خير أمة أخرجت للناس !

قصة عام الفيل

قال تعالى : « ألم ترى كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » .

وتتلخص هذه القصة فى أن النجاشى ملك الحبشة كان من الملوك الذين يدينون بالمسيحية وكانت اليمن إحدى البلاد الخاضعة لسيطرته وينوب عنه فى حكمها قزم مشوه الخلقة واسع الحيلة يسمى أبرهه الأشرم . .

وحدث من أبرهه ما جعل النجاشى يغضب منه ويقسم على السفر

إليه ليجز شعر رأسه إنتقاماً لإغتياله أحد مطارنة الملك ويدعى «أرباط» . . فلما علم أبرهه أرسل إلى النجاشى حفنة من تراب اليمن ليدوسها وخصل من شعر رأسه حتى يتخيل أنه قد جزه وكتب إليه يقول . . أيها الملك كان من واجب الإخلاص والتفانى لعرشك أن أفتديك باغتيال « أرباط » وحين بلغنى قسمك بعثت إليك بحفنة من التراب لتدوسها بقدمك فتبر بذلك قسمك . . فلما قرأ النجاشى الرسالة طابت نفسه وعفا عنه . . وفكر أبرهة فى إرضاء النجاشى وهداه تفكيره إلى هدم بيت الله الحرام ليمنع عنه الحجيج وتنقطع قوافل التجارة عن مكة وبدأ خطته بإقامة كنيسة ضخمة فى صنعاء وزينها بما يبهر الأبصار ويأخذ بالألباب وكتب إلى النجاشى يقول : بنيت لك فى صنعاء بيتاً لم تبن العرب ولا العجم مثله ولن أصبر حتى أصرف العرب إليه ويتركوا حج البيت . .

ولكن الله أحبط كيد أبرهة بانصراف أهل اليمن أنفسهم عن كنيسة إلى حج البيت فاشتد غيظ أبرهة وصمم على هدم الكعبة . . ثم جهز جيشاً كبيراً وجعل فى مقدمته فيلا ضخماً لبث الرعب والفزع فى نفوس العرب ولم يزل أبرهة سائراً بجنوده يغلب من يلاقيه فى الطريق حتى وصل إلى الطائف فخرج إليه مسعود بن متعب وبايعه

وقدم له قروض الطاعة . . ولم أصبح أبرهة على مسيرة ثلاثة أيام من مكة ، عسكر بجيشه بمنطقة تسمى « المغمس » ثم أرسل حناطة الحميرى على رأس مفاوضيه إلى أهل قريش ليبغلهم أنه لم يأت لحربهم وإجلائهم عن بلادهم وإنما لهدم البيت ففزع الناس وهرعوا إلى سيد قريش وأميرها عبد المطلب وجد الرسول .

وذهب عبد المطلب على رأس وفد من زعماء مكة إلى أبرهة لمحاولة إقناعه بالعدول عن هدم الكعبة مقابل جزية يدفعونها إليه بمقدار ثلث ثروة بلادهم ولكن أبرهه الحقير أصر على موقفه ورفض قبول الفدية فكان جواب عبد المطلب له : والله ما نريد حرباً وما لنا بذلك من طاقة هذا بيت الله أقامه خليله إبراهيم فإن يمنعك عنه فهو بيته وحرمه وإن يخل بيننا وبينك فوالله ما عندنا دفع عنه . . ثم تركه وانصرفوا عائدين إلى مكه وطلبوا من أهلها أن يلجأوا إلى شعاب الجبل لحماية أنفسهم بينما ذهب عبد المطلب إلى البيت الكريم فطاف به وأمسك بحلقة بابه وأخذ يدعو الله ويستنصره على أبرهة ويضرع إليه تعالى أن يحبط كيده ويرده خائباً ثم إنطلق إلى الجبل فى إنتظار قضاء الله .

وفى اليوم التالى لفشل المفاوضات كان أبرهة قد أستعد لدخول

مكة . . وما كاد يقترب منها حتى فوجىء بغضب الله فبرك الفيل وتمرد وامتنع عن السير . . وإذا بأسراب متتابعة من الطير تحوم فوق الجنود وترميهم بحجارة مسمومة حتى فتت أجسامهم ومزقتهم كل ممزق . . وحاول أبرهة وبعض جنوده الفرار هاربين ولكن الله أهلكهم بوباء الجدرى والحصبة . . وحفظ للبيت قداسته ومكانته وأبقى لقريش زعامتها ورفع من قدر مكة وشأنها فى العالمين .

وقد وقعت هذه الحادثة فى شهر صفر وتاريخه سنة ٥٧٠ ميلادية فاشتهر عند العرب بعام الفيل .

الرضاعة

وفتح محمد عينيه فلم يجد والداً يداعبه ويناغيه . . وعقب الولادة بنحو أسبوع حملته «بركة» بين ذراعيها وخرجت به تبحث له عن مرضعة ، لأنه كان من العادات المتبعة عند أشراف العرب وساداتها ألا ترضع الأم وليدها بل كانت تعهد به إلى مرضعة فى البادية. وعندما ولد الرسول أرضعته أمه نحو أسبوع ثم خشيت عليه من الوباء الذى كان منتشراً فى مكة يومئذ عقب حادثة جيش أبرهة ، ووافقت على إرساله لإحدى المرضعات . . وكانت المرضعات يقبلن من البادية فى موسم معروف ويتنافسن على إرضاع أطفال الأغنياء

ولكن « بركة » لم تجد بينهن من تقبل إرضاعه بعد أن عرفن أنه يتيم وأمه فقيرة وكادت تعود به إلى الدار خائبة الأمل لولا أن أقبلت عليها حليمة وهى من مرضعات بنى سعد بالطائف التى تقع جنوبى مكة فأخذت منها الطفل وعاش عندها فى البادية فنمت صحته فيها لنقاء هوائها وبعدها عن الحضر .

وفى سن السادسة رغبت آمنة فى زيارة قبر زوجها بالمدينة وبعد أن طافت بالكعبة ركبت ناقتها وضمت إلى صدرها وحيدها الرسول وصحبتها على ناقة أخرى جاريتها الوفية « بركة » وكان الجو صيفاً وشمس مكة المحرقة تلهب الصخور وتصهر الرمال وكانت طوال الطريق الشاق الذى لا نبات فيه ولا ماء تحدث الغلام عن والده ومكانته المرموقة بين أهله وقومه حتى وصلت إلى « الأبواء » وهى قرية صغيرة تبعد عن المدينة بنحو ثلاثة وعشرين ميلا وبعد أن زارت قبر زوجها واصلت الرحلة إلى المدينة لترى الغلام أخوال جده من بنى النجار . . وما كادت تشد الرحال عائدة بابنها إلى مكة حتى أحست بالاعياء ووطأة المرض المفاجىء الذى تمكن منها أثر عاصفة عاتية هوجاء أخذت تلفح وجوههم بريحها المحرقة وتثير حولهم الرمال كأنه الشرر الملتهب وفجأة ماتت آمنة وهى تحتضن ابنها وتقبله

وتودعه الوداع الأخير وقالت وهى تحتضر : كل حى ميت وكل جديد بال وكل كبير يفنى وأنا ميتة وذكرى باق فقد تركت خيراً وولدت طهرا . ودفنت فى « الأبواء » بجوار زوجها .

** وعاش محمد محروماً من عطف أبيه وحنان أمه وهما أثمن وأغلى ما يستمتع به الطفل فى نشأته الأولى فكفله جده لأبيه عبد المطلب بن هاشم وكان شيخاً جليلا كريماً يفيض منه العطف والحنان على حفيده اليتيم وحب الأجداد للاحفاد معروف .

ثم توفى جده أيضاً وهو صبى لم يتجاوز الثامنة من عمره فكفله عمه أبو طالب وفى بيت عمه بدأ يذوق طعماً جديداً من الحياة فقد كان أبو طالب رجلا عطوفاً وإن كان فقيراً تبهظ كاهله الحياة وكثرة الأولاد . . وبدأ محمد يسعى فى الحياة ليكسب بعض قوته برعى الغنم يصعد معها الجبال ويهبط بها فى الوديان !!

ولما بلغ الثانية عشرة من عمره سافر مع عمه أبا طالب فى قافلة تجارية إلى بلاد الشام ولما وصلوا إلى بصرى إحدى مدن الشام كان الراهب بحيرى الذى عرفه لنا التاريخ بأنه ثانى علماء المسيحيين الصالحين ، يطل على القافلة من صومعته فرأى غمامة تظلل طفلا مع القافلة من وهج الشمس وتتحرك فوقه أينما سار أو اتجه وتقف عندما

يقف فدهش للأمر وتذكر ما كان قد قرأه فى التوراة والإنجيل عن مثل هذه العلامات لنبى يأتى من بعد المسيح أسمه أحمد . . وأراد بحيرى أن يتحرى الأمر بنفسه فدعا رجال القافلة إلى وليمة عنده وأجلس محمداً بجواره وأخذ يسأله عن أحواله وما يشاهده ويحدث له أثناء يقظته ومنامه فإذا كل ما يسمعه منه يطابق ما قرأه عن صفاته . . ثم أخذ يفتش عن أشياء فى جسده حتى عثر على خاتم النبوة بين كتفيه وهو عباره عن بضعة ناشزة كبيضة الحمامة يتخللها شعر .

وعقب الوليمة ، انتحى بحيرى بأبى طالب وسأله عن صلة هذا الغلام به فقال له أنه إبنى قال لا أظن أنه ابنك ولا أعتقد أن مثله يكون أبوه على قيد الحياة فضحك أبو طالب وقال صدقت فإنه ابن أخى وقد مات أبوه وأمه حامل به فهمس بحيرى فى أذن أبى طالب يبشره برفعة شأن الغلام ويحذره من اليهود فإنهم إن عرفوه قتلوه وتخلصوا منه . .

وفى هذه الرحلة شاهد محمد حدائق دمشق النضرة وأشجارها الباسقة الوارفة ووقف قليلا على حياة اليهود والمسيحيين واستمع إلى أحبار اليهود وقساوسة المسيحيين وهو لا يدرى من يصدق أو يرفض ومن يتبع ولما عاد إلى مكة استأنف عمله فى رعى الأغنام يصبر عليها حتى تأكل ويجمعها برفق حتى لا تضل .

تاريخ رسول قبل البعث ناصع البياض فلم يعرف أنه شارك أترابه من الشباب فى لهوهم وسمرهم بل كان بطبيعته نافراً من تصرفاتهم وشركهم .

وعلى الرغم من بساطة شأنه فى الصغر فقد شب مرموقاً بعين العناية يحوطه الله ويحفظه من سيئات الجاهلية لما سبق فى عمله من اصطفائه لرسالته فكان أحسن الناس خلقاً وأصدقهم حديثاً وأعظمهم أمانة وأعطفهم قلباً وأرجحهم عقلا تبدو عليه مخايل النجابة وقوة الاستعداد .

فلم يكن فظاً غليظ القلب ولا محباً للعدوان أو أليف مغامرات بل كان سامى الخصال تميزت نفسه بالقناعة والرضا والتواضع والإقدام على التضحية والجود والكرم .

وقد وهبه الله قدرة على معرفة الناس ورفع القناع عن أسرار النفوس وخفايا الأفئدة وهذا من جلال القدرة الربانية .

واتصف بحميد الصفات وشريف الخلال بغير مؤدب ظاهر أو مرب معلوم سوى طهارة النفس وصفاء الروح وسط عالم كله وثنية .

ولم يعرف عنه منذ حداثته الأولى إلا الرزانة ولم يقل قط كذباً ولم يمل إلى العبث والمزاح أو يأتى رذيلة أو قبيحة أو يختلط بأبناء السوقة الرعاع بل كان شديد العطف على الفقراء واليتامى والمساكين ويحنو على المحرومين والأرامل والضعاف .

لم يذهب إلى مدرسة أو تعلم شيئاً من القراءة والكتابة ولعل يتمه كان سبباً فى حرمانه من التعليم مقترناً إلى مشيئة الله فى بعثه أمياً كما لم يكن يتمه موضع إذلال لأن الله أراد أن يثبت لرسوله وللناس كافة أن عنايته برسايه أقوى وأفضل من عناية الأباء والأمهات وأن من يتعهده بها ليس فى حاجة إلى الأهل والمال فتولى الله تنشئته وتأديبه وتعليمه . .

ولم يعرف عن محمد أنه كتب شيئاً بنفسه طول حياته وكان بعد مبعثه يستخدم كاتباً خاصا وإن كان عليه الصلاة والسلام من أقدر الناس على تعرف الأمور وتصريفها وكان أسلوبه وقوة منطقه لا يصل إليه أرقى الناس تعليما .. قال تعالى « وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك » .. وكان يكره الشعر والنثر المسجوع ويبغض النطق بهما مصداقاً لقوله تعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » وعلى الرغم من أميته ومخالطة معاصريه من كهان العرب وأحبار اليهود وقساوسة المسيحيين فقد كان متحرراً من أوهامهم وهواجسهم معاديا كل خرافتهم ! !

وكان إذا فرغ من رعى الغنم وجاءت الأشهر الحرم إلى أسواق عكاظ ومجنة وذى المجاز ليستمع إلى بلاغة الخطباء والشعراء فى فخرهم وغزلهم وإلى أهل الكتاب وهم يندددون بوثنية أهل مكة ويتفكهون بأصنام العرب ويحثونهم على الدخول فى دينهم ! ! ولكن محمداً صان نفسه وطهرها من كل دنس حتى عرف بين قومه بالطاهر الأمين الوفى .

وروى الرسول أنه وهو فى سن الصبا حدثته نفسه على تمضية بعض السهرات فى مكة للتفرج على ملاهيها كما يفعل سائر الشبان وبالفعل اتفق مع فتى فى مثل سنة كان يرعى معه الغنم على أن يتولى حراسة أغنامه فترة غيابه ولما وصل مكة رأى حفلة زواج تحييها فرقة موسيقية بأعذب الألحان وأشجاها فجلس الرسول يستمع ويشاهد ما يدور فيها فغالبه النوم ونام حتى أيقظته شمس الصباح ! !

وفى الليلة التالية عاود الكرة وذهب لمشاهدة بعض مباهج مكة فتكرر معه نفس ما حدث له فى الليلة السابقة ، فعزم ألا يعود إلى مشاهدة اللهو أبداً ! !

وهذا يؤكد أنه منذ صباه كان ناضج الرأى عزوفا عن ضجيج الحياة وزخرفها وعبث الشباب وملاهيه ولما بلغ الخامسة عشر من

عمره اشترك فى حرب الفجار التى نشبت بين قريش ضد الهوازن بسبب اعتداء البراض بن قيس الكنانى على عروة بن عتبه الهوازنى وقتله وقد سميت بذلك لأنها وقعت فى الأشهر الحرم وهى عند العرب أربعة أشهر : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم وشهر فرد هو رجب . . واستغرقت نحو أربعة أعوام وما كادت تنتهى حتى كان محمد قد وقف على فنون الحرب ومارس القتال وعرف تعبئة الصفوف وإلتقاء الجموع وقد قتل فى هذه الحرب حزام بن خويلد أخو خديجة زوجة الرسول وانتهت بعقد صلح دائم بينها وبأن يدفع من كانوا أقل قتلى دية العدد الزائد عن قتلاهم من الفريق الآخر ودفعت قريش دية عشرين رجلا من الهوازن .

وقضت الحاجة بتجديد بناء الكعبة فلما جمعت مواد البناء اللازمة وأخذت قريش فى البناء ثار جدال عنيف بين القبائل حول من يكون له شرف رفع الحجر الأسود وزاد الجدال إلى حد كاد يشعل نار الحرب بينهم ، فأقترح عليهم شيخ من كبارهم أن يكون الحكم فى ذلك لأول داخل إلى الكعبة فى اليوم التالى فقبلوا الاقتراح وأصبحوا وهم متحرقون شوقاً إلى معرفة من يتاح له هذا الشرف الرفيع فلما علموا أنه محمد بن عبد الله هللوا جميعاً قائلين : رضينا بالأمين فأخذ رداءه ووضع فيه بيديه الحجر الأسود ودعا زعماء

كل عشيرة إلى أن يمسك كل بطرف من أطراف الرداء وبذلك اشتركت جميع القبائل فى شرف رفع الحجر الأسود إلى موضعه ! !

سفره بتجارة خديجة

كان الرسول فقيراً بحسب ثروة أغنياء قريش لأن الدهر يتمه جنينا فلم يرث عن أبيه وأمه شيئاً يذكر ولم يتعلم صنعة تنفعه وكان جميع الأنبياء على هذه الحالة يزينهم شرف النبوة ويشد أزرهم عقل راجح وخلق عظيم ويعوزهم المال ! !

ورأى عمه أبو طالب أن يبحث لإبن أخيه عن عمل مناسب يحصل منه على رزق أوسع مما يدره عليه رعى الأغنام فناداه يوماً وقال له : يابن أخى إنك تعلم أنى رجل فقير الحال كثير العيال واشتد علينا الزمان وقد بلغنى أن خديجة بنت خويلد تستأجر الرجال فى تجارتها وتجزل لهم العطاء فقد استأجرت فلانا ببكرين من الإبل فإن وافقتنى ذهبت إليها لتستأجرك بأربعة كبار من الإبل ، فوافق الرسول وذهب أبو طالب إلى خديجة وعاد من عندها يبشر الرسول بموافقتها .

وخرج محمد بقافلتها التجارية وبرفقته « ميسرة » غلام خديجة الذى أرسلته معه لخدمته . . يطوى الصحراء إلى بلاد الشام ماراً

بالبقاع التى دفن فيها والده فأحيت فى نفسه الذكريات . .

واستطاع بأمانته وحسن تصرفه أن يربح لخديجة من تجارتها أكثر مما ربحه غيره وابتاع لها فى العودة كل ما رغبت فيه من تجارة الشام وعاد محمد إلى مكة وذهب إلى بيت خديجة ولم يكن قد رآها من قبل ولم تره وأخذ يقص عليها أنباء رحلته وهى مأخوذة بحديثه العذب وطلعته المشرقة ورقة شمائله ! !

وعقب انصراف الرسول أخذ ميسرة يقص على سيدته ما كان يلقاه منه من عطف وحنان طوال الرحلة وما شاهده من خصاله الكريمة وأنه كان يرى ملكين من السماء يظلان محمداً من الشمس وهو يسير على ناقته وقت الهاجرة ! !

زواج الرسول

. . وأحست خديجة بشىء يجيش فى صدرها وأخذت فكرة الزواج من الرسول تداعبها بين الحين والحين وهى التى ردت من أشراف قريش ثم تساءلت كيف تفكر فى الزواج منه وهى تكبره بنحو خمسة عشر سنة . . وكانت لها صديقة تدعى نفيسة بنت منية فنادتها وصارحتها بشعورها المفاجىء وودت لو ذهبت إلى محمد وحملت إليه رغبتها وفاتحته فى أمر الزواج منها . . وذهبت نفيسة

إلى الرسول وعادت لتبشر خديجة بموافقته . . وتحدث الرسول مع أعمامه فى أمر الزواج من خديجة فذهب معه عمه أبو طالب إلى عمرو بن أسد عم خديجة وخطبها منه وتم الزفاف وانتقل الرسول إلى دار عروسه وعاش الزوجان فى سعادة وهناء .

من هى خديجة

شبت خديجة كأمها فاطمة،على حب الخير للناس والبر بهم والعطف على الضعاف وكان كل فتيان قريش وثراتها وأشرافها يتنافسون على الزواج منها لفرط جمالها ورضى أخلاقها ولكن أبوها خويلد كان يتغالى فى صداقها ويوازن بينهم ليختار أحسنهم خلقاً وأكثرهم مالا وأشرفهم أصلا وحسبا ثم وافق على زواجها من أبى هالة بن زرارة التميمى وكان فتى شريفاً جوادا سمحا ولكن هناءها معه لم يدم طويلا فبعد أن رزقت منه بولدين قضى إلى جوار ربه وهى لم تزل فى زيعان شبابها وترك لها ثروة طائلة فامتثلت لإرادة الله وتحلت بالصبر الجميل وانصرفت إلى تربية ولديها وتنمية ثروتها ولكن شباب قريش أخذ إقبالهم عليها يتزايد يوماً بعد يوم من جديد كل يريدها لنفسه وأخيراً تزوجت من عتيق بن عائذ وكان من سراة قبيلة مخزوم وأجوادها ولكن حظها معه كان كسلفه فقد مات بعد أن رزقت

منه طفلة سميت « هندا » وورثت عنه ثروة طائلة ! !

ولم تمض فترة قصيرة حتى فقدت أباها فعادت إلى الحزن من جديد لحرمانها من عطفه وحنوه وأخذت تفكر فيمن يتولى إدارة أموالها ويشرف على تجارتها فأضطرت إلى استئجار الرجال فى أعمالها وجعلت لهم نصيباً فى ربحها فاتسعت أعمالها وزادت تجارتها وتضاعفت ثروتها . . وعاد طلاب الزواج منها يتكاثرون عليها من جديد ومنهم الشاب والشيب ولكنها أعرضت عنهم جميعاً وآثرت تربية أولادها وتنمية تجارتها .

وذات ليلة هبت من نومها وفزعت مضطربة أثر حلم رأته فلما أصبحت أسرعت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان من الوثنيين ثم اعتنق المسيحية وأصبح من علمائها المتفقهين وعارفاً بتأويل الأحلام وتفسير الرؤيا وأخبرته أنها رأت . . أن شمساً عظيمة تهبط على دارها من سماء مكة وقد غمر ضوؤها ما يحيط به من أماكن وبقاع ! !

فقال لها ورقة . . استبشرى يا خديجة فوالذى نفسى بيده ستتزوجين وهذه الأنوار التى رأيتها هى علامة مجىء خاتم الأنبياء

والمرسلين أما دخولها دارك فمعناه أنك ستتزوجين من هــذا الرسول !!

* * *

وقد كان زواج خديجة من الرسول وهو فى الخامسة والعشرين وهى فى سن الأربعين ولم يتزوج الرسول غيرها حتى توفيت بعد ذلك بست وعشرين سنة وقد ولدت له أربع بنات وولدين أكبرهم القاسم وبه دعى الرسول بأبى القاسم لـكنهما ماتا فى الصغر ، أما كبرى بناته فهى زينب التى تزوجت من أبى العاصى ومن بعدها رقية التى تزوجت من عثمان بن عفان وقد توفاها الله يوم انتصار المسلمين فى غزوة بدر ومن بعدها أم كلثوم التى تزوجت من عثمان بعد وفاة شقيقتها وصغراهن فاطمة الزهراء وقد زوجت من على بن أبى طالب وقد فقد الرسول أولاده جميعاً فى حياته ما عدا فاطمة التى عاشت بعده ستة أشهر وكان له ولد واحد وهو ابراهيم وقد رزق به من زوجته مارية المصرية القبطية التى أهداها له المقوقس عظيم القبط فى مصر ولـكنه مات صغيراً وعمره ثمانية عشر شهراً .

وقد اقتضت حكمة الله ألا يعيش له أبناء ذكور حتى لا يفتتن بهم الناس من بعده ولا يعطوهم الخلافة فتـكون فتنة بين المسلمين

ويقوم مقابق ويقول : أنها ملكية أورثها الرسول لأولاده . .

وكان الرسول كثير الحب لخديجة وكثيراً ما كان يذكرها بالخير وبعبارات رقيقة حتى بعد مماتها لأنها كانت خير معين له فى الفترات الحرجة من تاريخ النبوة الحافل بآيات النصر والجهاد وأكبر مؤازر فى كفاحه لنشر دين الله فكانت أول من صدق به وآمن برسالته الكريمة وقد روى عنها ابن هشام أن جبريل جاء إلى الرسول فقال : يا محمد اقرأ على خديجة السلام من ربها فناداها الرسول يا خديجة هذا جبريل يقرأ عليك السلام من ربك فقالت رضى الله عنها : الله السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام .

النبوة والبعث

اشتغل الرسول بعد زواجه بالأعمال التجارية فكان أعدل الناس كيلا ووزنا وأوفاهم ذ ة وأرخصهم سعراً وقد كان عليه الصلاة والسلام يستورد السلع والبضائع جملة ثم يبيعها بالقطاعى ومن ربحه القليل كان يعيش ويصدق وينفق فى أعمال البر والخير وكان يشاهد فى بعض الأحيان وهو يدال بنفسه على سلعة ولا يرى فى ذلك عيباً أو منقصة . . وكان يندد بالربا أخذا وعطاء ويحذر المحتكرين والجشعين الذين يخزنون السلع لبيعها بأعلى الأسعار . . ويحض على إيفاء الكيل والوزن . .

وحبب الله إليه الخلوة والانفراد للعبادة ورياضة النفس ليعده لقبول التجلى عليه بالنور الإلهى وتحمل أعباء الرسالة والدعوة إلى الله لتطهير النفوس من أقذار الجاهلية ، فإذا حل شهر رمضان من كل عام آوى وحده إلى غار حراء وهو كهف صغير على جبل النور بمكة وأمضى أيامه ولياليه فى الصوم والصلاة والعبادة والتفكير فى الله ويبتهل إليه تعالى والدموع تنهمر من عينيه أن يهدى العالم وأن يسدد خطاه إلى طريق الهدى .

وكان كلما قرب من سن الأربعين إزداد انهماكا فى شئون الدين . . ولما بلغ عمره تسعا وثلاثين سنة وستة أشهر ابتدأه الله بالرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا فى منامه إلا تحققت ! !

ولما بلغ الأربعين وهو عام مبعثه وبينما هو فى ذلك الكهف بمفرده فى ليلة من ليالى رمضان لعام ٦١٠ ميلادية وهى الليلة التى اصطفاها الله ، جاءه جبريل عليه السلام وهو نائم بنمط من ديباج فيه كتاب وطلب إليه أن يقرأ فأجابه النبى أنا لا أعرف القراءة فضمه جبريل إلى صدره بشدة وهو يطالبه بالقراءة وتكرر ذلك ثلاث مرات متوالية وفى المرة الثالثة أجاب الرسول أنا لا أعرف القراءة

فقرأ له جبريل الآيات الكريمة : « إقرأ باسم ربك الذى خلق . . » وقرأها الرسول من بعده .

. . ويقول الرسول . . فلما انصرف جبريل هببت من نومى، وكأنما كتب فى قلبى كتاب ثم قال : فخرجت أبحث عنه حتى إذا كنت فى وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . . واستطرد الرسول يقول : فرفعت رأسى إلى السماء أنظر فإذا جبريل فى صورة رجل صف قدميه فى أفق السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله فوقفت أنظر إليه وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء فلا أنظر فى ناحية منها الا رأيته كذلك فما زلت واقفاً فى مكانى ما أتقدم أمامى ولا أرجع ورائى حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى ثم انصرف عنى وانصرفت راجعاً إليها .

وعاد الرسول إلى منزله وهو يرتعد وجسمه يضطرب ويهتز وقد بردت يداه وقدماه وطلب من خديجة أن تدثر جسده وبعد لحظة انقشعت عنه الرعدة وأخذ يقص عليها الأمر كلها وهى منصتة إليه فى إشفاق واهتمام وقالت له : « أبشر يابن عم وأثبت فوالذى نفس خديجة بيده إنك نبى هذه الأمة . . ثم قامت فلبست ثيابها وانطلقت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان من العلماء المتبحرين فى

المسيحية وقد بلغ من السن ما أعجزه عن الحركة وأضعف بصره فأخبرته بما حدث للرسول فصاح ورقة متهللا قدوس قدوس والذى نفسى بيده أن محمداً هو النبي المرتجى لهذه الأمة ولقد جاءه الناموس الأكبر الذى جاء لموسى وعيسى. لئن عشت حتى ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه ولكن ورقة مات قبل أن يكلف الرسول بنشر الدعوة .

ولما رجعت خديجة إلى منزلها وجدت الرسول نائماً فأخذت تلحظه فى إشفاق ثم فوجئت بأن جسده يهتز ويثقل نفسه ويقوم ليستمع إلى جبريل يوحى إليه : « يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر» وأشفقت خديجة على زوجها ورجته أن يعود إلى فراشه ليستكمل راحته فأجابها قائلا ياخديجة لقد انقضى عهد النوم والراحة فقد جاءنى جبريل وأمرنى أن أنذر الناس وأن أدعوهم إلى طاعة الله والى عبادته ثم خرج الرسول وطاف بالكعبة .

وتكرر الوحى والآيات القرآنية تنزل عليه تباعاً وكثيراً ما كان يحدث له فى أثناء هذه الرؤيا أن يسقط على الأرض ويرتجف ويتصبب العرق من جبينه ثم ينصرف عنه وقد وعى عنه ما قال .

وكانت خديجة تشعر باقتناعها بأنه هو وحده الرجل الحق الجدير بتلقى الدعوة الإلهية لهداية البشر ولذلك كانت أول من آمن به وصدقه ويلى خديجة فى قائمة المؤمنين الأولين أبو بكر أحد أشراف مكة وكان صديقاً حميما للرسول قبل مبعثه ولا يقل إيمانه بالرسول عن إيمان خديجة فلما سمع الرسول يجاهر بالإسلام حتى كان أول من أسلم من الرجال ويليه على ابن أبى طالب ابن عم النبى الذى تربى معه ثم يزيد بن حارثه خادم الرسول .

ولما افترضت الصلاة على المسلمين كان الرسول بأعلى مكة فجاءه جبريل وعلمه الوضوء والصلاة فلما عاد إلى داره علمهما لخديجة ودخل على بن إبى طالب الدار فوجد ابن عمه وزوجته يقومان ويركعان ويسجدان فوقف مبهوتاً حتى إذا فرغا من صلاتهما سألهما عما يفعلان وتعلم منهما الصلاة وكان أهل مكة يرون رجلا ينظر إلى السماء ويستقبل الكعبة وعن يمينه غلام وخلفهما امرأة يركعان بركوعه ويسجدان . . ويقومان بقيامه فيتساءلون ويتهامسون هذا محمد وعلى وخديجة على دين ليس من يدين به سواهم .

واعتنق الإسلام بعد ذلك خمسة من زعماء مكة هم عثمان بن

عفان والزبير بن العوام وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبد الله .

نشر الدعوة

جاهر الرسول بأنه نبي الله المبعوث لهداية الناس كافة إلى حياة أفضل وقام يدعو المشركين إلى اعتناق الإسلام دين الكمال وعبادة الله وحده فأخذت دعوته تنتشر شيئاً فشيئاً بين أهله وخاصته وأصحابه ولكن قريشاً سخرت منه في بادىء الأمر وهاجمته في دينه وتربصت به لإيذائه لولا أن حماة منهم عمه أبو طالب ثم أخذوا في تعذيب واضطهاد من يدخل في الإسلام من الفقراء اضطهاداً بلغ حداً فظيعا في قسوته بإلقائهم في غياهب السجون وبتعريضهم الساعات الطوال إلى وهج الشمس وهم عراة وبمنع الماء عنهم .

وكانت دار الرسول ندوة القوم لكل من أراد الاستماع إليه غنيا كان أم فقيراً أو عبداً رقيقاً سواء من العرب أو من المسيحيين واليهود على السواء .. وكثيراً ما كان الرسول يذهب إلى الكعبة ويتعرض للقوافل التجارية ووفود الحجيج من قبائل العرب والبدو ويدعوهم إلى الدخول في دين الله واعتناق الإسلام .

والدين الإسلامى وحده قوية شاملة خالية من كل الفروق فى شعائره وعقائده وهو أبسط الأديان كلها وأوضحها عقيدة وأساسه شهادة أن لا آله إلا الله وأن محمداً رسول الله والإيمان بالقرآن وبكل ما جاء به جميع الأنبياء والرسل الذين سبقوا محمداً ، وبالجنة والنار والبعث والحساب والملائكة والشياطين وبالقضاء والقدر خيره وشره وأركانه خمسة هى الشهادتان وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا .

ورسالته عامة جامعة لا تتقيد بجماعة أو بأمة وتحوى كل مايلائم الراشدين من الناس من مطالب والعقل والحياة وهى تخاطب العقول لأنها المصابيح التى تشرق على النفس بنور المعرفة وتكشف لها من أسرار الكون وعجائبه حتى إذا إهتدى الإنسان إلى هذه الحقيقة امتلأ قلبه بالإيمان وأنتج عقله للخير وأشرقت نفسه بالفضيلة وتحركت جوارحه إلى العمل الصالح لخيره وخير إنسانيته . .

عظمة محمد

لم يصادف التاريخ الإنسانية من العباقرة مصلحاً ربانياً بنى العقيدة الروحية على أساس الحرية والاختيار كما فعل رسول الله المختار محمد

ابن عبد الله الذى كان قرآنا يمشى بين الناس وكانت حياته كلها خيراً وبركة ونوراً وأملا للناس كافة . . فقد كان للناس قبل مبعثه فى ظلام دامس وجهل مطبق ، والحياة كلها محن وشدائد وبلاء لا طاقة للبشرية على مقاومتها ودفعها، والنفوس مريضة بألوان خلقية يعز علاجها والإنسانية معذبة بألوان الظلم والبغى فلابد لها من زعيم مصلح وقائد حكيم يرفع عنها هذه المخاوف والمزعجات وينقذها من مهاوى الفساد ويرفعها إلى نور الرشاد فاقتضت حكمة الله أن يكون ذلك المصلح هو محمد الذى نفس عن الإنسانية كربها ورفعها إلى مواطن العزة والفخار والإيمان فكانت دعوته ثورة اجتماعية مهما قلبنا عن شبيه لها وأعظم آثارها هو الانقلاب الخلقى والنفسانى الذى أحدثه بعمله ومثله وشخصه فالصدق والبر ومعرفة الواجب وآداؤه والحلم والحياء والصبر والشجاعة والعزة والتواضع والعفة والوفاء كل ذلك بعض صفاته البارزة التى قربته إلى القلوب فتعلق الناس به ، وتركوا فى حبه جاهليتهم وآباءهم وأبناءهم .

أما حياته فكانت فى غاية البساطة فالمساكن التى أقام بها سواء فى مكة أو فى المدينة ، كلها مبنية من اللبن لا يزيد ارتفاعها عن خمسة أمتار وسقفها من جريد النخل وأبوابها ستائر من شعر الماعز أو وبر

الجمال . . أما الفراش فلم يكن أكثر من حشية من الشعر تفرش على الأرض ووسادة وكثيراً ما كان يشاهد وهو يصلح نعاليه ويرقع ثيابه ويكنس أرض داره ويحلب عنزة البيت فى فنائه ويبتاع الطعام من السوق وكان يأكل بيده وأساس طعامه من الثريد والتمر وخبز الشعير وكان اللحم واللبن وعسل النحل كل ما يستمتع به من الترف فى بعض الأحيان ، وما عاب على طعام قط ، إن اشتهاه أكله وإلا تركه . . وكان أحسن الناس خلقاً لطيفاً مع العظماء والفقراء ، بشوشاً فى أوجه الضعفاء متسامحاً مع أعوانه ، يرفض أن يوجه إليه شىء من التعظيم الخاص ، يقبل دعوة العبد الرقيق إلى الطعام وكان لا يطالب إلى عبد له أن يقوم له بعمل يجد لديه من الوقت والقوة ما يمكنانه من القيام به لنفسه .

كان حسن المظهر له وجه مثل القمر مشرباً بحمرة جميلة ، ضخم الرأس كث اللحية وفى مفرق رأسه شعرات بيض وعنقه كأنه أبريق يتعطر ويكتحل ويصبغ شعره ويلبس خاتماً نقش عليه . « محمد رسول الله » . ليوقع به على الوثائق والرسائل وكان صوته موسيقياً حلواً يأسر القلوب ، لا يطيق الروائح الكريهة ولا أصوات الأجراس أو الأصوات العالية . . محارباً صارماً لا يرحم عدواً وقاضياً عادلا وأعماله الرحيمة

مهيب الطلعة لا يضحك إلا قليلا قادراً على الفكاهة ولكنه كان لا يترك لهذه المقدرة العنان لأنه كان يعرف خطورة المزاح إذا نطق به من يتولى أمور الناس . . ولم يكن بالطويل ولا بالقصير أبيض اللون مشربا بحمرة إذا مشى تقلع كأنه يمشى فى صبب وإذا التفت معا ، أجود الناس كفا وأوسع الناس صدراً وحلماً وأصدق الناس لهجة وأوفى ذمة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة من رآه هابه ومن خالطه أحبه ، مرهف الحس كثير التفكير إذا غضب انتفخت عروق وجهه بدرجة يرتاع لها من حوله ولكنه كان يعرف كيف يهدىء من انفعاله ، يعفو من فوره عن عدوه الأعزل إذا تاب .

وكانت أعماله الإدارية تشغل كل وقته وكان يعنى أشد العناية بكل صغيرة وكبيرة فى شئون القضاء والتشريع والتنظيم المدنى والدينى وحتى التقويم فقد عنى بتنظيمه .

وكانت بعض زيجاته من أعمال البر والرحمة بالأرامل الفقيرات اللاتى توفى عنهن أتباعه أو أصدقاؤه وكان بعضها زيجات دبلوماسية كزواجه بحفصة بنت عمر الذى أراد به أن يوثق صلته بأبيها وربما كان الدافع إلى بعضها أملا فى أن يكون له ولد وهو أمل حرم منه

زمناً طويلا وكانت زوجاته كلهن عقيمات ما عدا خديجة ومارية القبطية التى أهداها إليه المقوقس عظيم القبط فى مصر وقد رزق منها بولد أسماه إبراهيم واغتبط به أشد الاغتباط ولكن الطفل مات بعد خمسة عشر شهراً من مولده . . وكان أعدل بين نسائه جميعاً فيما يملك وكان يفضل السيدة عائشة عن سائر نسائه ما عدا السيدة خديجة رضى الله عنهن . . وقد أعانه نشاطه وصحته على أداء واجباته كزوج ومحارب ، ولكنه حين بلغ التاسعة والخمسين من عمره أخذ يضعف فأصبح عرضة لنوبات مرضية ولحميات فجائية ولما بلغ الثالثة والستين اشتدت عليه هذه الحميات وظلت تعاوده أربعة عشر يوماً قبل وفاته .

وكان يخاطب الناس على قدر عقولهم ولم يدع فى يوم من الأيام أنه قادر على معرفة الغيب أو الإتيان بالمعجزات ، وكان كثيراً ما يعترف بأن ثمة أموراً لا بد أن يرجع فيها إلى الوحى مثال ذلك أن رجلا يقال له الوارث بن عمر ذهب إليه فقال . . يا محمد متى تقوم الساعة ؟ ؟

وقد أجدبت بلادنا فتى تخصب ؟ ؟ . . . وقد تركت امرأتى حبلى فتى تلد ؟ ؟

وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غداً ؟ ؟ وعلمت بأى أرض ولدت فبأى أرض أموت ؟ ؟

فنزلت هذه الآية « إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير » .

وكان يحتج على الذين يظنونه أكثر من إنسان مثلهم يجرى عليه ما يجرى عليهم أو على الناس جميعاً من حياة وموت ، ومع ما كان له من كريم المنزلة فقد كان جم التواضع .

الاسراء والمعراج

وقبيل الهجرة أكرمه الله بالإسراء والمعراج مصداقاً لقوله تعالى « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » .

الهجرة الى المدينة

والهجرة إلى المدينة : نصر الله بها المسلمين فأصبح لها فى ميدان الذكريات طالع سعيد وعلى صفحات التاريخ حديث مجيد فقد لقى الرسول من قريش من ألوان العسف والأذى ما لا يمكن أن تتحمله

نفس بشرية واحتمل مكائدهم صبورا على إيذائهم ولكن قريشاً تمادت فى عداوتها وظلت على مقاطعة الرسول وحصار المسلمين ثلاث سنوات متتالية احتموا خلالها بشعاب الجبل يعانون من الحرمان ألوانا ولا يجدون وسيلة يدفعون بها الجوع والظمأ إلا فى وقت الأشهر الحرم حين يفد الحجيج على مكة وتضع الخصومات أوزارها فلا قتل ولا تعذيب ولا اعتداء ولا انتقام ! !

ووصل العنف بقريش أقصاه فاجتمع شيوخهم فى دار الندوة ليتخلصوا من الرسول واختاروا من كل قبيلة شاباً قوياً ليضربوه بسيوفهم المسلولة ضربة رجل واحد فيقتلوه ويستريحوا منه . . . وذهب المؤتمرون وحاصروا دار الرسول .

غير أن مشيئة الله أحبطت خطتهم ، فقد أرسل الله جبريل إلى رسوله يبلغه بتفاصيل المؤامرة ويأمره بالهجرة مصداقاً لقوله « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » .

وخرج الرسول من داره فى الهزيع الأخير من الليل وكله ثقة فى ربه وإيمان بحمايته ، وقد أخذ بيده حفنة من التراب نثرها على رءوس المتربصين به فأخذهم النوم حتى خرج الرسول من نطاق

الحديد والنار الذى ضرب به قومه حوله !! ونجا من كيدهم فلما استيقظوا هجموا على الدار فلم يجدوه وعادوا إلى شيوخهم وزعمائهم يجرون أذيال الخزى الكبير !

وكانت هجرته هو وأصحابه من مكة إلى المدينة نصراً كبيراً لدينه بإقامة شعائره ونشر أحكامه والجهاد فى سبيله مع المهاجرين والأنصار . . وفى المدينة تم مبايعة أهلها للرسول والمهاجرين وانتشر الإسلام حتى لم يكن بينهم حديث إلا أمر الإسلام .

تحويل القبلة

ومكث الرسول بالمدينة ستة عشر شهراً يستقبل بيت المقدس فى صلاته وبينما هو فى صلاته يقلب وجهه فى السماء داعياً الله أن تكون قبلته الكعبة أوحى الله إليه بتحويل القبلة إلى الكعبة فتحول وتحول من وراءه وكانت هذه الحادثة سبباً لافتتان بعض المسلمين الذى ضعفت قلوبهم فارتدوا على أعقابهم وكان أغلبهم من اليهود .

القتال دفعا للظلم

ولو أن خصوم المسلمين تركوا الرسول وأصحابه يدعون إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة وما آذوا مسلماً ولا فتنوا

مؤمنا» ما شهر المسلمون سيفا ولا خاضوا حرما لأن الإسلام لم يكن دين حرب ولا قتال ولا عدوان ولا سفك دماء ، وإنما هو دين هداية وسلم وعدل وأمان لأنفس الناس وأموالهم وجميع حقوقهم . .
وما أذن الله لرسوله والمسلمين في أن يقاتلوا مخاليفهم حبا في الإعتداء أو رغبة فى إخضاعهم لسلطانهم أو فى الإستيلاء على أموالهم وأوطانهم، وإنما أذنوا فى أن يقاتلوا المشركين دفعا للظلم والعدوان على دعوتهم وأنفسهم وأموالهم كما جاء فى قوله : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » .

وقد جهز الرسول خلال السنين العشر التى قضاها فى المدينة خمسا وستين غزوة وسرية قاد بنفسه سبعا وعشرين منها .

وأمضى العامين الأخيرين من حياته فى المدينة وكان ينتقل فيها من نصر إلى نصر فقد خضعت فيها بلاد العرب كلها إلى سلطانه ودخلت فى دين الله وعاهد المسيحيين فى بلاد العرب وأخذ على نفسه أن يحميهم وأن يكونوا أحرارا فى ممارسة شعائر دينهم ولكنه نهاهم عن الربا وبعث الوفود إلى ملوك الروم والفرس وإلى المقوقس عظيم القبط بمصر يدعوهم جميعا إلى دين الإسلام .

وقد كانت بلاد العرب لما بدأ دعوته صحراء جدباء تسكنها قبائل متفرقة الكلمة من عبدة الأوثان وأصبحت عند وفاته أمة موحدة متماسكة واستطاع في جيل واحد إن ينتصر في كل المعارك وأن ينشيء دولة عظيمة مسلمة بقي خطرها إلى يومنا هذا .

وفاة الرسول

ولم تأت ضحوة يوم الإثنين ١٣ ربيع الأول سنة ١١ هجرية (٨ يونيه سنة ٦٣٢) حتى فارق رسول الله دنياه ولحق بمولاه وهو يبلغ من العمر ٦٣ سنة كاملة وثلاثة أيام .. فلما بلغ أبا بكر الخبر أسرع إلى بيت ابنته عائشة زوج الرسول وكشف عن وجه الرسول وجثا يقبله وهو يبكي ويقول ..توفي والذي نفسي بيده صلوات الله عليك يارسول الله ما أطيبك حياً وميتاً ، بأبي أنت وأمي لا يجمع الله عليك موتين ! !

ثم خرج من الدار وخطب في الناس قائلا .. أيها الناس من كل يعبد محمداً فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت .

وبقي الرسول في بيته حتى انتهى المسلمون من إقامة خليفة لهم ثم غسل وكفن وصلى عليه المسلمون جميعاً بلا إمام الرجال ثم النساء ثم الصبيان وحفر لحد في بيت عائشة ودفن ليلة الأربعاء في جوف الليل

تاركا المسلمين كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأحاديثه الشريفة التى حفظها عنه الثقاه وكانت تشريعا وبيانا لأحكام القرآن ومقاصده .

***

وكانت سيرته فى صحابته وطريقته فى تربية النفوس ومعالجة أدوائها وحبه لربه وتفانيه فى طاعته ورضاه دستوراً حافلا جعل العلماء يرحلون الشهور الطوال فى طلب نصوصها من رواتها .

وكان المسلمون فى عهده يستمعون لكل ما ينطق به بقلوب واعية وآذان صاغية ويلتزمون الدقة والحيطة فى نقلها أو روايتها ، وإن كان لم يعرف عنه صلى الله عليه وسلم أنه شجع صحابته على كتابتها فلما اختاره الله إلى جواره وانتشر دين الله ودانت شعوب الأرض شعر الصدر الأول أو السلف الصالح بضرورة جمع السنة فى كتاب للتثبت من صحة كل ما يروى عنه وقد نفذت هذه الفكرة فى القرن الثانى الهجرى على يد أئمة الدين وأشهرهم الإمام مالك بن أنس.

فلما جاء القرن الثالث الهجرى ظهرت مؤلفات جديدة أخرى من كتب السنة كانت ولا تزال منار الدارسين للحديث والسنة وأشهر هذه الكتب اثنان اشتهرا بالدقة وعرفا بالصحيحين للامام

البخارى الذى ولد فى إقليم خرسان سنة ١٩٤هجرية وتوفى سنة٢٥٦ هجرية وكان أبوه رجل علم صالح وقدظل يجوب الأقطار الإسلامية مدة ستة عشر عاماً فى سبيل تحقيقها وقد جمع خلالها أكثر من سبعة آلاف من صحيح الحديث من رجال الدين وعلماء الفقه الإسلامى .

فضل القرآن

إذا كانت رسالة الإسلام هى القرآن تسكبه فى النفوس هدى ورحمة ومحبة وسكينة وأمنا فقد كان القرآن الفضل فى تحرير الناس من الوثنية ومن الكهنوتية وأقام فيهم قواعد النظام الاجتماعى والوحدة الدينية ، وحرر عقولهم من جميع الخرافات والأوهام وأنقذهم من مثات العادات وبعث فيهم وفى نفوس الأذلاء الكرامة والعزة وحب الدين بطريقة لا يجد المسيحى ولا اليهودى الصحيح العقيدة ما يمنعه من قبوله !!

لقد قلب القرآن فى آياته المتلوة صحف هذا الكون أمام الانسان دخل به نفسه وصعد به إلى السموات ونزل به إلى الأرض وطاف به الوديان والجبال وغاص به البحار ودعاه فى كل ذلك مراراً وتكراراً إلى النظر فى آياته العقلية والحسية حتى تعرف النفس جلالة مصدرها وكماله فى العلم والقدرة فتخضع عن طريق برهانى وعقلى ووجدانى لإرادة مصدرها وتنشط فى طاعته وتتوخى فى الحياة ما يرضيه !!

وأرشد أن الله ما خلق السموات والأرض باطلا لا خير فيهما وإنما خلقهما لغاية قضت به الحكمة الإلهية لينتفع بها الإنسان على أنها نعمة من نعم الله وآثار رحمتـه بعبادة تقابل بالشكر والحمد والثناء والإسلام !

وارتفع بالعقل وسجل له أن إهماله فى الدنيا سيكون سبباً فى عذاب الآخرة لأن الإنسان لم يخلق فى هذه الحياة ليعبث ويلهو أو ليطغى بقوته وجبروته ويستبد قويه بضعيفه ، وإنما خلق لحكمة سامية تعبر عن جلال الله وكماله وهى أن يكون خليفة فى الأرض يعمرها ويعمل على إصلاحها واتساع عمرانها وإظهار أسرار الله فيها وإقرار الخير والسعادة فى نواحيها .

ووضع للتهذيب الروحى جملة وسائل تتلاقى كلها عند غرض واحد هو تنقية الفطرة البشرية من معانى الشرك وصوره المختلفة التى تطمس فى القلوب صورة التوحيد الخالص الذى فطر عليه الإنسان وربطت به سعادته فى الدنيا والآخرة !

وحارب جهالة التقليد وأنكر على الإنسان أن يسلم عقله لغيره وأن يقف فى عقائده ومعارفه ووسائل الحياة عندما خلفه الآباء والأجداد من الأوهام والأباطيل !

وكافح في النفوس والإسراف والترف وعمل على تطهيرها منهما وأوضح أن الترف منبع شر يملأ القلوب حقداً وضغينة ، وأعدها للبذل والعطاء فى القيام بحق الله وحق الناس ثم تعرض لأصول البر الذى جعله الله من دلائل الإيمان الصادق حيث قال « وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب » .

وأوجب مديد المعونة إلى الفقراء والمساكين وأرباب الحاجات ، كما أوجب مدها إلى أولياء الأمر بما يمكنهم من إقامة المصالح والمنشآت التى تحقق الخير والنفع العام .

. . . وبذلك كان الإسلام دين الفكر ودين العقل ودين العلم والإحسان وطالب الإنسان بالعمل والسعى فى تحصيل الرزق والمعاش الذى يكفل حاجته ويوفر له حياة نفسية هادئة ، وحذره من البطالة والكسل وإراقة ماء الوجه بالسؤال .

ورسم طريق الحياة القومية للمجتمع المثالى الفاضل فحث على استثمار المال فى المشروعات الإنتاجية والصناعية والتجارية والعمرانية .

وحارب الشح والبخل (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون)

كما حارب السفه الذى يودى بالمال فى غير وجوه النفع وإقامة المصالح « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين » وأشار إلى أن الضن بالأموال عن أداء الواجبات وإقامة المصالح إلقاء بالنفس فى التهلكة كما جاء فى قوله تعالى « وانفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا أنفسكم إلى التهلكة » .

وحرم الربا تحريما قاطعاً إبقاء على الإنسان أن يتخذ الغنى حاجة أخيه الفقير أو دولته المحتاجة فرصة لاكتساب المال عن هذا الطريق الذى لا خير فيه مصداقاً لقوله « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » وأمر بالعطف على اليتيم وحث على تربيته والمحافظة على نفسه وماله ورعايته حتى يقوى على الحياة وتنمو جوارحه وينشرح صدره وحذر من إهمال شأنه فتتمكن منه أساليب الانحراف فيكون عالة على الأمة يسبب لها الضعف أو الانهيار !!

ولفت نظر الإنسان إلى خطر الأمية وإلى فضائل العلم بقوله « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » وحث على ضرورة العناية بالصحة ووقايتها من الأمراض فقد أباح للمسافر أن يفطر فى

رمضان حتى لا تجتمع مشقة السفر مع مجهود الصوم فتضعف صحته وأمر المريض أن يفطر حتى لا يزداد مرضه بالصوم وأباح لمن خاف تأخر شفائه من المرض باستعمال الماء فى الوضوء أن يتيمم .

وإذا كانت الوقاية خيراً من العلاج فقد حرم الخمر والميتة والدم والخنزير وضمن العبادات التى أمرنا بها تقرباً إلى الله كثيراً من أنواع الوقاية التى تحفظ الجسم والصحة ! !

الـــزواج

وشرع الله الزواج فى القرآن بقوله « ومن آياته أن خلق لـكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينـكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفـكرون » وحث عليه وسفه من يعرض عنه وحدد من يجوز للرجل الجمع بينهن شرعا إن استطاع العدل بقوله « فانـكحوا . ما طاب لـكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدةأو ما ملـكت أيمانـكم ذلك أدنى ألا تعدلوا » .

وأوصى بعشرة النساء بالمعروف كما جاء فى قوله « وعاشروهن بالمعروف » وجعل الرجال قوامين على النساء بقوله « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » .

وأباح الطلاق للرجال وهو كما قال الرسول ، أبغض الحلال إلى الله ، ولهذا حاطه بسياج الحفظ ما أمكن كما قال « وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » وقوله « يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن واحصوا العدة واتقوا الله ربكم » .

ونهى عن التحدث فى أعراض النساء أو الكلام عنهم بما يؤذى سمعتهن بقوله « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا الشهادة أبدا أولئك هم الفاسقون » .

وطالب بعدم دخول المساكن إلا بعد الاستئذان من أهلها مصداقاً لقوله « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلك خيراً لكم لعلكم تذكرون » .

وحرم على النساء ولاية الحكم وسوى بين الرجل والمرأة فى الإجراءات القضائية والاستقلال المالى وجعل من حقها أن تشتغل بكل عمل حلال وأن تحتفظ بمالها ومكاسبها ، وأن ترث وتتصرف فى مالها كما تشاء .

وقضى على ما اعتاده العرب فى الجاهلية من انتقال النساء من الآباء إلى الأبناء فيما ينقل إليهم من إرث ومتاع وجعل نصيب المرأة فى الميراث نصف الرجل ونهى المرأة عن التبرج ولكنه أجاز لها الخروج لقضاء حوائجهن أو للصلاة فى المساجد .

ومنع زواج المرأة بغير إرادتها واشترط رضاء الخطيبين لإتمام عقد الزواج فإذا تم هذا الرضا بشهادة الشهود العدول الشهداء وأدى العريس صداق عروسه كان ذلك كافياً لإتمام العقد ! !

وأجاز للرجل أن يتزوج كتابية مسيحية أو يهودية ولكنه حرم عليه الزواج من وثنية أو مشركة !!

شكل القرآن

القرآن هو كتاب الله المفصل الذى أنزله على رسوله تدريجياً فى أثناء ثلاث وعشرين سنة من أول مبعثه فى ليلة اليوم السابع عشر من رمضان وأول ما أنزل منه على أصح الأقوال « إقرأ باسم ربك الذى خلق » وآخر ما نزل منه على أصح الأقوال « واليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » وقد نزلت يوم الحج الأكبر فى تاسع ذى الحجة من السنة العاشرة من الهجرة .

وكان الرسول إذا نزل عليه الوحى بآية أو أكثر بلغها لقومه، تنفيذاً لقوله تعالى « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » وكان الصحابة يكتبون كل ما يسمعونه من القرآن على صحف الكتابة فى تلك الأيام وهى الرق أو الجلود أو جريد النخل أو العظام ثم تحفظ مع الآيات السابقة وكان أكثرهم عناية بكتابته على بن أبى طالب ، وسعد بن عبيد وأبا الدرداء ، ومعاذ بن جبل ، وثابت بن زيد ، وأبى بن كعب ، وعثمان بن عفان .

ويبلغ عدد سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة نزل منها فى مكة ٨٧ سورة وفى المدينة ٢٧ سورة ولم تكتب هذه السور فى المصاحف بحسب ترتيب نزولها ولا تناسب موضوعاتها وإنما أخذ ترتيبها عن الرسول نفسه .

وكل آية فيه تؤدى بمفردها إلى غرض واضح مفهوم فهى إما أن تقرر عقيدة أو تأمر بصلاة أو دعاء أو تسن قانوناً أو تشهر بعدو أو توجه إلى عمل أو تروى قصة أو تدعو إلى قتال أو تعلن نصراً أو تنظيم شعيرة دينية على مبدأ أخلاقى أو تضع نظاماً للتجارة والمعاملات .

وقد أعجز أسلوب القرآن وكل كلمة منه فصحاء العرب وهم

أساطين البلاغة واللغة من أن يأتوا بسورة منه أو ببعض آياته مصداقاً لقوله « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

والمسلمون يعظمون القرآن ويقدسونه وقد تفننوا فى كتابة مصاحفه وتزيينها مدفوعين بحبهم له وقد ظل أربعة عشر قرنا من الزمان محفوظا فى ذاكرتهم وكان له الفضل فى رفع مستوى المسلمين الأخلاقى والثقافى لأنه الكتاب المقدس الذى يبدأ منه أطفال المسلمين بتعلم القراءة . .

العبادات الاسلامية

الصلاة

الصلاة هى عماد الدين ومن أقامها قد أقام الدين ومن تركها فقد هدم الدين لأنها المظهر الذى يمتاز به المسلم عن غيره ، وقد فرضها الله ونص عليها فى القرآن بآيات كثيرة ورغب فى أدائها بطرق شتى وهدد تاركها بأنواع العذاب قال تعالى « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » وقوله « قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى » .

ولم يبين القرآن عدد الصلوات المفروضة ولا كيفياتها ولا أوقاتها تفصيلا ولكن الرسول والسنة قد أباناها بيانا تاماً .

والصلاة المكتوبة يجب أن تؤدى خمس مرات فى اليوم والليلة ولا بد أن يسبقها الوضوء تنفيذاً لقوله (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم للصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنبا فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيبا) .

.. وكان الرسول يحذر المسلمين من إهمال الوضوء ويقول لهم إن الله لا يقبل الصلاة بلا وضوء ويحس على تنظيف الأسنان قبل الصلاة وعلى المرأة التى خرجت من الحيض أو الوضع أن تتطهر .

ويصعد المؤذن عند الفجر والظهر ووقت العصر والمغرب والعشاء يدعو المسلمين إلى الصلاة بقوله :. الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا الله .. أشهد أن محمداً رسول الله .. إلخ .

وفى هذه الأوقات الخمسة يجب على كل مسلم فى جميع بقاع الأرض أن يقف عن كل عمل أيا كان ويتطهر بالوضوء ويولى وجهه نحو بيت الله بمكة تنفيذاً لقوله «فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما

كنتم فولوا وجوهكم شطره » ويقيم الصلاة لله واهب الحياة والنعم بنفس الصورة الدقيقة التى يؤديها بها غيره من المسلمين .

وعند الصلاة يذهب المسلمون إلى المساجد لأن أداء الفريضة جماعة أفضل ، ويدخل المصلون المسجد حفاة الأقدام فإذا حان موعدها وقفوا فى خشوع واحترام ورؤوسهم فى انحناء يسير ، جنباً إلى جنب فى صفوف منتظمة خلف الإمام وقد ولو وجوههم نحو المحراب الذى يعين موضع القبلة أو اتجاه الكعبة ثم تقام الصلاة وتبدأ بتلاوة الإمام سورة الفاتحة وبعض آيات القرآن وكذلك يفعل المصلون أو يكتفون بتلاوة الفاتحة ثم يؤدون الصلاة بشعائرها المعروفة من ركوع وسجود وتحيات .. وليس فى صلاتهم أناشيد أو مواكب أو قداس وليس الإمام كاهناً أو قسيساً كما هو عند المسيحيين بل هو رجل عادى يكتسب قوته من وظيفته ويستطيع أى إنسان أن يؤم الصلاة بدلا منه إن كان أهلا لهذه الإمامة .

أما صلاة الجمعة فتقام فى وقت الظهر ولا تصح إلا جماعة فى المساجد قال تعالى «يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » .

وقبيل الصلاة يعتلى الامام المنبر ويلقى خطبة الجمعة وهى تتناول

عادة علاج أهم مشكلات المجتمع وبحث شئون المسلمين ثم يصلى على الرسول ويعظ المصلين بشىء من أفضاله وأعماله وبعد أن يدعوا لآل البيت والصحابة والمصلين ينزل من على المنبر ويتجه إلى المحراب ويقيم الصلاة وهى ركعتين .

الـــزكاة

الزكاة معناها الطهارة والنماء والبركة وهى إخراج جزء معين من المال فى سبيل الله وقد فرضها الله على المسلمين بالمدينة المنورة فى السنة الثانية من الهجرة وبينت السنة الكريمة أحكامها ومقدار ما يؤخذ لها شرعاً سواء من المال أو الزرع أو من التجارة أو الماشية وكذلك وقت أخذها كما قال تعالى « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » .

أما مصارفها فقد بينها القرآن بقوله « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل » .

والحكمة فى فرض الزكاة هو لتبادل محبة القلوب بين جميع الطبقات وإزالة أحقاد أهل الفاقة بما فرض لهم فى أموال الأغنياء وبذلك ينجلى معنى التضامن المادى الذى أوجبه الإسلام بين أهله قياماً بحق

الفقير فى سد حاجته وصون كرامته فيطهر قلبه من الحقد والحسد ويخلص فى معونة أخيه الغنى القادر .

الصـــوم

فرض الله فى القرآن صوم شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن وكانت فرضيته على المسلمين فى يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة حيث نزل الوحى بقوله « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » .

والصوم فرض على كل مسلم لا يغفر الله له تركه إلا فى الحدود المشروعة « فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » .

ثم بين الله الزمن الذى يمسك فيه الصائم عن المفطرات بقوله «وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل » .

وحكمة فرض الصوم هى قمع شهوات النفس ومساواة الأغنياء بما يشعر به المعوزين والفقراء من آلام الجوع والحرمان فيسارع الأغنياء بإعطاء إخوانهم الفقراء ما يرفه عنهم هذه الآلام، ولهذا فرضت زكاة الفطر فى نهاية الصوم .

وإذا أهل الشهر وعدته تسعة وعشرون يوماً فى بعض السنين ، وثلاثون يوماً فى بعضها أمسك المسلمون عن الطعام والشراب والتدخين وعن الصلات الجنسية منذ طلوع الفجر حتى غروب الشمس لأن الصيام معناه الإمساك عن شهوة البطن والفرج والامتناع عن جميع المفطرات مع النية ، وأبيح الإفطار شرعاً للمرضى والمسافرين والصغار والشيوخ والحاملات والمراضع والضعاف والحائضات بشرط الفدية أو التعويض بصيام أيام أخر .

وعند انطلاق مدفع الافطار أو آذان المغرب يفطر المسلمون فيأكلون ويشربون كل ما يشتهون ويدخنون ويباشرون نساءهم حتى طلوع الفجر ويعتكف الأتقياء الصالحون الليالى العشر الأخيرة من رمضان فى المساجد للعبادة طلباً لليلة القدر التى وصفها الله بأنها خير من ألف شهر والمعتقد أنهـــا فى ليلة السابع والعشرين منه . فإذا ما انتهى الشهر احتفل المسلمون بعيد الفطر المبارك وأخرجوا زكاة الفطر وتبادلوا التهانى والعطايا .

الحـــج

والحج وما ينطوى عليه من مناسك التقى والورع فى شعائره ، مظهر لقوة الدين الإسلامى ووحدتها الشاملة الخالية من كل الفروق

فى عقائده ، وإعــلان كريم لقوة إيمان المسلمين وحبهم لربهم واستمساكهم بدينه الذى ربط بين قلوبهم مهما اختلفت ألوانهم ولغاتهم ، ومكن من روح المودة بينهم .

وقد فرضه الله على المسلمين فى السنة السادسة من الهجرة بقوله : « ولله على الناس حج البيت » . وجعله مؤتمراً سنوياً يجتمع فيه الناس من كافة الأمم والأجناس والطبقات فى أماكن الذكريات التى يتمثل فيها التقاؤهم مع جدهم الأكبر الخليل أبو الأنبياء والمرسلين.

وحكمة الحج تبين استجابة الله لدعوة إبراهيم عندما قال « ربنا إنى أسكنت ذريتى بواد غير زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فأجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات » .

وبين القرآن والسنة مناسكه ومشاعره ووقته ، وقد كان الحج مفروضا على الناس منذ عهد إبراهيم بعد أن رفع قواعد البيت مع ولده الأكبر اسماعيل مصداقا لقوله « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا » . وعندما يصل الحجيج إلى مكة يرتدون ثيابا بسيطة « ملابس الإحرام » وهى عبارة عن قطع من الأقمشة البيضاء يلف بها الجسم . . ويتلون كلهم أدعية واحدة عند الطواف بالكعبة ويفرض عليهم طوال إقامتهم فى الأماكن المقدسة (مكة وعرفة ومنى)

الامتناع عن جميع المنازعات وعن ارتكاب كل ما هو محرم وممنوع فإذا دخلوا المسجد الحرام الفسيح الجنبات دلفوا إلى الكعبة المكرمة وهى بناء صغير من الحجر مربع الحجم فى قلب المسجد مكسوة جدرانها الخارجية بكسوة من الحرير الأسود الثمين وفى أحد أركانه الحجر الأسود .

ويطوف الحاج سبع مرات حول الكعبة ويقبل الحجر الأسود ثم يسعى مهرولا سبع مرات بين الصفا والمروة إحياء لذكرى هاجر وهى تبحث عن الماء لتروى به ظمأ ولدها اسماعيل وذلك تنفيذاً لقوله « إن الصفا والمروة من شعائر الحج » .

وفى صباح اليوم التاسع من ذى الحجة يخرج الحجيج إلى جبل عرفات وعند الغروب يعودون منه إلى المزدلفة لقضاء ليلتهم ولجمع الجمرات ثم يهرعون إلى منى ويرمون بالجمرات ثلاث علامات من الحجر على شكل أعمدة صغيرة ترمز إلى إبليس اللعين لأن إبراهيم عليه السلام قد رجم الشيطان بهذه الطريقة حينما ظهر له فى هذه الأماكن محاولا أن يثنيه عن ذبح ولده اسماعيل .

وفى صباح اليوم العاشر من ذى الحجة وهو يوم عيد الأضحى ، ينحر الحجيج الأضحية ويتصدقون بها على الفقراء ويأكلون بعض

لحومها . والمسلمون فى جميع أنحاء العالم يحتفلون معهم بالعيد فينحرون الذبائح فى هذا اليوم ويوزعون اللحوم والصدقات تقربا لله .

انتصار الدين

ويفضل تكاتف المؤمنين انتشرت كلمة الله ومبادىء الإسلام، وتم للرسول ما أراد .. ففى السنة الثامنة من الهجرة هيأ الله للمؤمنين أسباب الفتح فدخلوا مكة التى أخرجو منها بغير حق ، واستقرت فيها أقدامهم وخفقت راية الإسلام إعلاما بنصر دين الله وارتفع فيها صوت الإيمان بالتسبيح والتمجيد والتكبير لله الواحد القهار من باطن الوديان ومن فوق الدور والهضاب ودخل الرسول والمؤمنون بيت الله الحرام وظهروه من الأصنام والأوثان وتحقق لهم بذلك وعد الله: « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » .

واتسعت الفتوحات الإسلامية وامتدت مملكتها ، فبعد فتح العراق والشام فى السنة السابعة من الهجرة ثم فتح فى سنة عشرين وفتح بلاد فارس فى السنة الحادية والعشرين من الهجرة وانتقل الصحابة إلى هذه البلاد وفيهم الحفاظ والعلماء والمحدثون والفقهاء فوجدوا فيها من مختلف العادات والمعاملات ما ليس معروفا فى جزيرة العرب إذ كان لكل قطر من هذه البلاد عاداته وأخلاقه ونظامه ، واطلعوا

على ما ألفه الناس في معاملاتهم المدنية وما كان لهم من نظم وعادات وأبلغوهم أن الإسلام لم يأت ليهدم كل ما كانوا عليه من مدنية ليؤسس على أنقاضها مدنية وعادات وأخلاقاً أخرى ، وإنما جاء بشريعة تصلح لكل زمان ومكان ، فما كان من عاداتهم ونظمهم صالحاً أقره وجعله من شريعته . . وما كان ضاراً نهى عنه وحرمه.. وما احتاج إلى تنظيم أدخل عليه من التهذيب ما جعله صالحاً وفيه خير للناس .

الحكم الاسلامى

ولم تنعم هذه البلاد طوال تاريخها بحكم رحيم عادل كما نعمت به في أيام الفتح الإسلامى لأن قسوة الفراعنة وأباطرة الروم وملوك اليونان والفرس كانت قد وصلت إلى أقصى حد فى الهمجية وغلظة القلب .

وقد كان المسلمون أقدر أهل زمانهم على تصريف الشئون العامة للحياة فكانت قوانينهم قائمة على العدل والرحمة والنزاهة ويشرف على تنفيذها هيئة قضائية من العلماء حسنة النظام ولهم شرطة أمناء يسهرون على الأمن وراحة الناس فى المدن المغلوبة ، وهيئة رقابة محكمة على الأسواق والمكاييل والموازين وكانت الضرائب معقولة مما أدى إلى ارتفاع الدخل القومى وزيادة الموارد الحكومية ولم يكن مصدر هذه الإيرادات هو الضرائب بقدر ما كان أثراً من

ثار الحكم الصالح .

وكان أهل البلاد المغلوبة يعدون حكم الفتح الإسلامى نعمة وبركة على بلادهم لأن هؤلاء الفاتحين لم يبقوا على الضياع الزراعية الواسعة فوق ما يجب وكان العبيد والضعاف يلقون على أيدى المسلمين معاملة أحسن فكثير مما كانوا يلقونها على أيدى سادتهم الأولين وقد أدى هذا إلى جعل المسيحيين يفضلون حكم المسلمين على حكم المسيحيين

وبفضل عناية الإسلام بالعلوم والمعارف، ازدهر التقدم الفكرى والعلمى فى البلاد التى فتحوها أكثر مما بلغته الحضارة الأوروبية فى ظل المسيحية . . وكان استمساك الطبقات الشعبية بدينها الإسلامى المجيد وعقائدها سبباً فى زيادة سلطان الفقهاء من علماء الدين ، مما جعل الخارجين على الدين أو المخالفين لهم فى العقيدة ينزوون فى بيوتهم أو يلزمون الصمت إلا عن الكلام المفيد الذى تقبله جمهرة الناس وقد كان الموت جزاء لمن ارتد عن دين الإسلام ! !

وأبرز النتائج التى أسفر عنها الفتح الإسلامى لأفريقيا هو اختفاء المسيحية من هذه القارة اختفاء تدريجياً ذلك أن المصريين والسودانيين والمغاربة وأهل ليبيا لم يعتنقوا الإسلام فحسب بل أصبحوا فوق ذلك أكثر أنصاره تعصباً له ودفاعاً عنه غير أن أقلية قبطية ظلت متمسكة بدينها فى مصر وأثيوبيا وأقامت كنائسها شبيهة بالحصون لتؤدى فيها مناسكها ! !

دار الفكر والفن
عبد اللطيف زكى
تليفون : ٩١٣٧٣١

رقم الإيداع ٧٦/٢٦٩٢
الترقيم الدولى ISBN ٩٧٧



دار مأمون للطباعة
ت : ٢١٢١٨


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين